روايات الهلال

أحمد الشيخ

أرضنا وأرض صالح

Amly
http://arabicivilization2.blogspot.com

روايات الهلال

سلسلة شهرية لنشر القصص العربى والعالمى تصدر عن مؤسسة دارالهلال

رئيس مجلس الإدارة

عبد القادر شهيب

رئيس التحرير

مجدى الدقاق

المستشار الفنى

محمد أبو طالب

الإصدار الأول - يناير ١٩٤٩

العدد ٧١٨ - اكتوبر (تشرين أول) ٢٠٠٨م - شوال ١٤٢٩هـ - بابه ١٧٢٤ق

الاشتراكات

قيمة الاشتراك السنوى (١٢ عددا) ٦٠ جنيها مصريا داخل (ج.م.ع) تسدد مقدما نقداً أو بحوالة بريدية غير حكومية - البلاد العربية ٣٥ دولارا - أمريكا وأوروبا وآسيا وأفريقيا ٥٠ دولارا - باقى دول العالم ٦٠ دولارا.

القيمة تسدد مقدماً بشيك مصرفى لأمر مؤسسة دارالهلال .

بريد الاشتراكات

Email : subscription_dep@yahoo.com

الإدارة

القاهرة:

١٦ شارع محمد عزالعرب بك (المبتديان سابقا) ت: ٣٦٢٥٤٥٠ (٧ خطوط).

المكاتبات:

ص.ب: ٦١ العتبة - القاهرة - الرقم البريدى ١١٥١١ - تلغرافيا: المصور - القاهرة ج.م.ع.

تلكس:

Telex 92703 hilal u n

فاكس:

FAX: 3625469

ثمن النسخة

سوريا ١٢٥ ليرة - لبنان ٥٠٠٠ ليرة - الأردن ٢٠٠٠ فلس - الكويت ١,٢٥٠ فلسا - السعودية ١٢ ريالا - البحرين ١,٢ دينار - قطر ١٢ ريالا - الإمارات ١٢ درهما - سلطنة عمان ١,٢ ريالا - اليمن ٤٠٠ ريال - المغرب ٤٠ درهما - فلسطين ٣,٥ دولار - سويسرا ٤ فرنكات - السودان ٣,٥ جنيه

البريد الإلكترونى:

darhilal @ idsc. gov. eg

أرضنا وأرض صالح

أحمد الشيخ

دار الهلال

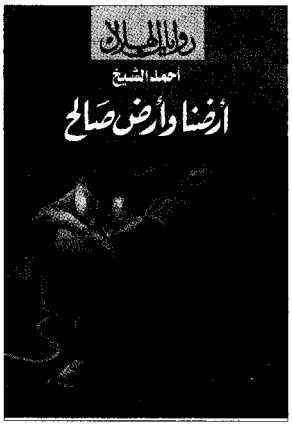

الغلاف للفنان : محمد أبو طالب

الخطوط للفنان : محمد العيسوى

المتابعة : ياسر شعبان

http://arabicivilization2.blogspot.com Amly

وكانت غفوات الصحو والتأمل الغويط تقودنى إلى سراديب الرؤى الغامضة ، أسأل نفسى إن كانت لحظات الخروج من بطنها على هذا النحو فعلا أو أنها محض رسوم اقتحمت الذاكرة على مهل ؟ لعلها لم تكن منبتة الصلة بما جرى بالفعل ولعلها تكونت فى اللاوعى مسنودة على خبرات قديمة قدم الحياة نفسها ، لكننى فى كل الحالات كنت أرانى منفلتا على غير ما كانوا يتوقعون ، وبحسب ما كانت تحكى لى ولكل الحاضرين من الأهل والأقارب بعد أن كبرت وصرت بحسابات الكبار رجلا ، تحكى مزهوة بنفسها أنها أفلتتنى بكل اليسر رغم أننى انولدت قبل الموعد المحسوب بأكثر من شهرين ، كنت أشاركها الحديث الجالب للضحكات أحيانا لكل من يسمعه قائلاً إننى استشعرت خروجى من داخلها مندفعا إلى أرضية القاعة الجوّانية الرطبة وكيف اختلط السائل اللزج ودم "خلاصى " بالرماد الناعم قبل نزول " الخلاص " نفسه ، أقول إننى تشممت رائحة الرماد واستشعرته ساكناً فوق مقدمة الرأس وأجزاء من البدن العريان فيضحكون ، أسرح بخيالى قائلا لهم بينما أتأمل ملامحها أو أبوح لها بينى وبينها : إنه من المحتمل جدا أن أكون قد أحسست بأصابع " أم يوسف " وهى تلتقطنى وتربط حبلى السرى من فوق بطنى بخيط متين قبل أن تفصله عن" الخلاص" ثم ترفعنى مقلوبا وتربت على ظهرى بخبرة السنوات الطويلة فى التوليد والإرضاع ، أقول واثقاً ومسنودا إلى إمكانية تصديقى : إنه حدث أننى بكيت لأول مرة بينما أتنفس فى ذلك الركن هواء تلك القاعة الذى مازلت أميزه ، فهل كان هواء تلك القاعة المهجورة مميزا بالفعل فى تلك اللحظات ؟ أزعم أنه كان كذلك وما يزال ، لكننى كنت أشعر أننى سوف أبالغ فى وجود الآخرين لو أكدت قدرتى على تمييز رائحة ذلك الهواء الذى كنت قد تشممته فى أول تجربة شم فعلى عبر تلك اللحظات ، وسوف أصادر على نفسى لو

قلت إننى لم أستشعره أو أتشممه بشكل لائق ، كنت أستند إلى احتمالات إحساسى بحدوث ما حدث لأننى كنت قد قرأت وأنا فى سن الإدراك ومحاولة الفهم أن الجنين فى بطن أمه يحس بمثل ما يتغذى ويتحرك ويفرز الفضلات ، أحيانا كنت أقول لنفسى إنها محض تخيلات ترسبت فى الوعى من اللاوعى بعد أن قرأت تفاصيلها مئات المرات ، لكنها على كل الحالات بحساباتى وحسابات الوقائع التالية أول سقطة تحدث لى وإن بدت زيارة غير مألوفة أو متوقعة من كل الناس فى ذلك الزمن القديم لأننى جئت قبل موعدى بشكل مؤكد بحسب كلامها ولم أكمل حتى شهرى السابع فى بطنها، وكثيرا ما كانت تحدثنى وهى تشير بإصبع سبابتها القصير مفرودا وحده من كفها الصغير إلى تلك البقعة أو مكان السقطة على وجه التحديد فى دار المرحوم والدها الذى لم أره أبدا بينما تبتسم :

- هنا كان مسقط رأسك يا سيد .أتأمل المكان الذى صار مألوفا لى وتربطنى به على نحو غامض مشاعر حنو متبادل، إن كانت الأرض الرطبة المهجورة تعرف الحنو كما نعرفه ، أسأل نفسى إن كانت تلك البقعة من الأرض على وجه التحديد هى التى استدعتنى رجلا فى الخفاء فأتيت كى أتأملها وأتأكد من جذورى ؟ أتساءل بينى وبين نفسى إن كانت أمى هى التى لفظتى قبل موعد خروجى المألوف لتخلص منى أو أننى تعجلت الخروج رغم إرادتها ؟ . أتساءل ولا أجيب . تحكى دليلة أو أم يوسف عن صرختى العالية التى كانت صاخبة أكثر من كل الصرخات التى سمعتها هى لحظة أى ميلاد فأسرح بخيالى مرتبكاً ، يتضاحك الحاضرون لأننى بكل الحسابات سرحت فى البعيد عنهم ، تهمس أمى بمودة ساخرة بينما تنصّب نظراتها ناحية العينين بلوم ناعم :

عملت لنا فضيحة .

كنت فى المرات الأولى التى أسمع منها تلك العبارة أشعر بالخجل من نفسى لأننى صرخت بصوت عال ، وربما لو كنت أملك القدرة على صياغة عبارات الاعتذار المناسبة ما ترددت أبدا ، كان فى داخلى خجل حقيقى لأننى أتيت أو خرجت على غير موعد ثم صرخت عاليا وعملت لها فضيحة على النحو الذى كانت تؤكده وتؤكده كل من حضرت الواقعة أو الوقعة ، لكننى بتكرار تلك الرواية عشرات المرات لم أعد أستشعر ذلكَ النوع من الخجل ، ربما لأننى عرفت إن الصرخات تصاحب كل من يولد كإعلان على الوجود الجديد، تختلف حدة الصرخات لكنهم جميعا يصرخون ، ولا بد أننى تآلفت مع المكان وصرت أتشمم رائحته ، أستعيدها وأستكشف الفروق بينها وبين كل الروائح التى تفح أو تصدر عن الأماكن الأخرى ، أقول لنفسى أنها نفس الرائحة القديمة التى تسربت إلى أنفى وعبرت حلقومى ، امتزجت بتلك الخلايا الحية التى شكلت مولودا كنته أنا فى الزمن القديم ، كان يتأكد لى أن ذلك الرماد الناعم الذى التصق بجزء من رأسى وأجزاء من بدنى تفاعل مع كيانى وتسلل ليكوّن فى الدماغ أول خبراته مع الحياة ، يبدو لى أننى على نحو غامض كنت قد انعجنت برماد تلك البقعة ثم تنفست هواءها وأننى لأول مرة سمعت فيه أصواتا وصرخات وهمسات لم أميزها ، تحسست الأرض أو تحسسّتنى ، انطبعت على بدنى بمثل ما انطبعت أنا على سطحها ، تلقتنى بحنو يليق بمولود سقط لتوه فوقها ، وكانت المساحات تتسع بمرور الأيام ، أنظر إلى مكونات القاعة والدار وأسمع أصوات ناسها، أتآلف أكثر مع صوت أمى وأشبع من لبن صدرها وأطمئن وأنا فى حضنها، تحتوينى بحنو أحتاجه وأحتج صارخا لو لم أحصل عليه فى كل الأوقات ، بعدها زحفت وقعدت فى الأركان قبل أن أخرج من باب الدار بمساعدتها أو بمساعدات غيرها ، شاهدت بوعى حقيقى ذلك الزقاق وميّزت أصوات

ناسه ، رأيت تفاصيل الوجوه التى لم أكن قد رأيتها من قبل ، كانت المساحات تتسع يوما فى إثر يوم ثم انقطع الخيط تماما ، درت حول نفسى فى فراغ لفترة لم أستطع تحديدها .

رأيتنى فى مكان آخر وسط ناس غير الناس ، أبحث عنها بين الوجوه فلا أراها ، أبكى وأبكى تعبيرا عن عدم الموافقة على ابتعادها عنى أو ابتعادى عنها، يحاولون إسكاتى فلا أسكت ، عاجزا عن الكلام بمثل ما يتكلمون ومتشوقا لصدرها وهمساتها ورائحتها التى كنت أطمئن إليها وأنام ، حتى فى الحالات التى كنت أشعر فيها بالجوع أو العطش أو إخراج الفضلات كنت أثق أنها سوف تأتى وتحملنى ، تنفّذ رغبتى وتبعث فى قلبى السكينة والإحساس بالأمان ، لكنها لم تأت أبدا ولا استشعرت أنفاسها إلى جوارى مرة أخرى، لا بد أننى كنت أغيب عن الوعى فى ساعات الصحو وأشعر بالأنامل الغريبة وهى تتحسّسنى لتتأكد إن كنت ما زلت أعيش أو أننى فارقت الحياة معانداً ، كان الجوع يعتصر أمعائى برغم كل محاولاتهم لإطعامى أو إرضاعى من صدور أخرى غير صدرها ، كنت أرفض وأرفض ثم أستسلم مغصوبا بغريزة الجوعان الراغب فى مواصلة الحياة وفى داخلى رغبة أخرى فى الخلاص من حياتى ومكابداتى ، لكن إرادة الحياة انتصرت وواصلت الحياة بحسب ما قالوا لى بعد ذلك وأنا على عتبات الوعى أو الفهم، لا بد أننى من داخلى كنت أرغب فى مواصلة الحياة، لكى أحاسبهم وأسألهم عنها أو أعاتبها وأسألها عن سر غيابها عنى ، أنتظرها لتأتى وتأخذنى أو يساعدنى أحدهم على الوصول إليها فتحوطنى بذراعيها وتدفئنى فى حضنها ولو مرة وحيدة أخيرة ، تتحسّس بدنى وترضعنى أو تطعمنى وتسقينى ثم أموت ، تغمغم لى أو تهدهدنى لأنام باطمئنان كنت قد افتقدته تماما وظللت أفتقده ، كانت الرغبة فى داخلى غير

منطوقة ويستحيل الخلاص منها حتى وأنا فى مراحل الوعى التالية ، لكنها لم تتحقق على امتداد السنوات ، كنت أخزّن فى داخلى أملى فى استعادتها بينما أسمع حكايات جدتى لأبى عنها وكيف أنها تعيش هناك فى نفس القرية التى تركناها وابتعدنا عنها ، فارقناها وعشنا بعيدا بالغصب عنا ، كانت تضيف أن أولاد الحرام كانوا وراء انفصالها عنه وابتعادى عنها ، كانت أمى بالنسبة لى خيالا منسوجا فى فراغ بلا تقاطيع ولا ملامح محددة ، لكن طيفها تباعد عنى بعد أن أكدت لى الجدة فى واحدة من تلك الأمسيات الصيفية أن أمى دخلت بيت رجل من النّاس الشّلبى وصارت له زوجة، أتذكر ما كانت هى تقوله فى السابق عن الناس الشلبى الذين هم ناس أمى وعائلتها والذين لا ترتاح لهم جدتى ولا تحب سيرتهم ، ناس بلا أصل، غرباء عن الكفر الذى تركناه وابتعدنا عنه ، لكنه كفرنا وفيه ناسنا وأرضنا، ميراث أبى وميراثى عن ذلك الجد الذى افترى عليها وعلينا ، أستعيد ملامحه وأراه ماثلا أمامى بعوده الفارع "وشمروخه" المركون إلى جواره إذا قعد والمسوك فى يمينه إذا وقف أو سار ، أستعيد ابتسامته لى بينما يضع فى حجرى الصغير زرع الغيطان بعد أن يمسحه بطرف جلبابه ويطلب منى أن آكل بالهناء والشفاء ، بلح زغلول أو رطب أو جوافة ناعمة ، حمراء أو بيضاء ، جميز أو توت أبيض وأحمر واسود ، عناقيد عنب فيها بذور أو خالية من البذور من فوق التكعيبة الساكنة فوق الخارجة الواسعة المسكونة بالبقر والجاموس والماعز والخراف من كل الأحجام ، وأحيانا خيار أخضر أو قثاء أو بطيخة صغيرة أو حتى حزمة قصب تنحط بيننا فأكتشف ما سبق أن اكتشفته بأن هناك أعواد قصب قشرتها حمراء أو بيضاء أو فيها خطوط حمراء وأخرى بيضاء بصفرة ، يهمس لى بمودة لأنه اكتشف إعجابى بتلك الخطوط وكأنه يمنحنى سرا بينما يربت على ظهرى مبتسما .

- ده بقى يا سيد اسمه " خد الجميل

كان يأتينى بكل شئ من زرع تلك المساحة الواسعة الكائنة بين الترعة الصغيرة والترعة الكبيرة على رأس الغيط ، وما يزال وجهه الباسم بشاربه الأبيض الكثيف الناعم فى الذاكرة وما أزال أحب الرجل ، أتشوق لرؤيته مثلما أتشوق لرؤية تلك الأم التى كانت بلا ملامح ، لكن ملامح الرجل ماثلة ومطبوعة فى الذاكرة ويستحيل نسيانها ، حتى شمروخه المميز وعباءته الفضفاضة أكثر من كل العباءات والتى كان يغطينى بها لو شعرت بأى برد، ، لعل جدتى كانت تقرأ ما يدور فى ذاكرتى أو أتوهم أنا ذلك ، أسمعها وهى تؤكد أن الظفر لا يخرج من اللحم وإن خرج فإنه يخرج بالدم ، كأنها تطمئننى بأنه فى الزمن القريب الآتى سوف تعود المياه الى مجاريها ويعود الحق لأصحابه ، كان فى إيقاع كلماتها شيئا شبيها بالأحلام أو الأمنيات مستحيلة التحقيق ، شيئا يشبه إمكانية حصولى فى الصباح التالى على دراجة تخصنى أتمكن من ركوبها والجرى بها فى شوارع المدينة دون أن يختل توازنى وأسقط سقطة موت كتلك التى سقطها جدى القديم من سطح داره فوق حجر الطاحونة القديم قبل أن أراه ، لا بد أننى بمرور الأيام تأكدت من استحالة رؤيته حيا يتحرك بخفة ونشاط فتشبثت بملامحه بديلا عن وجوده دون أن أدرى ، ولعلنى فى تلك المراحل الأولى من عمرى كتمت رغبتى فى الذهاب إلى أمى البعيدة رغما عن إرادتى ، استشعرت على نحو خفى أنها فى مكان لا يخصها وحدها ، مكان لا يحق لى دخوله لأنه كان مملوكا لرجل آخر غير أبى اتخذته زوجا ، بينى وبين نفسى كنت أتشكك فى كلام جدتى عن عدم قدرتها على الخروج من دار الرجل الغريب عنا لترانى ولو مرة واحدة ، تبرر لى غيابها وتبرر ابتعادها عنى كل هذا الوقت ، لكننى كنت أشعر أنها فى تلك الحالات لم تكن تصدق نفسها وتعرف أننى لن أصدق .

●●●

كان أبى يحادث جدتى همسا فى واحدة من تلك الأمسيات عن مشواره لذى تأجل ، وأذكر أنها وافقته على مرافقته فى المشوار ، كلاهما كان ينظر ناحيتى نظرات غريبة إلى الحد الذى جعلنى أتشكك بأنهما سوف يتركانى وحدى ، هل همست لجدتى محتجا على تركى وحيدا أو أننى بكيت فأحاطتنى بذراعيها وضمتنى إلى صدرها وهى تقول بصوت عال :

- مش ح نسيبك لوحدك أبدا يا ضنايا ، نسيبك إزاى ؟ حد يسيب ضناه ؟ إحنا ح ناخدك معانا يا سيد .

أذكر أنه فى الصباح التالى استأجر سيارة مخصوص وقفت أمام باب البيت وأخذنا لنركب وتسير بنا السيارة فى اتجاه كفر عسكر كما قال للسائق ولها ولى ، كأنه كان محبوسا فى المدينة التى كنا نعيش فيها ، كفر عسكر ، اسم سمعته آلاف المرات ، سكننى ولم أكن ساكنه فى تلك السنوات لكننى كنت منسوبا لناسه ، لأولاد عوف الذين لهم ينتمى هو وهى وأنا على العكس من أمى التى هى من جماعة شلبى ، وصلنا إلى كفر عسكر فى الظهيرة ، دخلنا دار ناس لم أشهدهم من قبل ، كنت أشعر بالجوع ولا ابوح، وبأصوات خافته كانوا يتحدثون ، وعندما دخلت امرأة فى وسط القاعة وحطت كفها مفرودا ومحنيا فوق شفتها العليا وأطلقت زغرودة قام رجل من بين الرجال وضربها بالكف فسمعناها تصرخ بينما ترمح هربا وهو يسبها ويلعنها :

- يا بنت المراكيب .. عاوزه تجيبى لنا نصيبه .. الراجل الكبير ميت ما فاتش عليه سنه .

وساد صمت إلا من نهنهات آتية من خارج باب المندرة المزحومة بالرجال والنساء ، سمعنا بوق سيارة فكأنه كان علامة للكل أو أمر بالوقوف، وخرج أبى وجدتى وأنا ممسوك فى قبضة يدها ، ركبنا نفس العربة فى ساعة

المغيب المبكر وركبت إلى جوار أبى بنت كبيرة جميلة التقاطيع كانت جدتى تحادثها بمودة طول الطريق وتناديها باسم " روحية " فترد عليها بصوت خافت أو تطرق ولا ترد ، ترفع عينيها ناحية أبى خلسة وتربت على كتفى صامته بنصف ابتسامة ، وعندما وصلنا إلى بيتنا الكائن فى المدينة دخلت هى معنا ، وعند باب حجرة حملها أبى ودخل بها بينما سحبتنى جدتى إلى الغرفة الأخرى ، أطعمتنى فتخلصت من جوعى ، راحت تحكى لى حكايات فنمت وصحوت فى الصباح التالى علىّ لمساتها وهمساتها الخافتة بنغمات ساخرة :

- اصحى بقى يا سيد .. مش تقوم تبارك لأبوك ؟ إيه رأيك ف روحيه ؟ حلوه ؟ هى حلوه .. بس يا رب يكون طبعها حلو برضه ، ما هى دى ح تبقى مرات أبوك وبدل أمك .

مستسلما لكف جدتى الممسك بكفى سرت إلى الحجرة الأخرى وقد انفتح بابها ، رأيته بجلباب أبيض جديد وطاقية بيضاء صغيرة ورأيتها بثوب ناعم وشعر مفرود وتقاطيع حلوة ، أسرعت هى ناحيتى وحملتنى ، قبلتنى عدة قبلات وضمتنى إلى صدرها الطرى فاستشعرت دفئا من نوع آخر ، كنت أسمع همسات أبى وجدتى ولا أميزها ، وكانت هى تقبلنى فيصدر عن قبلاتها صوت غير كل الأصوات الأخرى ، أقعدتنى على حجرها وهمست :

- من النهارده يا سيد إنت ح تبقى ابنى وأنا أمك ، أعمل لك إللى انت عايزه ، أى حاجه عاوزها تقوللى عليها ، بس تقوللى يا أمه ، تقوللى إيه ؟ هيه ، ح تقوللى إيه يا سيد يا ابنى ؟

لم أرد ، نظرت إلى جدتى وأبى عدة نظرات ، لعلنى كنت استفسر منهما إن كانت هذه بالفعل أمى الجديدة ، وأوشك أن أسأل جدتى عن تلك الحكايات التى كانت ترويها لى عن أمى الأخرى والساكنة بحسب ما قالت

في كفر عسكر حيث كنا فى اليوم السابق ، لكننى لم أحصل على جواب أو حتى غمزة بعين أو إيماءة من رأس ، كنت أرى على الوجهين فرحة وانشغال بمن وفدت إلينا وسوف تبقى ، هزت جدتى رأسها عدة هزات قبل أن تهمس لى ولروحية فى نفس الوقت :

- قول لها يا نينه ،يبقى يقول لك يا نينه ، مش كده برضه يا حسن يا ابنى ؟

- كله زى بعضه يا أمه ، وماله ، نينه نينه

لا بد أننى تعايشت خلال تلك الأيام مع كل من كانوا يحيطوننى ، وكنت أكبر ، أمشى وأرمح وأنطق الكلمات الجديدة فى المدرسة وأميز بحساسية لا أعرف مصدرها من يتعاطف معى بصدق ومن يكرهنى بلا أسباب ، كانت جدتى فى ذلك الزمان القديم هى الصدر البديل الأكثر حنوا ، تطعمنى وتسقينى وتلبى رغباتى الصغيرة ، لعلنى لم أطمئن تماما للوافدة الجديدة بقدر اطمئنانى لها وتصديقى لكل ما كانت تقوله لى أو تهمس به أو حتى تغمزنى لأفعل أو لا أفعل فأستجيب ، لعلها كانت حساسية موروثة كما قال الكبار عندما كبرت ، وكانت فى بعض الأحيان تتباكى على مصيرى التعس وحرمانى من أمى البعيدة ، تسخر فى بعض الأوقات من " روحية " لأنها احتلت مكان أمى زوجة لأبى وأماً كما كانت تقول، لكنها كانت برغم جمال تقاطيعها ونعومة صوتها لحظة التودد شحيحة فى كل شيء ، الخبز والغموس والملاليم التى أطلبها إذا سافرت جدتى وغابت ، أحيانا كانت تدفعنى للعب فى حوش البيت مع العيال ، تعطينى كسرة خبز جاف وتبتسم قائلة :

- إنزل العب تحت يا حبيبى .

وكنت أنزل مغصوبا ومغلوبا ، أسمع كلامها وأنفذه مخافة

العقاب والتخويف إذا قلت لأبى أو جدتى شيئا مما يحدث بينها وبينى فى غيابهما ، وكانت بارعة فى التودد لأبى ومداعبته ، تطمئنه على حالى وتلبية كل مطالبى إذا سألها لأننى بحسب ما كانت تؤكد له سوف أكون أخا أكبر لضناها الآتى فى علم الغيب ، أحيانا كنت أتسمع صوته يسألها إن كنت قد تناولت وجبة العشاء فتقسم له بأننى تعشيت وانبسطت ، أكون صاحيا تحت الغطاء لكننى لا أتقلب أو أجرؤ على رفعه عنى أو أقدر على تكذيبها ، كنت أخاف منها وأتشكى لجدتى فى الخفاء فكانت تلعنها وتعاركها إذا شافتها أو سمعتها تتحرش بى ، تهددها بأن تقول لأبى بعد رجوعه من الشغل ليخلص منها ، تعايرها بأصلها الوضيع وتزدريها إذا أقسمت بأنها تخدمنى لوجه الله وقد تركتنى أمى وتخلت عنى وما فكرت فى طلب رؤيتى مرة أو السؤال عنى فى أى مناسبة وكيف أنها انشغلت بعيالها من زوجها الثانى ، تقاطعها جدتى وهى تتحسسنى بيديها

- اخرسى ياغسالة يا بنت الغسالة ، يا لحاسة لصحن ، إنتى نسيتى روحك يا روحية ولا إيه ؟ ايش أوصلك لامه يا بنت المراكيب ؟ دا المداس إللى بتلبسه برقبة عشره زيك .

وتسألها أحيانا باستنكار ساخر وعيناها مركزتان على وجهها الذى كان يتلون باللون الأصفر :

- بقى هى لو كانت لسه على ذمته كنتى تطولى تشتغلى عندها خدامه؟ دى ما كانتش ترضى تشغلك خدامه .

تسكت روحية ولا ترد أو تتسحب من المكان وهى تبرطم بكلام غير مميز ، لكن جدتى كانت فى بعض الأحيان تنصحنى بأن أطاوع روحية وأسمع كلامها فى غيابها لأن روحى بين يديها ، تطلب منى أن أناديها قائلا: "ياخالتى " .

لكننى إذا طاوعتها وفعلت تبتسم ساخرة منها ثم تهمس فى أذنى بأن روحية لو طلعت السماء برجليها ما طالت أن تكون شقيقة لأمى ، كنت أسرح بخيالى وأتخيل أمى البعيدة وهى أعلى من السماء ذاتها ، أتعجب وأسمع جدتى وهى تهمس

- أنا بس خايفه عليك منها ، دى قادره ولو طالت تسمّك ح تسمك أمك يا ضنايا كانت ست الستات ، إنما يا خسارة ، تقول عبارتها وتسكت فترة تتفكر خلالها قبل أن تضيف

- بس الناس الشلبى أهل أمك ما لهمش أمان ، الواحد منهم يحفر البير بإبره ، قلبوا دماغها بكلام فارغ ، إنعوج ميزانها وساقت اللّوع ، بس أبوك ما طاقش . خلصها قبل ما تولدك بشهرين ، ياريته ما كان خدها من الأول وخلاك يتيم وهى عايشه على وش الدنيا .

أحاول أن أرسم صورة لوجه أمى الذى لم أره فتتوه منى الملامح وتختلط ، أتجاسر أحيانا وأسأل جدتى عن شكلها فتنظر إلى بإشفاق وتهز رأسها ، تحكى عن تقاطيعها الحلوة وشطارتها ونظافتها ثم تسكت ، أشعر أنها تتحسر على ضياعها وقد يئست من التفكير فى استعادتها بعد أن تزوجت وخلفت وانشغلت عنى إلى حد أنها لم تعد تسأل عن أحوالى مجرد سؤال ، تستعيد بعد تسبيلة لعينيها وتحدث نفسها وهى تنظر إلى البعيد وكانها نسيت وجودى إلى جوارها : كان وشها فى وشى وعملت روحها ما شافتنيش ، هما بيولدوهم وينسوهم ؟ طيب تسأل وتطمن على ضناها العيل ذنبه إيه يارب ؟ العيل ذنبه إيه ؟

تلتفت ناحيتى وكأنها اكتشفت وجودى إلى جوارها ، تحتوينى وتقبلنى وربما تمنحنى قرشا وتوصينى بأن أشترى أى شئ أريده فأفرح وأرمح وأنسى .

●●●

صار الجلباب البلدى الذى فصّله الأسطى زكى علامة مميزة لى فى شارع الحكمة، كنت أرتديه وأقف أمام المرآة لأطمئن على حسن هندامى وأخرج للشارع لألتقى بأصحابى، أرانى على سطح المرآة صورة طبق الأصل من والدى حسن عوف بشحمه ولحمه لو أنه حلق شاربه الذى غزاه الشعر الأبيض على استحياء مثل سوالفه ، أختبر صوتى فيبدو لى أننى أسمع صوته ، أضيق العينين فأراه وقد ضيق عينيه مستفهما مستوضحا أ متأملا فاحصا أو معترضا غاضبا على نحو ما يفعل وأراه ، أسأل نفسى إن كنت أفكر مثلما يفكر فأخاف من الجواب، أقول لنفسى : لو شفت ما شافه فى صدر شبابه فستعجز عن المقاومة وتموت مبكرا يا ولد. كانت الصور تتابع قبالتى وتزويد مخاوفى ، تباغتنى هواجس وتركب دماغى فأحاول إزاحتها بعيدا عنى ولا تنزاح إلا إذا انزحت أنا من أمام المرآة فلا أرانى ولا أراه ، أخاف وأتذكر أننى لم أكمل تعليمى فى المدرسة الثانوية أقول إن مشوارى ما يزال فى بداياته وإن مصيرى بالقطع غامض ، لعل تجربة شلله الذى داهمه وداهمنى لستة أشهر متواصلة جعلنى أشعر بخوف من الدنيا لا سبيل إلى الخلاص منه ، صحيح أنه قام من رقدته بعد جراحة أجراها له فى القصر العينى طبيب أجنبى من بلاد "بره " كما كان يقول متباهيا لأنه غامر بحياته فكسبها وعاش ولأنهم طالبوه بأن يوقع إقرارا بالموافقة على عمل جراحة له فى سلسلة الظهر وكاشفوه بأنها سوف تجرى لأول مرة هنا أو هناك خارج الحدود، تجربة لم يتأكد نجاحها كان من الممكن أن تفشل ويصبح هو فى خبر كان ، لكنه لم يتراجع رغم أن كبيرة الحكيمات فى القصر العينى باحت له بأن احتمالات فشلها أكبر من احتمالات نجاحها بكثير ، طلبت منه أن يراجع نفسه فلم يتراجع :

- أنا قلت لروحى إللى له عمر بيعيش ، صحيح كنت ناعى همك بس ضحكت على روحى وقلت إن إنت لك أهل وعيله ، ولما زاد الوجع قلت ح أعيش مشلول لإمتى؟ سيد وله رب اسمه الكريم حتى لو ما كانش له أهل وناس .

- بس إحنا لنا أهل يا سيد ولنا أرض كمان ، أنا سبت الكفر بس ما إتنازلتش عن حقى حسب شرع ربنا ، كان بينى وبين أبويا خلافات زمان لما كنت إنت لسه ف علم الغيب .

- صحيح أبويا رقص ف فيرحى على شوق لكن أنا قريت ف عينيه عزمه ونيته إنه يحرمنى م الأرض والدار ، ما صدقتش يومها إنه كان فرحان بصحيح ، كان على لسانه كلام ناعم عكس إللى كان مدفون فى حشاه ، بس أنا ركبت راسى ، خسرت رضاه وكسبتها أو إتهيأ لى إنى كسبتها وكسبته كمان ، ولما إنكتبت الأرض باسم برهوم ما إستغربتش .

تذكرت يوم أن جاء إلينا صالح ليبلغ أبى أن برهوم طلبه ليراه ، وقال لكل الناس من حوله أنه سيودع الدنيا ومن فيها وكيف أنهم استجابوا لطلبه وأرسلوا إلينا صالح ليخلصوا من ذنبه ، كان الحزن مخيما حولنا وكان أبى يرتدى ملابسه متعجلا ويطالبنا بأن نسرع بلملمة ملابسنا لأننا سوف نسافر معه إلى الكفر قبل أن يحل المساء ، وعندما وصلنا رأيت الجد عبد القادر بتقاطيعه الحزينة لا يمد يده ليسلم على يد أبى الممدودة إلا استجابة لطلب برهوم الراقد فى استسلام كامل ووهن ، بعدها بدقائق سمعنا أصواتا تندب ورأينا كفوفا تلطم الخدود ، وكان نواح متواصل لعدة أيام .

قال جدى عبد القادر إنه من الضرورى أن يعود أبى إلى الأرض والدار وإنه من اللازم أن يردموا على كل ما فات ، ولم يكن هناك فى المدينة غير

محتويات مسكننـــا التى كان من المفروض أن ينقلها أبى للدار تنفيذا لأمر جدى ، قال أبى إن أوراقى فى المدرسة وإنه من الممكن نقلها لمدرسة البندر فى أول العام الدراسى التالى ، كان صالح أيامها شابا عفيا له تقاطيع غضبانة دائما ونادرا ما كنت أراه يبتسم ، لعله لم يحادثنى على انفراد أبدا مثلما كان جدى يفعل ، وتعلقت بجدى أكثر من كل ناس الدار فى تلك الأيام ، حتى مشاويرى وراء الحمار لنقل الرماد الجاف إلى الدار أو مخلفات المواشى إلى الحقل كان يعترض عليها ويطالبهم بأن يتركونى لألعب فى الأجازة وسط الغيطان ، يذكرهم أننى ما زلت صغيرا على شغل الفلاحين، يتجاهلون أو يتهامسون ويواصلون تحميل الحمار ثم يطلبون منى أن أمشى وراءه لأنه يعرف طريقه للغيط والدار ، أيامها كنت أعيش رغم تعب النهار فى الدار بحريتى ، أرمح فيها طفلا شاعرا أنها أطول أجازة صيف فى حياتى كلها وأن الدنيا صارت أكثر اتساعا بما لا يقاس بحياتى فى المدينة ، يضاحكنى هو أحيانا فأتجاسر وأتحسس شاربه الغزير ذا الشعر الأبيض فيضحك بوجهه الودود ويأخذنى فى حضنه بحب وشمروخه فى يمينه أو مركونا بالقرب منه ، كنت أشعر أيامها أنه كان يتخلص ببطء من همه ويحيطنى برعايته على العكس من كل المرات التى رافقت فيها أبى للزيارة قبل موت برهوم ، ربما كان الموت الذى خيم على الدار قد عشش فى كل القلوب والعقول فحرمها من المودة أو إظهار الحب ما عدا قلبه وعقله ، حتى كلامهم كان يبدو شحيحا وجافا وربما معدوما لساعات طوال ، ولا أدرى كيف تركنا الدار وعدنا للمدينة مرة أخرى رغم إرادة الجد المعلنة بأنه من اللازم أن نبقى إلى جواره ليرعى أبى أرضه ويرعى صالح فى نفس الدار ، لكننى أذكـــر أنه كانـت هناك مشاحنات وأصـــوات عالية عرفت بعدها

من جدتى لأبى أنها كانت من تدبير أم صالح وجدة صالح لأم والتى كانت فى نفس الوقت زوجة الرجل الكبير ، أيامها كان يتأمل صامتا ولا يتكلم كأنما ليريح نفسه وقد أصابه الكثير من الوهن وجلس فوق دكة النورج فى وسط الدار ينظر بعينيه ويحدق فى الفراغ ونادرا ما كان يرد على أسئلتهم فيسكتون ويتباعدون عنه ، لكنه كان يحتوينى خلسة ويتأملنى ، أسأل نفسى إن كانت ملامحى تشبه ملامح برهوم أو أنها حالة من التعاطف الصامت بيننا ؟ وأشعر برغبة فى البكاء من أجله أو من أجل برهوم الذى تعجل بالرحيل فى عز صباه رغم أننى لم أتعامل معه عن قرب ، كنت أراه على فترات متباعدة ولا يوجه لى غير كلمات عن الصحة أو يقول إننى كبرت وزاد طولى عن آخر مرة رآنى فيها ، كان جدى أحيانا يهمس لى خلسة وكأنه يودعنى سرا بأننى أشبه عمى برهوم ، أشعر بأنه لا يريد لسره أن يذاع ، أتعجب كيف أن الموت زرع الحزن فى قلبه الجسور الذى كانوا يصفونه بالقسوة ويدّعون بأنه لم يعرف الرحمة أبدا ، كنت أتعجب ولا أسأل وأكذب أوصافهم التى لم أستشعرها منه بينما أكون إلى جواره يتأملنى بمودة أو ينظر ناحيتى بالعينين اللامعتين المتأملتين المتسامحتين أو حتى يسرح بنظراته للفراغ .

لكننا غادرنا الكفر بعد وعد من أبى لجدى بالرجوع ، لكن الأيام كانت تمر وتتابع والوعد بالرجوع لجدى لا يُنفذ ، لعلنى فقدت الأمل فصرت أراه فى الأحلام ، لا أعرف كم انقضى من الوقت قبل أن نعود ونراه ، كان فى هذه المرة لا ينظر ناحيتى كما كان يفعل فى السابق ، تشككت أنه نسى ملامحى، حتى عندما مددت يدى لأسلم عليه تنفيذا لأمر أبى كان ينظر بعينيه فى اتجاه الفراغ بينما يربت على ظهر كفى ويتحسسها بيده الخالية،

كانت فى الدار زحمة والأصوات تتداخل وتنتج عنها جلبة ، لعلنى كذبت ما قالوه من أنه استدعانا ليودعنا قبل أن يودع دنياه بعد توهان العقل المدود الذى تقطعه لحظات من الوعى تتيح للسانه أن يقول كلاما مختصرا أ يطلب رؤية من يرغب فى رؤيته ولم أصدق أن العينين اللتين كنت أراهما تلمعان قد صارتا بحسب ما كانوا يتهامسون ويؤكدون ضريرتين وعاجزتين عن الرؤية والتمييز ، ربما ارتميت فى حضنه لآخر مرة فى تلك الظهيرة وشعرت بأن أنامله تتحسس رأسى أو أنها كانت رغبة لم تتحقق شفتها فى منام بعد أن رحل الرجل الكبير دون أن يحادثنى أو يبوح لى بسر صغير مثلما كان يفعل فى السابق ؟

لكننا واجهنا بعد رحيله أياما عسيرة غير محتملة ، كان الرجال يتجمعون فى صحن الدار ويكررون عبارات العزاء فى وفاة الرجل الكبير، فتطلع النسوة لابسات السواد ، يتحدثون عن الأرض التى لم يعد لنا فيها أى حقوق لأنه باعها قبل موته بأوراق مكتوبة عليها أختام وتوقيعات شهود تؤكد أن الأرض صارت بعد موته ملكا لصالح. كان أبى يبدو لى ساخرا بمرارة من كل ما يسمعه ولا يرد بثقة المالك الفعلى للأرض والدار ، يكتفى بأن يقول للرجال إنه لن يصدق أبدا أن المرحوم والده باع لصالح وهو فى كامل وعيه وكيف أن هذا الكلام مجرد حيلة مفضوحة لحرمانه من ميراثه لن يخدعه أبدا ، وعندما يشعر بحصار الأصوات كان يكتم غيظه ويكتفى بالقول إنه لو شاء فسوف يضع يده على الأرض بالقوة لكنه لن يفعل ، كان الهدوء يسود فى صحن الدار وكأنما يصبح إعلانه عن عدم رغبته فى وضع اليد على ميراثه بالقوة أشبه بخرطوم مياه غليظ كانت المطافئ تستخدمه فى المدينة لتخمد الحرائق مهما كانت كبيرة ، ولم أكن أفهم الأسباب أيامها ،

لكننا رجعنا بعد الأربعين لنعيش فى المدينة من جديد ، محزونا على الرجل الكبير ومشفقا على أبى فى نفس الوقت أعيش ، ولأول مرة فى حياتى أشعر بأننى غريب ووافد يلزم أن يعود ، لكننى كنت أعجز عن مفاتحة أبى برغبتى فى الرجوع ، كان يحدثنى عن الكفر وناسه فى تلك الأيام كثيرا فأحسبها حكايات يرويها تمهيدا لمشوار الرجوع أو أنه كان يحوم حول المكان بذاكرته فرارا من مواجهة الناس العوف فى ذلك الزمن الخسيس كما يقول :

- برهوم كان غلبان وضعفان وصاحب عيا من يومه ، تعرف إنه قاللى بينى وبينه إنه لو عاش ح يقطع الورق المكتوب باسمه ويرجع كل شىء لأصله حسب الشرع بتاع ربنا ؟ الله يرحمه بقى ، كان قلبه أبيض زى الحليب الصافى .

- شوف إنت بقى الفرق بين أخوك من أبوك وأخويا من أبويا الله يرحمه جدك ما كانش واعى لروحه ف أواخر أيامه ولا كان ح يفكر يحرمنا من حقنا ويكتب الأرض لصالح زى هما ما قالوا ، دى حتى المحكمة اللى عارفه حكم الشرع مش عايزه تحكم بالعدل وبتأجل شهر ورا شهر وسنة ورا سنة ، بس إحنا ح نعمل مجلس عيله ونفضها سيره .

- الناس الشلبى أهل أمك هما الناس الشلبى ، تشتريهم ويبيعوك، يدحلبوك ويوقفوك فى الخلا لا وراك ولا قدامك ، وساعة ما يتمكنوا منك يخلوا بيك ، يخلّوك تلف على كعبك ألف لفه ف الدقيقه الواحده لحد ما تغطس ف مكانك ما تقبش أبدا ، أنا مش عاوز أجيب سيرتهم تانى أبدا .

●●●

كان صالح قد قال لى إنه سوف ينتظرنى فى داره ، فكرت أنه سوف

يغضب لو سافرت قبل المرور عليه بعد زيارة أمى ، ذهبت فوجدته جالسا فى صحن الدار على دكة النورج القديم مثل الجد عبد القادر مع فارق واحد ، أنه لم يكن هناك فى قبضته شمروخا ولا حتى فى متناول يده ، أفسح لى مكانا عن يمينه وربت بكفه فوق " الدكة " فجلست ، سألنى عن الأحوال بعد الزيارة فهززت الكتفين وكأننى أعبر عن ثبات الحال على ما هو عليه ، ابتسم ثم طلب لنا شايا مضبوطا من البنت العابرة أمامنا فأومأت مستجيبة دون أن تتكلم ثم غطست فى وسط الدار ، عاود سؤالى عن أحوال الست الوالدة فقلت له إنها بخير ، بدا لى مشحونا بكلام يبحث له عن مخرج بعيدا عن أهل الدار ، وعندما شربنا الشاى اقترح خروجنا إلى الخلاء لشم الهواء فقلت لنفسى ما المانع لو بسطت عليه الأمر ؟ خرجنا وسرنا صامتين وسط البنايات وعبرناها وفتناها وراءنا وتأكدت من وحدتنا وسط الغيطان الخالية فقلت له:

- ما فيش جديد ، زياره زى كل الزيارات إللى فاتت ، واجب .
- طبعا ، أصل إنت يا أستاذ عارف الأصول ، إبن عوف بصحيح.
- عوف ولا شلبى يا أبو محمد ، كلهم بنى آدمين .
- بس تفرق يا أستاذ ، هى صوابعك زى بعض ؟
- وإيه الفرق ؟
- هو أنا ح أعلمك يا أستاذ يا متعلم ؟ إنت عارف كل حاجه .

كنت أتذكر حوارى مع أبى وكيف أنه تشكى مرارا من ضياع حقه فى عب صالح ، لم أكن على استعداد للكذب على نفسى لو أننى سايرته ووافقته على ما كان يرغب فى تأكيده فى كل مرة من أن أولاد عوف أفضل ، كانت عيوب أولاد عوف ماثلة أمامى وفى ذاكرتى أيضا ، وعلى غير إرادة أو

تدبير مسبق وجدتنى أقول له بصوت عال :

- ولاد شلبى بينهم وبين بعض خلافات زى كل البنى آدمين اللى فى الدنيا يا صالح ، بس عمرك شفت واحد منهم بياكل ف لحم واحد منهم ولو بالكلام قصاد واحد غريب ؟

- أبدا هما قصاد الغريب يد واحده ورأى واحد وعندهم غرض واحد متفقين عليه ، يشوفوا مصلحتهم فين ويرمحوا وراها ، ولو لهم خدمه عند حد ما عندهمش مانع يبوسوا ألأيادى .

- واحنا يا صـــالح ؟ يحق لنا ناكل ف لحم بعض بينا وبين بعض وقصاد الغربا كمان ؟ يحق لنا ؟

- دا كلام كبير يا أستاذ ، وانت كده بتدافع عنهم ، إحنا عارفين إن الست الواله منهم وإن العرق الشلبى لا مؤاخذه مش بعيد عنك برضه .

- ح أفرض يا صالح إن أنا من جماعة شلبى ...

- تبقى ما تلزمناش لامؤاخذه ، واللى يختشى من بنت عمه ...

- بس أنا برضاك أو غصب عنك يا صالح سيد ابن حسن عوف .

- تبقى إنت كده غلبتنى يا أستاذ .

تبادلنا النظرات وكأنما يتعرف كل واحد منا على الآخر لأول مرة رغم تشابه الملامح بيننا ، لعله كان يقيسنى مثلما كنت أقيسه ، ربما طافت فى ذاكرتى وذاكرته كل دوافع الصراع المؤجل فأرجأناه إلى أجل غير مسمى دون أن يتجاسر أى واحد منا على إعلان هذا القرار ، وربما تولدت فى داخله رغبة فى تواصل أكثر معي وقد تأكد لديه أننى ابن أبيه بمثل ما تأكد لى أنه أخى الأكبر رغم كل الاختلافات المرسوم عليها ، كان هناك فى البعيد

قمر مخنوق بسحابة معتمة يبعث ضوءا هزيلا فينير لنا بالكاد مسارات الرجوع ، لعلني كنت أشعر بالجوع أو بأوجاع فى البطن ويصعب علىّ لأول مرة فى حياتى التمييز بين الجوع والوجع ، لعله كان جوعا ممزوجا بالوجع ، ولعلها كانت رغبة مكبوتة فى الرجوع إلى فضاء الحقول أو الارتماء فى حضن أبى وكأننى طفل فاخترت الثانية واستأذنته، رغم كل اعتراضاته، لأسافر بليل متعللا بموعد عمل كدت أنساه .

●●●

سألنى هو عن أخبار الكفر وناسه فى الصباح التالى فتهربت من ذكر التفاصيل ، تكلمت باختصار فغير الموضوع ، وبعد نصف ساعة وجدتنى أبوح له بكل ما جرى هناك مع أنه كان يبدو لى غير مهتم ، كان يتأملنى وكأنه يستكشفنى أكثر رغم أننى كنت من داخلى أشعر بأننى مكشوف له إلى حد العراء ، اعتدل فوق الفراش ثم تنحنح واثقا من معرفته لما كنت أفكر فيه على عادته:

- ف بلدنا يا سيد ما فيش حاجه بتستخبى ، وبينى وبينك من غير ما أسألك كان باين ف عينيك ، أصل العينين كتاب مفتوح للى يعرف يقراه ، وأنا وانت ما إتعودناش نخبى على بعض ، إنت صحيح كبرت واتعلمت إنما يتهيألى عمرك ما ح تكبر على أبوك ، ولا إيه ؟

- أنا بس ما كنتش عارف أبتدى منين ، أصله كلام يتوه .

- نص كلام صالح أخوك مظبوط ونصه التانى لحاف قش حاول يتغطى بيه ، بس القش ما بيدفيش ولا يستر إللى بيتدارى تحته كتير ، ويادوب حبة هوا يطيروه .

- إزاى يعنى ؟ مش فاهم مسدك قوى

- كدبة الملك الشلبى إللى على لسان أهل أمك ما هياش كلام وبس ، دى هيبه ومحطوطه حواليهم أو ستاره بينهم وبين الناس ، والناحيه التانيه إللى هى ناحيتنا خيبه وغشم ف الفعل والكلام ، هما الكدب بيحميهم ويبيض وشوشهم ، وإللى إحنا بنقوله يادوب كلام ع اللى كان بيجرى أيام زمان ، أيام الأصول القديمة إللى ما شفتهاش إنت ولا شافها صالح أخوك، مين ح يصدق النهارده إنهم ما لهمش أصل ولا فصل ؟ إحنا بس اللى بنقول لروحنا ونصدق .

- بس هما علموا عيالهم وزودوا مالهم وأرضهم و ..

- وأولاد عوف كانوا غفلانين ولسه غفلانين ، التانيين حفيت رجليهم لحد ما وصلوا للى هما فيه ، لكن ما بيشبعوش ، يسعوا ويتقربوا من أكابر كل زمن عشان يلاقوا اللى يدافع عنهم لما الفاس تقع ف الراس ، والحكومة تحميهم وتبلع ملاعيبهم ملعوب وراه ملعوب ، ولو قتلوا قتيل يمشوا ف جنازته وياخدوا عزاه ، مش يبقوا غلابه يا صنف فرعون ؟

شعرت أننى غطست فى بئر بلا قرار ، ربما فسرت الأمر على أنه محاولة جديدة وغير مباشرة لإبعادى عن أولاد شلبى على وجه التحديد ، تذكرت أنه فعل ذلك فى طفولتى ، لكننى بعد أن كبرت وسافرت لأعرف ناس الكفر بنفسى بدا لى وكأنه استسلم ولم يعد يعترض غصبا عنه ، كان صالح قد ردد الحكايات بمعكوس تفاصيلها التى تزاحمت فى ذاكرتى لحد التشبع والسأم ، وبدا لى أنه كان يتجاهل عامدا متعمدا موضوع أرض جدنا عبد القادر وداره مكتفيا باتهام أولاد شلبى بقلة الأصل ، وكان على طرف لسانى سؤال عن استباحة حقوق أقرب الأقارب الذى هو بالقطع أفظع من

نهب حقوق الغرباء وتحريم الحلال المنسوب للناس الشلبى لكننى لم أسأله، لعلنى كدت أسأل أبى نفس السؤال عارفا رده قبل أن أطرحه ، سمعنا جرس الباب فقمت لأفتحه وأجد صالح قبالتى يبتسم ابتسامة من ظفر بصيد نصب له الشباك فى الليلة السابقة :

- كان قلبى حاسس إنك ضحكت عليا يا أستاذ وقلت عندك معاد مهم ف مصر وكنت ناسيه .

- إتفضل.

- إيوه طبعا ، ما هى دار أبويا برضه .

دخل وسلم على أبى وانحنى لتقبيل يده فسحبها بلطف وبدا لى أن أبى كان يجهز نفسه لمشاهدة مسرحية مكشوفة البداية والنهاية ومرتجلة فى ذات الوقت ، وأن من يقوم بدور البطولة فيها هاو محدود القدرات . دعاه ليجلس مرحبا وباسما ، نظر ناحيتى نظرة خاطفة قبل أن يقول لصالح وقد ضيق عينيه متمعنا :

- جبنا سيرة القط جه ينط يا سيد .

- ياه ، كنتوا جايبين سيرتى كمان ؟ خير .

- خير يا صالح ، إزى صحتك وصحة عيالك ؟

- حلوين ، ما هو الأستاذ كان هناك ، بس أنا قبل كل شيء جاى أشكى لك منه ، أقول لأبوك يا أستاذ ؟

- قول يا صالح ، إن كان غلط فيك يصلح غلطه دلوقت حالا .

قالها أبى وهو يبتسم مطمئنا إلى معرفته المسبقة للشكاية فاعتدل صالح وراح يحكى بعض عبارات الحوار الذى دار بينى وبينه فى الدار وفى خلاء الغيطان وكيف أننى تعصبت عندما حاول أن يوضح لى مخاطر

الدخول فى علاقات غويطة مع الناس الشلبى الذين دخل معهم أبى التجربة قبل مولدى وخرج منها خسرانا كل شىء ، كان أبى يهز رأسه مبديا موافقته على كل ما كان يقوله صالح ، مستعيدا على نحو واضح تفاصيل ما واجهه فى الزمن القديم ، ممرورا من داخله وإن كان يحاول أن يدارى فلا يفلح ، كان صالح يدوس على ما لم يندمل من الجرح ، لعله تناسى فى استرساله أن أمى من جماعة شلبى وكان واعيا بما كان من الممكن أن يصيبنى من مواجع أو حرج لا أجرؤ على إزاحته بالاعتراض فى وجود أبى، كان يتشدق بأصلنا الثابت والضارب بجذوره فى الأرض بشهادة كل الناحية ، كان يبدو مشحونا بالكثير ومتوددا لأبى لأبعد حد والرجل يسمع ويهز دماغه وكأنه يوافق على كل ما يسمعه ، لكنه بعد أن خفت صوت صالح نسبيا وبدا وكأنه أفرغ كل ما كان يملأ رأسه تحرك أبى واقفا وسأل صالح:

- وسيد أخوك ننبه إيه يسمع الكلامده يا صالح ؟ نسيت إن والدته من جماعة شلبى ؟

- بس الأستاذ قال بعضمة لسانه إنه سيد ابن حسن عوف ، وانت عارف يا أبا إن الأم ماعون .

- ماعون بيشيل ويولد ويرضع ويربى ويراعى ، صحيح ظروفه ما كانتش تسمح ، بس هى أمه وأنا فرحان إنه بيزورها بعد ما كبر وما عادش محتاج ليها ولا لغيرها يا صالح .

- أنا كنت عاوز أوعيه ، أصل المتغطى بيهم عريان زى ما إنت عارف يا أبا والأستاذ متربى ف البنادر وما يعرفش طبعهم .

- بس سيد متعلم يا صالح ، والمتعلم غير الجاهل .

- يا بختك يا أستاذ ، أبوك رباك وعلمك ، وفتنى ليه يا آبا ؟

- عشان تنهب الأرض والدار .. وتاكل لحمنا حى يا صالح .

توتر الجو تماما بينهما ، كأن المدفون فى القلبين مخفيا وجد لنفسه المخرج فى تلك الظهيرة أكثر من كل توقعاتى ، ربما لأنها كانت مكاشفة لا يحكمها حذر ولا خجل من تبادل الاتهامات بين أب يشعر بأنه عاش مغتربا مغلوبا على أمره فى فراغ الفراغ وابن تمكن من وضع الميراث فى عبه مدعيا بحسب ما حفظ الدرس أنه اشترى بماله ، كانت الأسئلة متكاثرة ومتتابعة وحادة والأجوبة مراوغة وفيها تبجح أو مسكنة تطلب الرحمة لتفلت من الموقف :

- الأرض دى ف الأصل ملك مين يا صالح ؟

- أرضنا كلنا يا آبا .

- ده كلام مايص مالوش معنى ، أرض مين ف الأصل ؟

- الله يرحمه جدى كان مالكها ف حياته وكتبها لبرهوم إللى ربنا افتكره بدرى ، وبعدها كتبها لى .. بقى لو برهـــوم كان لسه موجـــود كنت ح تسأله زى ما بتسألنى كده ؟

- بس هو مات والأرض رجعت لصاحبها الأصلى اإلى هو أبويا

- كتبها لى بقى بيع وشرا .

- دفعت كام ف الفدان يا صالح ؟ دفعت كام ؟ وجبت منين ؟

- إتصرفت .

- قصدك الحريم اللى ربوك إتصرفوا وهو راقد مش واعى .

- ما أنا صحيت للدنيا ما لقتليش أب أتربى على إيديه .

- وجاى هنا ليه دلوقت ما دام ما لكش أب ؟

- بتطردنى ؟

- لأ .. با سألك .. شوف يا صالح ، الأرض للوارث الأصلى ف شرع المسلمين والنصارى واليهود والدروز والكفرة كمان ولولا إنى أبوك غصب عنك ما كنتش رحمتك ، وبرهوم كان ناوى يقطع الورق المكتوب تهريبه ويسلمنى حقى .

- أهو كان كلام بيتقال ضحك ع الدقون .

- إخرس يا كلب ، أنا ما حدش ضحك عليا ، ولو عايز ارضى ح آخدها غصب عنك ، بس أنا رميت طوبتها خلاص ، زى شلن فضه كان وقع منى زمان واتدحرج ونزل فتحة بلاعه .

- كتر خيرك ، يعنى أنا بلاعه ؟ بلاعه بلاعه ، ما دام الأرض ف عبى فك عن نفسك وقول إللى انت عايزه .

قالها وقام من مقعده ، مصمص شفتيه وتلفت حواليه كأنه يزن محتويات المكان ثم توجه ناحية الباب ليفتحه ويخرج ساحبا الباب وراءه بشدة ، ساد صمت وكانت أكواب الشاى الذى أعددته قد بردت وتلونت بسواد قان وغريب عن المشروب المعتاد ، لعله حزن اللحظات العصيبة وقد أصابها فسودها أو أننى كنت أراها على هذا النحو من فرط تعاستى على حالى وحالهما فى نفس الوقت .

وسرحت بخيالى فى البعيد وأنا أتأمل وجه أبى الغضبان وبدا لى محاصرا ومحصورا فوق المقعد الذى كان يجلس عليه بينما ينظر لأكواب الشاى التى لم تمسسها يد ، عجزت عن مفاتحته فى أى موضوع

لأستعيده أو يستعيدنى ، وساد صمت مبهم لم أجربه قبلا فى وجوده ، واستعادت ذاكرتى الحدود المنظورة لأرضنا التى صارت بالقطع أرض صالح وترددت نبرات صوته صدى أسمعه :

- أنا شفت غول طالع لى من بطن الأرض طين ف طين طوله سبع فدادين وعرضه فدانين وتمنتاشر قيراط ، شفته وهو بيزغدنى ف صدرى وأنا ممدد تحت شجرة الجميز ف عز القياله ، كان " بؤونه الحجر " والجو مولع نار ، اترعبت منه عشان كان يشبه لجدك عبد القادر الخالق الناطق ، بس كان كبير ، كبير خالص ، كان واقف وتحت منه بير غويط ، غويط خالص ، طوله سبع فدادين وعرضه فدانين وتمنتاشر قيراط بالظبط ، شالنى ما بين إيديه وبقيت ف العلالى ، فى العلالى ، شفت ناس الكفر كله ، الموجودين والأموات، إللى شفتهم صاحيين وإللى لسه مولودين ، شخط ف ودانى وقاللى يا صالح إن راح من أرضك دى شبر واحد ح أرميك فى الجب دهه ، أدفنك بالحيا واردم عليك ، إللى يفرط ف الطين يندفن ف الطين صاحى ، خفت وحلفت ما أسلم لحد مهما إن كان شبر طين ، وإللى قبلنا قالوا إيه يا سيد أفندى : يا روح ما بعدك روح .

●●●

ظهرت لى مثل شهاب خاطف وقادر على الاختطاف ، بنت ضامرة الصدر قصيرة القوام يستند على أرنبة أنفها منظار طبى يؤطر عدستين شفافتين رقيقتين تظهران عينيها الدورتين السوداويين ،قدمتها لى فاطمة بخبث من ترغب فى كشف الفارق الواضح بينها وبين صاحبتها :

- سالى سكر ، زميلتى من أولى ابتدائى ، بكالوريوس صيدله .

سلمت عليهما ودعوتهما للجلوس ، طلبت لهما زجاجتى مياه غازية ، كانت فاطمة تدير الحوار بينها وبينى حول علاقتى بها وكأنها تشهد الأخرى الساكتة التى اكتفت بالمتابعة وتوزيع الابتسامات وإظهار الدهشة وكانت فاطمة تبدو فى تلك الظهيرة ملكة متوجة تنازلت عن تاجها من أجلى وجاءت تطلب العرفان والاعتراف المنطوق ، كنت أشعرُ أنها تكايدنى فقررت أن أكيدها بزيادة جرعة الاهتمام بسالى ، ولابد أنها كانت تعرف أننى أبالغ إلى حد الكذب المكشوف وأنا أمتدح هدوء ووعى ورقة " سالى " ولابد أنها سخرت منى ومن صاحبتها بينها وبين نفسها رغم ما كانت تقوله تأييدا لمبالغاتى ،كانت علاقتى بها تتأرجح وتميل بين الغرام واللهفة الفائقة أو الصد والهجران والخصام المتواصل ،كأننا كنا نتبارى بالغريزة ودون وعى فى معارك متتابعة بلا هدف محدد،وكنا فى بعض الحالات نتخاصم ونتصالح فى اللقاء الواحد أكثر من مرة ،تفارقنى غضبانة فأسعى إليها أو أعاند فتأتينى هى وتعاتبنى على قسوة القلب أو عدم تقدير النعمة ،أتهمها بالغرور فتوافقنى وتلتمس لنفسها المبررات ،كنت مفتوناً بعودها المفرود وشعرها الأصفر المسترسل وعينيها الخضراوين الناعستين وخصرها النحيل الذى يؤكد مفاتن الجسد أعلاه وأسفله ،وكنت فى أيام الصفاء اكتب فيها ما كانت تسميه شعرا ، تقرأ هى المكتوب وتحتفظ به ولا تعيده ، وأراها وقد توهجت ملامحها وتألقت ويستولى جمالها على قلبى ومشاعرى للحظات؛ أنتبه بعدها وأحذر نفس من الوقوع فى حبها أكثر ، ولابد أن جمال فاطمة كان أكبر من قدرتى على الاحتمال، كنت فى أول الأمر أتباهى وهى إلى جوارى نسير فى طرقات المدينة ، ألتقى بالأصدقاء والمعارف مزهواً فيبدى

الواحد منهم إعجابه أو حسده أو تقديره لحسن اختيارى ، لكننى بمرور الأيام كنت أتعرض لمعارك بلهاء بلا سبب أو عداوات لم أحسب لها حساباً ، كانت تبدو لى فى بعض الأحيان عبئا يزود خصومى ، ربما لأنها كانت بارعة فى افتعال المواقف التى تدفعنى دفعاً للعراك من أجلها باعتبار أننى المسئول عن حمايتها فى كل الأحوال ، وما دامت جميلة بكل الحسابات فلا بد أنها سوف تتعرض للمعاكسات ، لكنها لم تكن تعتمد على جمالها وحده فى تدبير وإدارة الصراع بينى وبين الناس، كأنما كان يرضى غرورها أن تكون محوراً أبدياً للاهتمام والانتباه أو نقطة على حدود وطن قابلة للاستلاب ، حتى هؤلاء الذين كانوا يتوددون لها فى معاملاتهم ويحتالون لفتح الجسور بينهم وبينى بالهمسات الرقيقة أو عبارات المديح كنت أصدهم وأرتاب فى نواياهم وأشعر أنهم يفتعلون المقدمات بهدف الدخول معى فى علاقات وفى خيال الواحد منهم صورتها، وأنه مادمت أنا فى طريقها فإنه لا مانع من أن أتحول إلى نقطة عبور ، كنت أبدو جلفاً وعدوانيا إلى حد التهور، وكانت هى فى مثل هذه الحالات تشعر بالفرح خلافا لكل ما تقوله من أننى عصبى أكثر مما يجب أو أننى السبب فى كل المعارك السابقة التى دخلتها دفاعا عنها ، ولابد أننى أحصيت خسائرى مع الناس بسببها وتوصلت إلى قرار بأنها علاقة عارضة قابلة للانتهاء فى أى وقت وبلا أسباب، وأنه يلزم أن أبحث لنفسى عن البديل .

●●●

كانت قوات الصاعقة بملابسها متنافرة الألوان تطارد الطلبة والناس ،

توشك تلك القوات أن تسد شارع القصر العينى من ناحية ميدان التحرير ، لكن المظاهرات كانت تفتح الثغرات بعسر وتتلاقى وتهتف نفس الهتافات استنكاراً للأحكام التى صدرت فى نفس اليوم ضد قادة سلاح الطيران ، كانت تلك الأحكام هزيلة بحسابات الناس ، ولأنها كانت هزيلة فقد أعادت للذاكرة مرارة الإحساس بالانكسار ، كنت أشاركهم بصوتى المبحوح الغاضب وحلقى الجاف ، وكانت قنابل الدخان المسيل للدموع تلقى بكثرة فى اتجاه الناس ، ويحذر يلتقطونها ويقذفونها فى اتجاه الجنود ، لكن الدخان كان ينتشر ويتكاثف وهراوات الجنود الطائشة تضرب دون تمييز ، كان العساكر بالدروع والهراوات والخوذات يسدون شارع مجلس الأمة ، وكانت هناك مجموعة من البنات والأولاد يرتدون المعاطف البيضاء يتجهون إلى مدخل الشارع فيطاردهم الجنود ، كان الأولاد والبنات يتصايحون ويصرخون ويهتفون والجنود يطاردونهم ويضربونهم وينجحون فى إبعادهم عن مدخل الشارع ، رأيت "سالى" وهى تجرى فرارا إلى الناحية الأخرى من شارع القصر العينى ، ورأيتها تتعثر وتسقط بالقرب منى ، ساعدتها على النهوض ولعنت الجنود ، تساندت على ذراعى بيدها اليمنى وباليسرى تناولت نظارتها الطبية الساقطة على الأرض ، وضعت المنظار مكانه وبد لى أن بالعدستين شروخا ، لكن الدخان المسيل للدموع كان يحاصرنا ويجعل قدرتى على الإبصار غائمة ، انحرفت "سالى "عن المسار الذى كنت أتوقعه منها وغيرت مسارى معها بينما هى داخلة فى المنحنى الموصل إلى منعطفات "جاردن سيتى " .

تباعدنا عن أصوات الهتافات وما عدنا بقادرين على متابعة هرولة العساكر فى أعقاب الطلبة فى كل الاتجاهات ، كان الحى الهادئ ما يزال

ساكناً بوقار بناياته العالية الممعنة فى الشموخ ، كنت أجفف دموعى وأعانى حرقة الجفنين ، ولكن "سالي" كانت ثابتة على حالها ، فى مآقيها تترقرق دمعتان لا تسقطان ولا تختفيان ، رأيتهما بوضوح عندما رفعت النظارة تتأمله بحزن ، كانت فى الركن الأيسر للعدسة اليسرى عدة شروخ نحيلة متقاربة وفى النصف الأعلى للعدسة اليمنى كان هناك شرخ واحد ممتد على استقامته ، أعادت هى النظارة إلى مكانها فوق أرنبة أنفها ، وتحت سور البناية المزروع بنباتات كثيفة وقفت هى ربما لتستظل بظل شجرة فشاركتها فى المكان ، لكنه وعلى غير توقع نبح كلب مربوط فى مدخل البناية المجاورة، ارتمت "سالى" فى حضنى وكنت أستطيع أن أتسمع دقات قلبها وأحسها أسفل صدرى ، كنت خائفاً من نباح الكلب الشرس لكننى كنت فى الوقت ذاته أشعر بالإشفاق عليها ، كان الكلب الضخم يتقافز إلى أعلى وفى اتجاهنا لكن السلسلة كانت تقيد حركته ، وبعد كل قفزة ترتطم حلقاتها بالأرض فتحدث صليلا وجلبة ، كان كلباً عدوانياً لا يطيق رائحة الغرباء ، ولابد أنه كان أول من تنبه لوجودنا فى غير المكان اللائق بنا ، كأنه كان مسئولا عن إبلاغ سكان الحى عنا أو أنه كان يستدعى عساكر الصاعقة بالخوذات والهراوات والدروع ، ولابد أنه انقضى وقت طويل وكلانا منكمش على نفسه وملتصق بالآخر رعباً من الكلب الذى عين نفسه حارساً ومالكا لكل البنايات .

●●●

كان نهر النيل يجرى أمام ما كان فى السابق معسكر ثكنات قوات الاحتلال الإنجليزى ، وكانت أمواجه الهادئة تتحرك ببطء بينما البنت النحيلة إلى جوارى تحكى نفس الحكاية المعادة عن عجز عائلها الذى أصابه العمى

فتسبب فى عجزه عن السعى من أجلهم ، وعن الأم التى تحتال بكل الوسائل من أجل تدبير اللقمة الضرورية والثوب البسيط الذى يستر البدن لها ولأولادها والكفيف العاجز ، تفصيل وخياطة وأشغال إبرة وفى بعض الحالات خدمة من يملكون فى أشغال المطبخ والغسيل أو تفصيل الستائر للفتحات ، كانت تحكى بلا خجل عن مسكنهم الضيق وعوزهم المتواصل وعن مشوار التعليم المجانى الذى قطعته بسبب أنها كانت تحصل فى كل عام على مكافآت التفوق ، كانت ممرورة وحزينة وغاضبة من هؤلاء الجنود الذين تسببوا فى شرخ عدسات نظارتها وجعلوا رؤيتها للنهر شائهة ، وعندما حدثتها عن إمكانية تبديل العدسات تنهدت بيأس وغيرت الموضوع ، ولا أدرى كيف تذكرت وبكثافة بطلات الأدب الروسى فى أواخر أيام القياصرة ، تذكرتهن وقد تداخلن وصرن ماثلات يكابدن الحرمان والفقر ، ربما أوحى لى شحوب وجه "سالي" وضمور صدرها البادى وانكسارها رغم نظرات العناد وقدرتها على الغضب ورغبتها فى تغيير المصير ، وقلت لروحى وأنا أتأملها باندهاش :

- هذه بطلتى التى كنت أبحث عنها منذ سنوات وقد وجدتها .

●●●

– ادينى عشرين جنيه ملعون إن كان معاك .

انتبهت إلى وجودها ، ولابد أننى كنت فى حالة اندهاش ، قالت وهى تتراجع إلى الخلف خطوة فى مشروع انسحاب من المكان :

- إذا كان ما فيش معاك .. مش مهم .

- سالى ؟ معقول كده ؟ أفهم بس . اتفضلى اقعدى تشربى إيه ؟

وبتردد جلست على طرف المقعد الخالى أمام المكتب ، وكان جلوسها على الحافة أشبه بإنذار للقيام ، وعاودت استفسارى عن مطلبها، وبدا عليها أنها تتهمنى بالمعرفة والتغابى بينما كانت توضح لى حاجتها الملحة لتلك الجنيهات ، كان فى حوزتى مبلغاً اقل قليلا مما طلبته فأخرجته ونشرته بينى وبينها على سطح المكتب وكأننى أكشف لها أحشائى لتفحصها ، كان المبلغ المعدود ثمانية عشر جنيها وبضعة قروش ، تركت هى القروش وأخذت الجنيهات ، نظرت ناحيتى وانتبهت إلى شئ ربما كان قد غاب عن وعيها فخلصت أحد الجنيهات من اللفة ودسته فى كفى .

- خد ده أنا ح تصرف فى الباقى باى باى دلوقت .

جمعت القروش المنثورة ودسستها مع الجنيه فى جيب قميصى وقد اختفت "سالى" كأنما تبخرت من أمامى أو تطايرت مثل غاز بلا لون أو رائحة ، ربما لم يستغرق الموقف كله أكثر من دقيقة ، حطت هى خلالها على فى الوقت الملائم ثم طارت بنظارتها المشروخة وتوارت قبل أن أسأل أو أستفسر عما أصابها ، حتى عندما قمت ونظرت فى الممر لم أعثر لها على أثر وعدت لأجلس مكانى ورأيت الشيخ عبد الله يخطو آخر خطواته فى اتجاه مكتبه ، يطرقع بقبقابه قبل أن يخلعه ويستبدله بالحذاء ، فاجأنى بتعليقه غير المتوقع :

- بس بنت شاطره ، دى زى ما تكون عارفه ميعاد القبض .

- حرماً يا شيخ عبد الله .

- جمعاً . ولو إنه مش ممكن ، إنما ربنا يهدى ما هو قادر على كل شئ .

كان ينظر ناحيتى بقدر كبير من الكراهية لا أعرف أسبابه ، لابد أنه كان طوال الوقت يراقبنى بينما كنت أحسبه يصلى أو يُسبِّح ، كنت قد انتقلت مؤخرا إلى غرفته فضاً لاشتباك كان قد حدث بينى وبين الأستاذ فتحى النادى ، اشتباك طال وطال وصار ممطوطاً بلا نهاية ، ولابد أننى خجلت من رفضى فكرة مبادلة الأستاذ عسران مكانه فى تلك الجلسة التى تصدرها الأستاذ شلتوت وكيل الإدارة نفسه وكان هدفه أن يبعد أى واحد منا عن الآخر، خجلت ووافقت وانتقلت إلى حجرة الأرشيف عند الشيخ عبد الله مؤقتا ، وعزمت أن أسمع نصائحهم وأن أتحاشاه وأمنع نفسى عن الدخول فى حوارات معه فى أى موضوع ، ولكن الشيخ عبد الله لم يكن من ذلك النوع السهل المستعد أن يترك الآخرين يدبرون أحوالهم كما يشاءون ، كان يدس أنفه فى كل شئ ، يتهمنى بالفساد إذا زارتنى زميلة أو قريبة أو تحدثت لى عابرة سبيل تسأل عن موظف أو إدارة ، وكان يتحين الفرصة ليهدينى - بحسب ما كان يقول - إلى طريق الصواب ولا أهتدى ، كان قد حوّل نصف الحجرة الداخلى إلى مصلى مفروش بحصير قديم ومرصوص أمامه مجموعة من " القباقيب" الخشبية لزوم الوضوء ، كان يؤذن للصلاة فى الممر ، ونادرا ما كان يجد من يأتم به على العكس من الحاج حسن الذى كان هو الآخر قد أحال الممر أمام حجرته إلى مصلى مزدحم دائماً فى صلاة الظهر ، كان الحاج حسن يبدو للكل بشوشاً وبسيطاً وقادراً على إشاعة المرح فى قلوب الزملاء ، لكن الشيخ عبد الله كان يراه مهرجاً بما لا يليق بسنه أو مركزه ، وكنت من ناحيتى لا أرغب فى مجادلته فى مسألة

إيمان الحاج حسن وما إذا كان قويا أو ضعيفا ، ولا بد أنه اكتشف منذ البداية عدم اهتمامى بأمره أو القدرة على الإنصات لمواعظه المكررة المعادة، وأخوف ما كنت أخافه أن يتهمنى بالكفر والخروج عن حدود الشرع بحسب ما كان يفعل فى بعض الأحيان ، لكننى فى نفس الوقت لم أكن مستعداً لتغيير شكل حياتى وعلاقاتى مع الناس كى أرضيه ،كنت أعتقد أن رضاه عن أى واحد من الزملاء مستحيل وأنه فى واقع الأمر شخص معزول عن الناس ، يتجنبونه رغم دعواه بأنه المؤمن الوحيد فى الإدارة وأنه متصل بالصالحين من أولياء الله وعلى رأسهم الحسين بن على كرم الله وجهه .

●●●

فتحت باب الشقة فرأيتها قبالتى ، أشارت لى بسبابة يدها اليمنى توصينى بالصمت وتحذرنى ثم أزاحتنى ودخلت ، وضعت معطفها الأبيض على حافة السرير ، وبحرص وضعت المذاكرات " والفارما كوبيا " على طرف المكتب ، ابتسمت ثم خلعت نظارتها وهى تجلس إلى جوارى وهمست :

- اشتقت لك .

كانت تملك ابتسامة رائعة وواثقة ، ابتسامة من ذلك النوع القادر على تبديل الملامح وتجميلها ، لعلنى لم ألحظ هذه الابتسامة قبلا ولعلها لم تبتسم فى المرات السابقة بمثل هذا الصفاء والمودة ، كنت حائراً ومتردداً وربما خائفاً ، لعلها كانت المفاجأة التى لم أكن أتوقعها بمجيئها إلى مسكن لم أذكر لها عنوانه ، لعلها كانت الجسارة والبساطة التى تعاملت بها وكأنها فى بيتها وأنا الوافد على غير موعد ، كانت تتحرك فى المكان بحرية واتزان الأخت الشقيقة التى تزورنى فى بيتى للمرة الألف ، ترتب الفوضى وتجهز

الشاى وتبحث فى المطبخ عن بقايا طعام ، ولا بد أنها أدركت أسباب دهشتى ولم تندهش أو تفكر فى الحديث عن المبررات أو التفسيرات ، شعرت أنها قادرة على اختصار المسافات فى كل شئ ، قليلة الكلام.. كثيرة الحركة على عكس كل من عرفتهن من البنات ، قالت وهى تقف أمام صفوف المكتبة الصغيرة المعلقة على الجدار وقد اختارت لنفسها كتابين :

ح آخد دول أقراهم وةعاوزه شوية حاجات فى المطبخ .

نظرت إليها مستفسراً عن نوع الحاجات فتحركت هى بخفة يمامة على بعد خطوة واحدة ، مدت يدها إلى غلاف " الفارما كوبيا " ترفعه وباليد الأخرى لوحت لى ببساطة ببعض الجنيهات الجديدة وهمست وهى تقدمها لى :

فلوسك .

ترددت قليلا وأنا أتأملها مستوضحاً فأكملت :

- تلاقيك مفلس ع الآخر .م اما قبضت النهارده من الناس إللى بتشتغل عندهم .. خد بقى ...

مددت يدى وأخذت النقود ، كنت بالفعل مفلساً وحائرا فى كيفية تدبير أمرى فانتشلتنى من الحيرة والارتباك ، ربما أكون قد شعرت بالدفء والطمأنينة والرغبة فى أن أكافئها على إعادة ما لم أكن أحسب أنه سوف يعود بالتمام والكمال ، هل كانت ابتسامتها الصافية هى التى اجتذبتنى ناحيتها وجعلتنى أحيط بدنها النحيل بالذراعين قبل أن أنحنى لأقبلها عدة قبلات سريعة على الخدين ثم قبلة متأنية ومستكينة على الشفتين تقبلتها هى بامتنان المستجيب .

- إنت عملت إيه ؟

سألتنى وهو تخلص بدنها برقة وتتراجع إلى الخلف متباعدة بلطف عنى ، انتبهت لكننى عجزت عن الرد ، ابتسمت هى بوداعة ورأيت عينيها السوداوين تلتمعان ببريق مفاجئ ، كأنها تبدلت وتغيرت وصارت قادرة على أن تملأ المكان وتسيطر عليه بإشارة منها ، ولابد أنها خطفت مشاعرى منذ تلك اللحظة ، لحظة التنازل عن الصورة المرسومة فى الخيال لفتاة الأحلام ، لحظة الدخول بكل الرغبة فى علاقة مع بنت ضامرة الصدر نحيلة إلى حد مؤسف لكنها فى ذات الوقت قادرة على إشاعة البهجة والنشوة فى الأطراف.

صارت تأتينى بحسب ما تعد وبأكثر مما تعد ، تصحينى فى الصباح الباكر أو تفاجئنى بوجودها فى المسكن وأنا راجع من مأمورية خارج المدينة، تدهشنى وتكشف لى مواهبها فى التعامل معى ومع البشر بينما تسير إلى جوارى ، تبدو لى رغم ضآلة حجمها قادرة على امتلاك الدنيا واكتساب ودها ، ولابد أننى بمرور الأيام كنت قد اختصرت العالم فيها وصرت أدور فى مدارها رغم ما كانت تدعيه من أننى استلبت إرادتها ومشاعرها وعقلها، وكنت أكتشف مع مرور الأيام أن جسدها الصغير كان يتفجر وينمو وتبرز تفاصيله ، وأن تقاطيع وجهها كانت تزداد نضارة وتتألق بمثل ما كان صدرها يصحو ويتدور على نحو مثير للمشاعر والرغبات ، وعندما كنت أحدثها عن تلك الاكتشافات كانت تضحك بمرح وتتهمنى بالجنون ، كنت أقول لنفسى أنها تخشى على روحها من الحسد ، أو إنها لا

تريد أن تعترف بما تبدل فيها وتغير حتى تحولت فى واقع الأمر إلى أنثى مرغوبة ، بل إنها ازدادت طولا وازداد شعرها نعومة وسوادا ، لكنها قالت لى فى لحظة صفاء نادر أنها تزدهر وتتألق وتنمو بالحب ، وأنها فى زمن سابق كانت قد عاشت تجربة حب جربت فيها كل شئ ووصلت إلى حد الاكتمال بلا موانع ، عجبت لأمرها وسألتها عن مصيره فرفضت أن تبوح بسرها المدفون أو أن تحدثنى عنه بأى كلام ، كل ما عرفته أنها هجرته بوعيها وإرادتها وأنها انطفأت لسنوات عاشتها تهرب من ذكراه وتتآكل لإحساسها بأنها لأسباب لا تعرفها كانت سبباً فى دماره ، حذرتنى من معاودة السؤال عنه أو عن مصيره الذى كان بحساباتها يستحقه ، وطالبتنى بأن أحدثها عن المستقبل وأن أكف عن تقليب صفحة ماضيها ، صرت أحدثها عن مستقبلنا وأرسم لها صورة الحلم فى الغد الذى يحتوينا وقد انفرشت طرقاته بالورود والأمنيات وكانت هى تزداد جمالا ونضارة إلى لحد الذى جعلنى أتوهم أنها بنت أخرى غير البنت التى رأيتها فى السابق . ولابد أننى انهمكت فى دور العاشق المفتون الذى ينوب وجداً ورغبة ، ولابد أننى كررت على مسامعها بعض أحلامى وأمنياتى فكانت تفاجئنى بذاكرتها التى لا تنسى قائلة إنها سمعت مثل هذا الكلام منى أو منه وإنها تشعر بقليل من السأم لأنها تكره الكلام المعاد على السنة من يمثلون أدوار العشاق أو يرغبون فى دخول تجربة العشق التى تشبه التجارب الأخرى التى قرأناها أو شاهدناها فى أفلام السينما ، حيرتنى فى أمرها وأمر نفسى ، كان من الواجب أن أتجدد لأسايرها وأظل قادرا على إبهارها

لكننى لم أستطع ، كنت أشعر أنها تتوهج وتشتعل وأننى أنطفئ وأخبو وأشيخ ، ولابد أننى كابدت كثيرا من غيابها عنى وتباعد الفترات التى كانت تلقانى بعدها حتى جاء ذلك اليوم الذى صارحتنى فيه بأنها كانت واهمة وأننى بالقطع واهم ، كانت هى فى بيتى وفوق فراشى وقد مارست معى كل الحب الذى اعترفت بأنه أرضاها ، لكنها أشاحت بوجهها عنى بينما تقول أنها لم تعد تصلح لى ولا أصلح لها وأنه يلزم أن نفترق بهدوء حتى لا أجبرها على أن تهجرنى بإرادتها أو أن تكون سببا فى دمارى. كنت بينما أنظر إلى ظهرها وأتأمل كثافة شعرها الأسود الناعم أشعر على نحو غامض أننى أستحق هذا المصير لأننى صدقتها على طول الخط ، وأننى أسلمت لها نفسى وبحت لها بكل أسرارى فى لحظات النشوة، متخلياً عن حذرى القديم وارتيابى فى أغراض الغرباء .

●●●

وكان هو فى ملكوت انهياره يبدو لى شامخا ، يرفض باللسان وتعبيرات التقاطيع فكرة رجوعه أو رجوعى لكفر عسكر ، وفى لحظات الحماس فى بدايات شبابى كنت أحكى له عن قلقى لأننى لم أتعرف على جذورى التى حدثنى عنها فى حكاياته التى لم تنته أبدا ، ينظر إلى بعينيه العسليتين وكأنه يرانى لأول مرة ، لعله كان يسأل نفسه بينه وبين نفسه عن السر وراء تلك الرغبة رغم أننى لم أعش فى الكفر غير أيام الطفولة الأولى ، لكن جدتى كانت تأتى من هناك وتأخذنى معها لأعيش هناك أياما لا أعرف إن كانت أجازات كتاتيب أو بدايات مواسم صيف ، كنت أستطيع أن أتحرك وأجرى وأمضغ بشهية لحوم الأرانب التى كانت تربيها فى قاعة معتمة ومدفوسة إلى جوار " المتبن " ، أفرح عندما أراها تخرج من الجحور وتتسابق على أكل البرسيم ، أحاول أن أمسك بأى واحد منها فلا أستطيع، لكنها كانت تستطيع أن تمسك بأى أرنب تختاره بعينيها وتخرج به من القاعة إلى صحن الدار ، تذبحه وتسلخه وتغسله ثم تضعه فى الحلة المحطوطة فوق الكانون وماؤها يغلى قبل أن يطيب فتبدأ فى إطعامى كبد الأرنب ، أشعر بالشبع لكنها تناولنى المزيد فأشعر بسعادة وأرمح فى صحن الدار ، أدور حول نفسى أو حولها فتضحك ، كنت أستطيع أن أطلع السلم الخشبى لأصل لسطح دارها وأرى الأرض الزراعية ممدودة بلا حد غير السماء فى البعيد البعيد فأحسب أنه من الممكن أن يصل البنى آدم لتلك السماء لو ظل يمشى ويمشى حتى نهاية تلك الأرض التى تراها العينان فى البعيد ، وعندما قلت لجدتى ذات مساء ما كنت أفكر فيه قالت لى إن السماء بعيدة جدا جدا عن الأرض والناس وإنه لم يحدث أبدا أن وصل إليها أحد ، كانت هى تتأملنى ثم أحاطتنى بذراعيها وحركت كفها اليمنى

بداية من فوق رأسى ومرورا بظهرى عدة مرات متتابعة ، كانت تتمتم بآيات من القرآن التى تقرأها فى كل صلاة ، قلت لنفسى ساعتها أنها تحبنى وتخشى على من التوهان لو تركتنى لأمشى وحدى مشوارا طويلا حتى أصل إلى الحدود الفاصلة والمرئية ما بين الأرض والسماء ، لعلها كانت تخاف أن أطلع السماء وحدى وأتركها على الأرض تحذرنى وأوافق على تحذيراتها وأؤجل ذلك المشوار حتى أكبر وأستطيع أن أصل من غير علمها وحدى إلى ذلك الخط الفاصل ولا أتوه ، لكننى كنت أكبر وأدخل المدرسة وأرى نفس الخط الفاصل بين السماء والأرض فى أطراف المدن التى كنا نعيش فيها ، وفى المدرسة تجاسرت وسألت الأستاذ حلمى مرة نفس السؤال فضحك بينما يتأملنى باستنكار فأضحك العيال وحولنى إلى بؤرة تحط عليها النظرات من كل الاتجاهات .

●●●

« شعرت بنفسى راقدا مرة واحدة فوق " حجرها " أستشعر دفء البدن الذى افتقدته وحرمت منه ، لا بد أنها كانت تشارك النسوة فى تبطيط أرغفة الخبز على سطح طبلية خبيز ، ولا بد أنه كان دقيقا ناعما ذلك الذى يتساقط متناثرا فوق رأسى وأشمه بأنفى دون أن أقدر على الابتعاد عنه أو أتمكن من منعه من التساقط فوقى ، كان الحلق يلوك غصبا طعم الدقيق بلا متعة، ولا بد أن رغبتى التى لم تتحقق فى حماية عنقى وصدغى والأجزاء العارية من جسمى كان يضايقنى ، كنت أحس مجرد إحساس أنها أمى وإن كنت قد فشلت بعد ذلك فى استعادة ملامحها أو بعض ملامحها ، ولم يكن ذلك بسبب ذرات الدقيق الناعم التى كانت تتساقط متواترة لتمنع

العينين من التأمل على مهل وإنما أيضا لأن الزمان فات واندفن وما تبقى منه إلا أجزاء باهتة من مشاهد فى الذاكرة التى تاهت ، لكن بقايا الدفء كانت هناك وأستطيع أن أستعيدها وقتما أشاء ، أستشعرها مطمئنا بأن هذا البدن الذى يبعث الدفء كان يخصنى بشكل مؤكد ، ولعله كان امتدادا للشعور الغريزى الذى كنت قد قرأت عنه بعد ذلك والذى يجعلنا نتعرف على ثدى الأم مباشرة بعد الولادة . كانت أصابعى فى تلك القيلولة تعبث بخيوط ثوبها وتتفذ فى بعض الزوايا إلى لحم صدرها الطرى فتمد هى يدها المعفرة بالدقيق وتزيح الأصابع عنها برقة وكأنها تذكرنى بأن زمن الرضاعة من ثدى الأم فات ، لكننى كنت أعاود المحاولة وتعاود إبعاد يدى وأصابعى عنها، كانت هناك سخونة تأتى من الناحية الأخرى وأرغب فى الخلاص منها مكتفيا بدفء حجر الأم ، ربما كان صهد الفرن هو الذى يهب علينا جميعا ، أشعر بها تتزحزح من مكانها إلى الوراء وأنا فى نفس مكانى فوق حجرها استجابة لأمر أو نصيحة وجهت إليها وطاوعتها ليقل الصهد ، تعاود التبطيط وأسمع إيقاع الخبطات على نفس الطبلية التى انسحبت إلى الوراء قليلا ، كنت أشم رائحة الخبز المخبوز وأسترجع رائحة البدن التى لا بد أننى تعرفت عليها فى السابق ولا أدرى لماذا تباعد عنى أو تباعدت عنه ، كنت أواصل تحريك يدى وأشعر بطراوة لحم الثدى بين أصابعى ، وربما أكون سمعت أمرا لها بنفس الصوت :

- رضعيه يا شوق .

- صدرى ناشف ما فيهش لبن خالص .

لكنها أخرجته وألقمتنى إياه ، كنت أشعر بالأمان وأسكن رغم أن الصدر كان خاليا من قطرات اللبن كما أكدوا وأكدت بالفعل ، كانت هى

تدعونى بكلمات لغة لا أفهم مفرداتها أن أتمهل وأهدأ فلا أهدأ ، ولعلنى سمعت مصمصات من أفواه النسوة وأحسست بقطرات من دموعها تتساقط فوق رأسى ووجهى من عينيها على وجه التأكيد ، لكن اللعبة انتهت وفصلونى عنها من جديد .

●●●

كنت أكابد سخونة طارئة ورعشة تنتابنى فى الليل وشهية معدومة لأى أكل ، حتى لو أكلت بسبب الجوع أو تنفيذا لوصايا جدتى كان الطعام لا يستقر فى بطنى ، أحس بمغص فأصرخ ولا أستطيع أن أمنع نفسى من ترجيع ما أكون قد ابتلعته ، تتساقط حبات العرق فوق جبهتى وأرتعش ، وكانت جدتى قد بعثت لأبى من الكفر مرسالا ليبلغه بحالتى فعاد المرسال بعد ساعة أو ساعتين ودس فى يدها مبلغا من المال وهمس فى إذنها قائلا :

- أبوه يا حاجه بيقول لك وديه عند الدكتور جمعه ف البندر .
- أوديه ، بس هوه ما جاش ليه ؟ مش هاين عليه يفارق العروسة المتغندره ؟ دا ضناه ح يروح مننا ف لعبه ؟
- وهى مالها ؟ عنده شغل و ح ييجى بكره ولا بعده بالكتير .

لا بد أننى كنت فى السابعة أو حولها ، حملونى ملفوفا فى حرام صوف وأركبونى حمارا يسحبه صبى كبير من أهل الدرب ، توجهنا إلى عيادة الدكتور جمعة ، كانت هناك قاعة نصف مزدحمة بأطفال فى مثل سنى أو أصغر فى أحضان نسوة من الفلاحات حولهم أو بالقرب منهم رجال يبدو عليهم القلق ، وواحدا واحدا كانوا يدخلون ، كانت هى هناك فى أحد الأركان حيث توجهنا ناحيتها ، وكانت تتغطى " بملس " أسود رفعته

لأرى وجهها الأبيض المدور وعينيها السوداوين ، أجلستنى جدتى بينهما فأحاطتنى هى بالذراعين وجذبتنى ناحية صدرها الطرى وراحت تبكى فأبكى ، ولم أكن أعرف إن كانت تبكى من أجلى أو من أجل نفسها ، وكنت أبكى ربما من وجعى أو من أجلها ، وكانت جدتى تبكى أيضا ، ربتت هى على كتفى وتحسست صدرى ومسحت بمنديلها عرق جبهتى قبل أن تهمس بإشفاق :

– الك يا سيد يا أبنى ، إنت مش عارفنى ؟ أنا أمك يا سيد .

– نظرت إليها أحاول أن أتعرف على تقاطيعها وأحفظها لأننى كنت قد جاهدت فى السابق ولم أتمكن أبدا ، كانت تقاطيعها غائمة دائما ومستحيلة بالنسبة لى ، ولعلنى كنت أتشبث بتلك الملامح والتقاطيع لأحفظها ولا أنساها مرة أخرى أبدا ، ربما برغم الوجع نسيت سخونتى ورعشتى وعرق جبهتى ، وعندما نادت علينا السيدة النحيلة بالاسم دخلنا لنلتقى بالدكتور جمعة ، كان وجهه باسما بينما يتحسسنى ويضع السماعة على صدرى ثم يزيح الحرام عنى ويطالبهم بعدم إحاطتى به مرة أخرى ويسألنى عن كل ما أحس به فأجاوبه بعسر ، يهز هو رأسه مطمئنا جدتى وأمى قبل أن يكتب لنا الدواء ويطلب منهما أن يعودا بى بعد أسبوع واحد ليطمئن على حالتى ، لفت جدتى الحرام وناولته للرجل الذى لم أعرف اسمه فى صمت فأخذه ونزل يسبقنا على درجات السلم ، أخذتنى أمى فى حضنها وقبلتنى وهمست:

- إجمد كده يا سيد ، وانتى يا ست أم حسن ، أمانه لجل النبى تخلينى أشوفه قبل ما يروح لأبوه ، إنت ف مدرسة إيه يا سيد يا ابنى ؟ وف سنه كام ؟

جاوبتها بعد أن نظرت ناحية جدتى وكأننى آخذ منها الإذن .

- مدرسة الست مباركة ، كنت ف سنة أولى .

- شاطر يا سيد ف المدرسة ؟ شاطر يا ضنايا ؟

جاوبتها جدتى بدلا منى ، ربما لأننى ترددت فى الجواب خجلا :

- شاطر يا شوق ، دا هو الألفه ف الفصل ، بس ربنا يشفيه .

- حح يشفيه بإذن الله ، أنا ح أسبقكم يا ست أم حسن ، إنتى عارفه كل حاجه ، بس أمانه عليكى ما تخللى الجدع إللى معاكم يجيب سيره لحد إن احنا اتقابلنا .

- إطمنى يا شوق ... إطمنى ح يجيب سيره لمين يعنى ؟

كنا عند البوابة الكبيرة فأخذتنى فى حضنها مرة أخرى وقبلتنى عدة قبلات متسارعة وهى تلتفت إلى الرجل المكتنز الجسم حافى القدمين الذى جاء ووقف بالحمار عند البوابة ينتظر ، ساعدها على الركوب بعد أن تغطت " بالملس " تماما ، بدت لى كتلة من السواد وأمامها حقيبة سوداء لم أكن قد رأيتها من قبل ، ربما أكون قد نسيت وجعى إلى حين لأنها بعد أن تباعدت عنى شعرت مرة أخرى بأننى تائه وموشك على السقوط فوق الأرض ، لكنهم حملونى حملا وأركبونى الحمار ، دخلنا دارا من دور البندر وأراحونى فوق سرير ثم رأيت الباب ينسك مسحوبا إلى الخارج وربما لم أفق لنفسى إلا ووجه جدتى يقترب منى ويدها تتحسس جبهتى وتبسمل بقلق ، وعندما أفتح العينين تبتسم وتدعونى للصحو استعدادا لمشوارنا من البندر إلى البلد ، تبتسم لى برقة وتفتح زجاجة دواء تملأ منها ملعقة شاى وتسقينى ثم تمد يدها بحبة فى حجم حبة الأسبرين لونها أزرق وتطلب منى أن أبتلعها ليكتمل شفائى فى أقرب وقت ممكن ، طاوعتها وشعرت براحة فقمت من مرقدى وتبعتها ، كانت هناك وجوه لم ألتق بها أبدا ، لكنهم كانوا

ينظرون ناحيتى ويتكلمون مؤكدين أننى سيد ابن حسن الذى أخذ روحية وسافر بها إلى طنطا بعد أن اتخذها زوجة له منذ أسبوعين ، تذكرت المشوار وتذكرت الوجه الجميل فى ثوب الزفاف. كان الحمار أمام الباب فأركبونى وساعدوا جدتى على الركوب ورائى ، ويسحبه الصبى الكبير ويمشى حتى نرى بنايات كفر عسكر وندخل فى درب أولاد عوف فى اتجاهنا لدار جدتى ، كان أبى هناك يسعى ناحيتنا فى عرض الشارع ولا ينتظر حتى نصل إليه ، وكان مخطوف الوجه ملهوفا فتلقفنى وحملنى وتحسسنى بقلق ثم التفت ناحية جدتى وسألها عن حالتى فطمأنته ، فى الليل سألها وأنا راقد فوق الفراش نصف صاح ونصف غفلان :

- وبتخليها تشوفه ليه ؟ هى لها فيه إيه ؟ دى رمته لحمه طريه ، ولو جرى له حاجه ح تبقى هى السبب .

- خلاص يا حسن ، أهى أمه وكانت عاوزه تتطمن عليه

- يا فرحتى يا أمه .. يا فرحتى .

- ويا فرحتى بيك إنت راخر ، ما انت جايب له مرات أب قادرة ، الولد حكى لى ع إللى عملته فيه ف أسبوعين ، دا كحك فرحها لسه ف الصندوق، ما تسيبه لى يا حسن وأنا أربيه

- والمدرسة يا أمه ؟ ح نطلعه " تمللى " يشتغل بالفاس ؟

- مراتك ح تسمه يا حسن ، مراتك ح تسم الولد .

وساد صمت أو غفلت ورحت فى النوم أستعيد وجه الأم الذى رأيته وجاهدت أن أرسمه فى ذاكرتى حتى لا أنساه مرة أخرى ، لكن وجه روحية كان يطاردنى فى الكابوس ويتوه ملامح أمى من الذاكرة ، أفر وتواصل مطاردتى ، أطلع السلالم فتطلع ورائى حتى أشعر باكتمال عجزى وأراه

واقفا قبالتها يمنعها من الإمساك بى ويحمينى ويتيح لى فرصة الفرار من جديد .

●●●

كنت قد أنهيت اليوم الدراسى فرحانا لأننى نجحت فى امتحان الحساب وحصلت على عشر درجات من عشر درجات فأمر الأستاذ حلمى تلاميذ الفصل بالتصفيق لى ، كنت أرغب فى الطيران ناحية البيت لأقدم لأبى كراسة الحساب ، لكننى عند باب المدرسة رأيت فلاحا يقف فى مواجهتى يبتسم ويسألنى :

- مش إنت برضه سيد عوف ، ابن الست شوق ؟
- آ ... ه أنا .. وانت مين ؟
- أنا ابن أخو جوز أمك علام ، أمك باعتانى لك مخصوص .

تحيرت فى أمر نفسى وتأملته بثوبه ألفلاحى وطاقيته الصوف ولا أدرى لماذا كنت أتلفت حولى مخافة أن يرانى الدسوقى أو إبن السنباطى فيسألونه ويقول لهم إن أمى لم تمت وإنها تعيش فى كفر عسكر ولها زوج غير أبى خلافا لما كان شائعا عنى ولا أدرى كيف ولا بفعل من سرت حكاية يتمى من الأم فى الشارع والمدرسة ، كنت أخفى الحكاية الحقيقية فى داخلى وكأننى أدارى عورتى المكشوفة بعد خروجى من بيت الأدب ، ربما أكون قد تباعدت عن الولدين بقصد وأنا أراهما فى الناحية الأخرى من الشارع ، سرت صامتا، فواصل هو بعد أن تلفت حوله وقال :

- أمك بتسلم عليك ، بأمارة ما شفتها عند الدكتور جمعه .
- الله يسلمك .

- وباعتانى لك مخصوص ، جايب لك معاى بيض مسلوق .

تذكرت وجبة الفول التى صرفوها لنا فى المدرسة مع الخيار والبرتقال ، كنت أشعر بالشبع ولا أفكر فى الأكل ، كنت أفكر فى كراسة الحساب ، لكنه أخرج بيضه من "سيالته" وراح يقشرها ويرمى قشرها على الأرض ، لفها فى كفه عدة مرات قبل أن يناولها إلى ويطلب منى أن آكلها ، هززت رأسى لكنه كان مصمما على استجابتى لدعوته أو دعوة أمى أو زوج أمى ، أخذتها وبدأت آكل لأخلص من هذا الولد الكبير الذى اقتادنى إلى مبنى المحطة وأجلسنى فوق كنبة على رصيف من ارصفة المحطة ، آكلت البياض ولكننى شعرت بأن صفار البيضة صعب الابتلاع ، ربما كنت أحتاج الى كوب ماء ليساعدنى على ابتلاعه، بدا لى أنه كان يتوقع ذلك منى فمد يده ناحيتى ليأخذه قائلا :

- هات الصفار وأنا آكله .

أخذ صفار البيضة ووضعه فى فمه ، لاكه بين أشداقه ثم مد يده مرة أخرى إلى سيالته ليخرج بيضه أخرى ، قشرها وأدارها بين كفيه عدة مرات وناولها لى قائلا :

- كل إنت البياض وأنا آخد الصفار إللى ح يتبقى منك .

أخذتها منه وبدا لى أن أكل بياض بيضة أخرى لا يستحق منى الاعتراض والرفض بينما يحدثنى عن أمى وفرحتها بشفائى الذى عرفت به من جدتى ، قال إن أمى سوف تأتى بنفسها لتراني عند باب المدرسة فى ظهيرة يوم السبت القادم ، وبمثل ما حدث فى أول صفار بيضة ناولته صفار البيضة الثانية فوضعه فى فمه مرة واحدة ولاكه بين أشداقه ثم مد يده للمرة الثالثة وأخرج بيضة أخرى قام بتقشيرها وتدويرها بين كفيه قبل

أن يناولنى إياها، ربما أكون قد أكلت فى هذا اللقاء بياض خمس أو ست أو سبع بيضات قبل أن أرفض بإصرار أكل المزيد ، عرض على أخذ البيض الباقى فى سيالته فرفضت وقلت له إننى لو دخلت بيتنا بشيء فسوف يسألنى أبى أو زوجة أبى عن مصدره ، هز رأسه موافقا وجلس إلى جوارى يتحدث عن أولاد شلبى الذين هم أهل أمى وعن علام شلبى الذى هو عمه وزوج أمى فى نفس الوقت، قال سامى إننا أقارب وإنه سيرافق أمى فى مشوارها لرؤيتى ، سمعنا صفيرا آتيا من بعيد فقام مستعدا لركوب القطار الذى ظهر لنا من البعيد ليوصله للبندر قبل أن يتوجه ماشيا لكفر عسكر بحسب ما قال لى. ركب القطار ووقف مسنودا على النافذة حتى بعد أن تحرك وراح يلوح لى بيديه مودعا ، كنت أستعيد ملامح أمى بيسر وأحلم بأن أراها كما قال سامى فى ظهيرة السبت التالى .

فى السكة متوجها للبيت شعرت بمغص شديد وتحاملت على نفسى مخافة أن أسقط فى الطريق العام ، وعندما وصلت كانت روحية عند الباب ، تراني وتتجاهلنى ثم تبدى احتجاجها لأننى تأخرت عن موعدى ساعتين ، هددتنى بأن تقول لأبى الذى لم يحسن تربيتى فى السابق ، كنت تائها عن الوعى تقريبا وأرغب فى أن أتمدد على سريرى وأنام ، لكننى لم أتحكم فى حلقى أو فمى لأن بياض البيض الممزوج بالفول والبرتقال تدفق على غير إرادة منى ولوث المكان ، سقطت بعدها ولم أشعر بنفسى إلا عندما شعرت ببرودة رأسى وأبى يضع قطعة القماش الملفوفة حول قطعة الثلج فوقه ، لم أتمكن من الشكاية لأن روحية كانت فى نفس المكان قبالتى ، لعلنى خفت أن تبلغ أبى عن تأخرى عن موعد رجوعى من المدرسة ، لكنه كان ليلا حالكا وصامتا أو فجرا يوشك على الطلوع ، سألنى هو عن أى الأشياء أكلت فى

ظهيرة اليوم قبل الفائت ففهمت أننى تهت عن الوعى أكثر من يوم وليلة على الأقل ، عاود سؤالى بغضب :

- كلت إيه يا ولد يوم التلات ؟ أكلوكم إيه ف المدرسة ؟

- والمدرسة مالها ؟ العيال زمايله كانوا وياه وكلوا م اللى هو كل منه هى المدرسة ح تحط للعيال سم ف الأكل ؟

- أمال إيه اللى حصل ؟ الدكتور قال عنده تسمم ، من إيه ؟

- اسأله كان فين لبعد معاد المدرسة بساعتين ؟

وعرفت أننى كنت على شفا موت محقق لولا أن أبى جاء ورآنى فى الوقت المناسب ، نقلنى إلى أقرب طبيب ليعمل لى غسيل معدة ويؤكد له أننى أكلت شيئا فيه سم فئران أو مبيد حشرى شديد المفعول ، كان أبى يكرر سؤاله عن أى الأشياء أكلت ولا أجد لسؤاله جوابا ، لعله اغتفر لى صمتى إشفاقا على حالتى وأتاح لى الفرصة لأن أتذكر سامى ابن شلبى وبياض البيض الذى أكلته ، أسأل نفسى إن كان من الممكن أن يكون هو السبب ولا أجد الجواب ، أجبن فى نفس الوقت عن طرح السؤال على أبى لعله يحدثنى عن مخاطر تناول وجبة من بياض البيض .

●●●

كنت أشعر أحيانا أنه يكابر فأجاريه بالصمت وهز الرأس ، وربما لأننى لم أكن أعرف التفاصيل بالقدر الذى يسمح لى بمراجعته كان يبدو له أننى أصدقه على طول الخط فى تلك الآراء القاطعة التى يطلقها باعتبارها حقائق لا تجوز مناقشتها ، أسأل نفسى بينى وبين نفسى كيف أننى لم أتجاسر مرة واحدة وأعترض على ما كنت أتصور أنه يستحق الاعتراض فى حكاياته

عن الجد عبد القادر مثلا أو علاقاته مع أولاد عوف الكبار ، أجاوب نفسى قائلا إنه من المحتمل أننى أخافه من داخل الداخل أكثر مما أعتقد برغم مساحات التفاهم وبابه المفتوح بأمره الذى يسمح لى بالبوح بكل ما يعتمل بعقلى مهما كان دقيقا بالنسبة لأمثالى ممن ظهرت لهم مشاريع شوارب وتغيرت نبرات أصواتهم لتكون أكثر خشونة ، كنت فى مثل طوله وأوشك أن أكون فى مثل عرضه ، أقف أمام المرآة وأشد قامتى وأنفخ صدرى ، أحيانا كنت ألبس جلبابه الصوفى البلدى المعلق على الشماعة وأضع على رأسى طربوشه وأنظر لنفسى باحثا عنه فأراه أمامى وأفرح لأننى صرت مثله ، ومرة تجاسرت وخرجت من البيت بجلبابه وطربوشه وعبرت من أمام بيت البنت سهير عبد الله التى كانت جميلة وسمراء وكثيرا ما كانت تقف فى شرفة بيتهم فتلتفت إليها كل عيوننا ، عبرت الشارع فتعرف علىّ الولد إبراهيم وراح يهلل ويلملم العيال من حولى صارخا :

- شايفين سيد عوف وهو لابس جلابية أبوه وطربوشه .

كانوا يحيطوننى من كل جانب ، يتحسسون الجلباب باندهاش بينما عيناى تختلسان النظرات للتأكد من أن سهير ترانى ، كانت ترانى بالقطع وتبتسم من بعيد والولد فاروق الذى ادعى أنه كتب لها رسالة حب وأنها ردت عليها يبدو للعيال مغتاظا ومهزوما لأننى نجحت فى الفوز بنظرات إعجاب منها بحسب ما أكدوا .

فى مساء نفس اليوم، لبس هو نفس الجلباب البلدى ونفس الطربوش وفتح الدولاب ثم أخرج مقطع القماش الصوف الإنجليزى الجديد وطلب منى أن أرتدى ثيابى لنتمشى حتى دكان الأسطى زكى الترزى فوافقته وذهبنا ، ناول هو الرجل العجوز مقطع القماش وتحسس جلبابه ثم همس :

- نفس التفصيله يا عم زكى ، بس خليها مبحبحة شويه

- تكونش ناوى تربى كرش يا أبو سيد وعامل حسابه قبل الهنا بسنه ؟ الخميس الجاى بإذن الله

هز أبى دماغه موافقا الرجل وتركنا الدكان ، كنت أعرف أن عم زكى يكتفى بالنظر الى أبى كل مرة ولا يستخدم متر القماش مثل الأسطى فتحى ترزى القمصان والبنطلونات فأتعجب كيف أنه بمجرد النظر يقيس البدن ويفصل له الثوب بالمقاس كما يشهد الجميع ؟ ليلتها دخلنا سينما مصر وشفنا فيلما لليلى مراد وأنور وجدى وتعشينا لحما مشويا عند الحاتى المشهور ، وفى البيت كان يتأملنى مبسوطا ومرتاحا ويستند بكوعه على طرف السرير:

- طولت يا سيد وشنبك خط ، وزى ما تكون مستعجل وعاوز تدخل ديوان الرجالة قبل ما تكمل الخمستاشر سنة.

شعرت بزهو ممزوج بالخجل الطارئ ، لكنه داوانى بسرعة وابتسم وكأنه يفسح لى مكانا لأصير مثله رجلا :

- وأنا ف سنك يا سيد الدنيا ما كانتش سايعاني،كنت فرحان بروحى وشايف نفسى ع الآخر وممكن أعارك دبان وشى .

جاوبته على كل الأسئلة التى طرحها على بمودة فكنت أرد بحماس وبغير حذر ، فرحانا بفهمه لكل ما كنت أشعره فى تلك الأيام ، حتى حكايات البنت سهير وأوهامى فى حبها كان يغفرها ويبتسم ، لعلنى فى ذلك المساء أوشكت أن أعترف له بأننى لبست جلبابه وطربوشه ووقفت وسط العيال أمام

بيتها وكيف أنها كانت تنظر ناحيتى بإعجاب لكننى ترددت دون أسباب، لعلنى شعرت بأن صدره المفتوح كان أوسع من كل صدور الآباء وأنه كان يقرأنى فى تلك الليلة وأنا أبوح له بما يعتمل فى داخلى أو أسكت خجلا فيخفف ولا يسأل ليزيح صمتى أو يشعرني بالحرج ، وفى ليلة الخميس طالبنى بأن أرتدى ملابسى لنخرج ، ذكرنى بموعده مع عم زكى بينما نسير فى اتجاه دكانه . كان الجلباب جاهزا وموضوعا على رف خشبى ، تناوله وحاول أن يلبسه فوق ثيابه فبدا له ضيقا بعض الشيء ، كان يحرك ذراعيه فى الجلباب يمينا ويسارا ويهز رأسه وعم زكى يبتسم واثقا من شغله؛ يقسم بأغلظ الأيمانات أن الثوب مضبوط عليه وإن كان الثوب التحتانى يجعله ضيقا بعض الشيء ، طالبه بأن يخلع الثوب فخلعه ، نظر ناحيتى وكأنه يشهدنى أنه خياط ماهر قبل أن يطلب منى أن أقوم وأقيسه بنفسى على نفسى ، ترددت فناولنى هو الثوب موافقا على الفكرة قائلا :

- قوم أما أشوفه عليك فوق البنطلون والقميص .

قمت ولبست الجلباب ودرت حول نفسى كما يفعل هو ، كان عم زكى يتحسسه متباهيا بصنعته وقائلا لأبى :

- بص كده يا أبو سيد ، الجلابية لايقه عليه والقماش ما فيش منه النهارده ، شوف الكتف مريح إزاى ؟ وتحت الباط ، أهم حاجه تحت الباط ، مرحرح أهه ، إنت إللى تخنت وما عادش ينفع تلبس بلدى فوق القميص والبنطلون .

- مبروك عليك خليك لابسه .

قالها أبى بمودة جعلتنى أتأكد أنه اتفق مع عم زكى ليفصل الجلباب

على مقاسى واثقا من أنه سوف يكون مضبوطا فوق القميص والبنطلون لأكون مثله لأنه الوحيد فى شارعنا الذى كان يلبس جلبابه الصوف الفلاحى فوق القميص والبنطلون، والطربوش المحبوك على جبينه مائلا على جنب والعصا الأبنوس ينقصانى لأكون مثله ، رفعت هامتى مثله وسرت إلى جواره متباهيا به وبنفسى ، لكنه فاجأنى

- أصل أنا نويت ع الجواز وعاوزك تبقى على سنجة عشره قصاد أهل العروسه ، البيت محتاج واحده ست ، مش كده ؟

- كده .

سرنا صامتين ، هل بدا له أننى كبرت إلى حد القدرة على حماية نفسى من زوج أب جديدة أو أنه كان من الحتم أن يعاود الزواج ليريح نفسه ويريحنى فى ذات الوقت ؟ سألت نفسى ولم أجرؤ على سؤاله ولم أجد على أسئلتى ردا يشفينى .

لعله فى تلك الأيام كان يرانى كبيرا مثله وقد صرنا وحيدين لا ثالث معنا ، صحيح أنه كانت بيننا صداقة تسمح لى بمناقشة الأمر معه لكننى لم أفعل. هل كانت طنطا أكثر قربا من كفر عسكر إلى حد أن بعض أولاد عمه كانوا يأتون تباعا ويسهرون عندنا أو يبيت الواحد منهم فى نفس بيتنا فتنفتح سيرة الكفر وناسه وأشعر أنه كان جاهزا للغفران والنسيان ، لكننى لم أعرف العلاقة بين الوافدين تباعا من الكفر ومشروع الزواج الجديد ، ولعلنى لم أتخوف لأننى بحسب ما كان يؤكد لى صرت رجلا ، كانت المدينة فى تلك الأيام أكثر ألفة بالنسبة لى وله وربما اغتسلت واغتسل هو أيضا من مواجع صادفناها معا خلال السنوات التى عشناها فى المحلة الكبرى ومحلة البرج، وكان من المستحيل أن تتكرر .

●●●

بينى وبين نفسى كنت أدارى عنه ما كان يحدث من روحية وما يجرى منها قبل أن ترحل وكيف أننى برغم أنه كان يسألنى أيامها كيف تعاملنى فأبوح له بأشياء وأخجل من البوح بأشياء ، ربما كنت دون قصد أرغب فى تقليل مواجعه ، وربما لأننى كنت أعانى من انكسار الولد اليتيم ، كانت روحية تعايرنى فى بعض الأحيان لأنها تغسل ثيابى وتطبخ لى السم «الهارى» بينما أمى التى ولدتنى لم تحمل شيئا من همى الثقيل فأشعر بالمهانة ، لكنها عندما حملت خففت بعض قسوتها أو انشغلت بنفسها عنى ، لعلنى فسرت الأمر لصالحى دون إدراك وصرت أستعيد ما كانت تقوله فى البداية بأننى سوف أكون الأخ الأكبر لعيالها فى مستقبل الأيام ، أفرح من داخلى وأُمنى نفسى بحياة جديدة وسط أخوة صغار مثل كل أصحابى .

عندما ولدت طفلها كنت أراه جميل الملامح يدعونى لأتأمله وألاعبه ، كنت أتحسس كفه الممدودة ناحيتى من بعيد فرحانا لأنه لف أصابعه حول إبهامى، لكننى أحسست بضربة مباغتة فوق ظهرى فانكفأت على وجهى وتهت عن الوعى ، وأفقت لأسمع صوت جدتى فى نفس المكان توبخ روحية احتجاجا على ضربى فى مناسبة سعيدة وأكياس الحلوى والتمر فى سلة مركونة فى ركن الحجرة جاهزة للتوزيع على الأطفال احتفالا ببلوغ محمد يومه السابع ، كانت تبسمل وتحوقل وتضرع للسماء طلبا للغفران وحماية المولود من الشرور ، لم أكن أستطيع أن أفهم لماذا انضربت بكل هذا الغل بمثل ما كنت عاجزا عن منع نفسى من الفرحة بالطفل أو تأمل ملامحه الجميلة وعينيه اللتين بدا لى أنهما كانتا تبتسمان كما أكدت مرارا لأمه

ولجدتى ، لكننى فهمت من الكلام أنها روحية التى خبطتنى وتوهتنى عن كل ما كان يدور حولى ، وفى نفس الليلة قالوا إن الولد أصابته سخونة ، كانت جدتى غضبانة منها ، تلعنها وتوبخها والأخرى تسمع ولا ترد ، وكانت تبكى فيصعب علىّ حالها وأنسى الضربة ، أتمنى أن تستجيب السماء لدعاء جدتى من أجل الطفل المولود الذى قد لا ينجو من تلك الخبطة أبدا ، كنت أتعجب ولا أفهم مقصدها ، لكنه فى صباح اليوم التالى فقدت أخى وفقدته أمه وجدتى وأبى لأنه مات ، أكدت جدتى لنا جميعا أن الولد انخبط بكف جنّى ساكن تحت الأرض ردا على خبطتها لى فوق ظهرى ظلما وعدوانا ومن غير سبب ، كانت تؤكد أنها رأت أثر الأصابع الخمس المرسومة على ظهر الولد ، ظاهرة وقد تلونت بالأزرق الغامق وسط بياض اللحم الطرى الأبيض بحمرة . كنت غضبانا من الجنى الساكن تحت الأرض لأنه حرمنى من أخ كنت أتمناه ، وبكيناه بلا فائدة لأنه راح .

بشّرتها جدتى الحزينة قبل أن تسافر بأنها لن ترى فى حياتها خلفة من صلب أبى لأنها مفترية وقاسية القلب فتبكى ندما وأسفا بعد فوات الأوان. وبعد أن سافرت جدتى صرت وحدى معها فى أوقات عمل أبى ، تتأملنى بكراهية وتتهمنى بأننى كنت السبب فى موت أخى ، أقسم لها بأننى مثلها حزين فلا تصدقنى أبدا ، أتحامل على نفسى وأفر من البيت وأسرح فى الغيطان القريبة أو المنتزه وأغطس فى مياه الترعة لأغسل نفسى من الوجع إذا ضربتنى ، أتذكر عبارة جدتى التى كانت تقولها أحيانا " مرات الأب خدها يا رب ولو كانت حورية من الجنة "

لكنها رحلت بعد أن كنست البيت كنسا ولم يعد هناك فيه غير الأرض والجدران ، كان العراء كاملا ، كانت هناك عربتان "كارو" بحصانين أمام

باب البيت وعيون الناس تنظر إلى الرجال وهم يحملون كل شيء ويستفونه على أرضية العربتين ، يهمس رجل عجوز لأبى ويطالبه بأن يراجع نفسه حتى لا يخسر كل شيء لكنه يتأبى ويرفض ، بل إنه كان يساعدهم أحيانا فى حمل كل ما كان مملوكا لنا ، لم أفهم الأسباب لكنه كان يقول للرجل العجوز ردا على كل ما كان يسمعه بعناد وإصرار :

- ما لهاش عيش معايا بعد النهارده .
- أنا موتى و سمى إللى يخون الأمانه .
- فاضل إيه ؟
- إللى تسرق مصروف بيتها وتفرط ف المعاش تبيع شرفها.
- ربنا يسامحها بقى .

أذكر أننا بتنا ليلتها فوق كوم من قش الأرز ، كان الجو باردا وكنت أرتعش رغم الثياب الثقيلة التى كنت أرتديها ، وكان هو يرتعش أيضا ، لكنها كانت ليلة وحيدة لأنه فى الصباح جلب لنا سريرا جديدا وأغطية ليحمينا من العراء ونواصل الحياة .

كانت أحكامه عن ناسنا فى كفر عسكر تبدو لى باترة وقاطعة ولعلنى لم أتمكن من قراءته فى تلك السنوات المبكرة بمثل ما قرأنى ، كنت أسمعه وهو يفتح باب الحكايات القديمة بمرارة أو يسترسل فى التذكر بحسب ما يشاء قبل أن يتحدث عن الأرض بزهو ممزوج بالأسى ، يزفر مداريا ما كان يبدو لى وجعا لا علاج له ولا دواء قبل أن يقول :

- آه .. آه .... يا وارث مين يورتك ؟ يا وارث مين يورتك ؟

كنت لا أشعر بوجع الخسران أو بخطورة ما جرى له قبل ميلادى لأنه كان ماثلا أمامى دائما بقوته وعزمه وقدرته على مواصلة الحياة وتدبير

كل ما أحتاج إليه من مطالب ، لعلنى لم أهتم أو أحاول أن أفهم مقاصده من تكرار تلك الحكايات عن ضياع حقه وحقى فى ميراث الأجداد بالغصب والاحتيال وملاعيب النسوان ومفاسد الرجال ، ولعله كان مشغولا فى واقع الأمر بشغله فى شركة الغزل والنسيج إلى الحد الذى كان يشعرنى أحيانا أن الأرض لم تعد تهمه بمثل ما يهمه الإصرار على تعليمى ولآخر شوط ، ولعلنى أسعدته أحيانا بالتفوق على زملاء الفصل ، كان ينظر فى كراسة الإجابة ثم يهز رأسه استحسانا إذا حصلت على درجة نهائية أو تقترب من النهائية فى أى اختبار أو امتحان ، يهمس قائلا لى بلا خجل :

- أنا يا سيد يا ابنى يا دوب بافك الخط ، كان نفسى أتعلم بس ما حصلش نصيب ، بس أنا عاوزك تتعلم وتفهم الدنيا من حواليك على قد ما تقدر ، العلام يا سيد ح يأمن مستقبلك ، أصل إحنا زى ما أنت شايف لا ورانا ولا قدامنا .

- النهارده يحق لى أقول لك بالفم المليان يا سيد أفندى ، ما هو إنت كده بقيت أفندى رسمى ، نجحت ف الابتدائية وطلعت الأول ع المدرسة كمان وانفتح لك الباب تكمل علامك ، أنا ح أصرف عليك لحد ما تبقى زى ولاد البهوات .

لكن الشركة " وفرته " ضمن من وفرتهم أو أنهت خدمتهم ، ربما لأنه بحسب ما أكد كان واحدا ممن يطالبون فى نقابة عمال الغزل والنسيج بتقليل ساعات العمل والتأمين على العمال ضد المرض والحوادث فى المصانع وصرف وجبات غذائية مع كوب لبن حليب لكل من يعملون فى المحالج ، لكنه جاء مرة قبل موعد رجوعه محسورا وغضبانا يتلفت حوله وكأنه يبحث عن شيء ضاع منه ويستحيل أن يستعيده :

- الشركة غدرت بينا ، وعدونا يصرفوا لكل واحد مننا مكافأة عن عرق السنين إللى فاتت ، وإحنا إللى عملنا الفوط والبشاكير وملينا بكدنا وتعبنا المخازن ببالات قماش قطن وصوف وكتان ، واحد من أصحاب مصانع الأهالى طلبنى بالاسم وقال لواحد من زمايلى أفوت عليه ، يعنى مش ح نجوع يا سيد ، رزق هنا زرق هناك .

- دا مطب كبير ووقعنا فيه يا سيد ، زميلى إللى كان صـــــوته عالى ف النقابه طلع شريك ف مصنع الأهالى اللى قلت لك عليه ، ولما رحت قابلنى وقاللى ح تاخد نص أجرتك اللى كنت بتاخدها ف المصنع الكبير ، أصل إحنا غلابه .

- بقوله طيب آخد الحد الأدنى إللى كنت أنا وانت بنطالب بيه للعمال الجداد ف النقابه ، قاللى حد أدنى دا إيه ؟ إنت ح تتكلم زى الشيوعيين الكفره ؟ استغربت وقلت لروحى يمكن مش هو صاحبك ، طلع هو يا سيد بس بوش تانى .

- وقاللى بوشه المكشوف أوعاك تقول إحنا أصحاب وزمايل ، أنا ممكن أبلغ عليك ويودوك ف سفا العفاريت ، وطردنى .

كانت البطالة التى لم يحسب لها حسابا موجعة وقاسية لكنه لم يستسلم تماما ، استأجر دكانا فى محلة البرج وملأ حيطانه برفوف رص عليها بضائع من كل أنواع البقالة ، لكن مبيعاته كانت قليلة ونادرة ، كان غالبية الناس يتعاملون بالأجل لحين صرف الأجور فى نهايات المدد ونادرا ما كانوا يتعاملون بالنقد ، حتى عندما وافق على البيع "على النوتة" كانت غالبية الزبائن لا تدفع له فى أيام القبض أكثر من نصف ديونهم ، وكان هو يتشكى لأن رأسماله بسيطا ولا يحتمل ، وفكر أن يستبدل نشاطه بمقهى

صغير أو مطعم للفول والفلافل فلم يفلح ، ربما لأنه لم تكن لديه خبرة كافية، كانت مدخراته ومكافأته عن خدمته تتناقص ، ويوم سألنى عن رأيى وعيناه حائرتان قلت له :

- نرجع طنطا .
- طنطا ؟ اشمعنى يعنى طنطا ؟
- مش عارف .
- خلاص نرجع طنطا .

●●●

كانت طنطا حضنا حنونا بالنسبة له ولى ، وكنت أنجح فى المدرسة بتفوق وأبعث فى قلبه الأمل فى أن يصل بى لبر الأمان ومشروع زواجه يتوه من ذاكرته أو يتناساه عمدا ، لكن الأيام توالت وتتابعت لأرانى فى بدايات سن الشباب والحلم وقد مررنا بأيام صعبة وعسيرة ناتجة عن مرض أصابه وأقعده تماما لأراه وأرانى معلقين فى فراغ ، عاجزين عن الطيران أو الهبوط على أرض نستند عليها أو نطأها بالأقدام ، تأكد اغترابى واغترابه فى تلك المدينة التى كنا قد اتخذناها موطنا بديلا مثل تلك المدن التى سكناها قبل أن يصاب بالشلل ، كان شلله يشملنى أيضا ولم أكن بقادر على الخلاص من المأزق الذى داهمنا على غير توقع ، لعل ملازمتى له ومحاولاتى لمساعدته بتلبية بعض رغباته الصغيرة مثل إطعامه أو التحرك به فى دائرة المسكن الضيق لكى يقضى حاجته بكل العسر كشف لى أبعادا أخرى غير تلك التى كنت أتوهمها فى السابق ، وكان يتحدث عن نفس الناس و نفس الأرض التى صارت محرمة عليه رغم أنها ميراثه الشرعى

المؤكد ، كأنما شنق الشلل عزمه وعلقه بحبال من أفاعيل أفاع يتفزز منها في الليل ويصرخ ثم يقوم مفزوعا فأفهم أنه كان يكابد كابوساً كابساً على روحه لا يرحم ، أحاول تهدئته وإعادته إلى الواقع التعس الذى كان يحاصرنا ، يبدو لى أنه بينما يستعيد وعيه كان يسترد روحه الطالعة فى ذات الوقت ، يتأكد له ولى أنه قادر على التنفس بوهن المجروح القابل للخلاص من وجعه ، يطالبنى بأن أسنده ليقضى حاجته أو يجلس براحته على الفراش ، تلمع عيناه ببريق خافت يتزايد على مهل حتى يتوهج الضوء أو يتبدى لى أنه توهج بينما يتحدث عن أرضه وكأنها ما زالت فى حوزته :

- أرض الثلاث ساقيات محصولها قليل ، لكن صاحيه وتداوى روحها بروحها حتى لو ما اتعزقتش زرعه ولا زرعتين ، زى العيل إللى زال همه وبقى راجل ، الأرض زى البنى آدم .

- جماعتنا يا سيد ما بتعرفش تكدب ع الغريب ، بس بيكدبوا على بعض كتير وياكلوا ف لحم بعض كتير ، ما حدش فيهم لسه بيحب التانى ، وكل واحد بيقول يا لله نفسى وبس ، مش عايز أخوه يبقى أحسن منه ، وما فيش عمار بينهم .

- وكله بعيد عن بعضه ، تاهت الأصول إللى إتربينا عليها ،حد كان يرقد رقدتى دى ولا حدش من أهله يكلف روحه ويطل عليه ؟ تفتكر إنهم ما عرفوش إللى جرى لى ؟ أكيد عرفوا م الخلق إللى حوالينا ، بس مستخسرين فينا أجرة القطر .

زى ما يكونوا كارهين بعض من غير سبب مع إنهم فى الأصل ما بيعرفوش يكرهوا ، أقولك إيه ؟ عيله غشيمه .

بس مع الأغراب بنطلع اللى فى قلوبنا كله ، ويتقال إن إحنا ما

بنكدبش ، إللى ف قلبنا على لساننا ، ما حدش يكره إن سيرته تبقى زى البفته البيضه ، بس لحد فين ؟ وإزاى نبقى صادقين مع الغربا وكدابين على بعض ؟

- إحنا انقطعنا منهم غصب عننا يا سيد ، فرع ف شجره مايله انقطع واترمى بعيد ولا حدش فكر فيه ، لا الجدر ولا الفروع ولا حتى العيال إللى قيلت تحتها فكرت ف الفرع المقطوع .

كان يتأكد لى فى تلك الأمسيات الحزينة أن الأرض نبض حياة من غيرها لا يملك الإنسان سكنا ولا قبرا ولا سندا أو حتى سببا للبقاء ، كانت أرضه بتفاصيلها ثابتة فى ذاكرته ومنقولة لذاكرتى ، ترتسم مساحات خضراء بلا حدود يحق لى أن أرمح فيها بحكم أنها تخصنى على نحو غامض رغم أنها بحساباته مغتصبة وخارجة عن حيازته بحكم الواقع المعاش وسط ذلك الفراغ المقبض .

●●●

كان السمسار الضرير منقذى ، ذهبت إليه بعد صلاة الجمعة فقابلنى بترحاب المعاتب لأننى لم ألجأ إليه منذ مدة طويلة ولأنه واثق من أننى تركت شارع زين العابدين منذ ثلاث سنوات على الأقل ، وحدثنى عن رفيقى فى الشقة الذى تزوج وتستر وارتاح من هم الوحدة متمنيا لى نفس المصير ، شكرته مندهشا من أنه تعرف على صوتى من أول عبارة ، طلب عكازه ونادى على الصبى الذى يرافقه قائلا باقتضاب :

- مراسينا يا ولد

- فوق ولا تحت ؟

سأله الولد فأجابه بإشارة من يده إلى أسفل ثم همس كاشفا لى عن طبيعة المكان الذى سوف يقتادنى إليه :

- حاجه معتبره وتليق بيك ، و تبقى على حريتك خالص ، منك لربنا والشارع عدل ، لا تجرح حد ولا حد يجرحك ، سكن عازب بصحيح ، باين عليك ابن حلال يا أستاذ مش كده برضه ؟

- دا بس من نوقك .

- عرقى خمسه جنيه ، لغيرك عشره ما ينقصوش مليم .

- ماشى .

عبرنا الميدان ودخلنا شارع مراسينا فتذكرت ليلاى القديمة وكيف تخلصنا معا فى نفس التوقيت من علاقتنا المشتركة بلباقة ثم شقت طريقها بلا مجنون ، تذكرت كيف عرفتنى على فاطمة تلميذة السنية التى كانت تسكن قبالتنا وتبهرنى بتقاطيعها الملائكية وخضرة عينيها ونعومة الشعر الذهبى الطويل لكنها لم تملأ فراغ القلب ، تذكرت سالى سكر التى ظهرت فى حياتى مثل شعاع خاطف لتسلبنى من صاحبتها ثم تختفى على نحو غامض ، وطنت فى أذنى أسئلة طرحتها ابتسام لتستطلع بها مدى ما وصلت إليه علاقتى بزميلتها وكيف جاوبتها بصراحة دون زيادة أو نقص ، تأملتنى وكأنها تعرف الكثير وقالت بلا مواربة أننى كنت سلبيا فى علاقتى مع سالى على نحو يغيظ ، فاندهشت .

- وقف يا ولد ، بص كده يا أستاذ ، لك سلم لوحدك من بره لا تجرح حد ولا حد ح يجرحك ، افتح يا ولد وورى الأستاذ . أفقت لنفس وتأملت

المكان، سبع درجات سلم على الشارع تبدو مفصولة عن البيت الكبير الذى بدا لى مدخله عريضا وبابه حديد مشغول بصلابة وصرامة ويوحى بعراقة اغبة فى الاعتزال التام ، وفى الداخل رأيت حجرتين وصالة براح وحماماً نظيفاً ومساحة فراغ وثلاث نوافذ تطل على الشارع بينما تعزل البناية عزلا مقصودا عن بقية البناية بجدران صماء ممدودة ، كان فى الركن ترابيزة متوسطة الحجم وكرسى واحد متروك بلا مبرر واضح وأنا قلت لروحى إنه مسكن لائق بكل الحسابات ويستحق قبولى ودفع عمولة من اقتادنى إليه وحدد قيمة إيجاره التى كانت فى متناول اليد فدفعت له المطلوب وتسلمت المفتاح ووافقت الرجل على شرطه الغريب :

. كل شهر يا أستاذ تجيب لى الإيجار وتستلم الوصل منى.

لم يكن لدى أى اعتراض على وسيلة الدفع وإن كنت فكرت وفسرت بينى وبين نفسى، أنه احتمال قائم، أن أصحاب المسكن حريم بلا رجال يتباعدن عن الاحتكاك بساكن أعزب مثلى ، والعربة " الكارو " التى كانت تحمل المحتويات من الشقة القديمة لتنقلها لشارع مراسينا تصير هدفا لنظرة استنكار جماعى معلن ، وبعينى رأسى رأيت ثلاث قلل فخارية تلقى بقصد فى اتجاهها وتتكسر على الأرضية بجوار الحصان وتأكد لى أننى وكل من كان يعيش أو يفد إلى المكان كان محل استهجان واستنكار صامت منهم يستحق تكسير القلل وراءنا ، وتذكرت بعض ما كان يجرى فى الشقة قلت لنفسى ان لديهم الحق فى الاعتراض على سلوكنا المشين وإن كان اعتراضا مؤجلا بالحذر وصامتا يتفجر فى لحظة الرحيل المؤكد ، فهل كانت سلبية ساكنة داخل النفوس والعقول لا يعلن عنها أبدا إلا بعد التأكد من الخلاص ممن مارسوا الجسارة على كل المستويات ؟ واذا كان ذلك كذلك

فنحن جميعا نستحق كل ما يجرى حولنا من مفاسد بقصد أو بغير قصد ما دمنا نتخوف من إعلان اعتراضاتنا فى الوقت الملائم حسبما أكد لنا المتولى الذى فعل الكثير وحرضنا على الفعل بأكثر مما فعلناه فى شقة الحلمية المتواضعة لأننا فى واقع الأمر كنا تلاميذه ، وصحيح أننى عاشرته ثلاثة أشهر لا تزيد لكننى تعلمت خلالها ما لم يكن يخطر على بالي، ولفت هو نظرى إلى أشياء لم أكن أفكر فيها فتوصلت إلى قناعة بأن الزمن لا يقاس بطوله أو قصره وإنما بمدى تأثيره على العقل والنفس والمشاعر ، قمت من فوق المقعد الوحيد وفتحت الباب لأرى سلم الشقة المفتوح على الشارع وتأكد لى أنها كانت خلاصا وحلا عبقريا لأمثالى. كانت الكتب التى تخصنى وتخص المتولى فى كراتينها الملفوفة تحتاج إلى مكتبة اشتريتها ووضعت الكتب فوق رفوفها وقد آلت إلىّ بالحيازة التى هى سند الملكية ، صحيح أن طُلبه هو الذى نقل الكثير منها على فترات متباعدة إلى شقة الحلمية مدعيا أنه اشتراها بثمن بخس من خال المتولى الذى لم يكن يعرف قيمتها ولا تهمه محتوياتها فعرضها عليه ليشتريها أو يتصرف فيها ويتخلص منها فوافقه وأخذها ليضعها أمانة عند واحد من أولاد مدينته ، وكانت الحكاية تبدو ملفقة لأن ملابس المتولى أيضا كانت تستر بدن طلبه على نحو متكرر يوحى بأنه سلبها فى حياته أو مماته وأنه أخذ الشقة بكل محتوياتها وتصرف فيها بعد أن قدم لنا الرجل الأخرس وادعى أنه خال المتولى وطردنا ليمنعنا من مشاركته فى التركة بحسب ما كان يقول مرارا عن محتويات المكان المشاع ، كلها احتمالات واردة لو صدقنا سوء ظن المتولى فى غالبية مثقفى عالمنا الثالث وكيف أن لديهم إحساسا جوانيا بهوس الاضطهاد أو الذهان والهواجس التى تتلبسهم ، ينعزلون عن ناسهم ويعيشون فى الهامش الفوقى

يدعوى أنهم أكثر وعيا ولا يفهمهم أحد، يكذبون على أنفسهم وعلى من يدعون أنهم يفهمون دوافعهم دون مراجعة ، نوع من التذاكى وممارسة الفطرسة الزائفة التى تجعلهم يرددون شعارات وردية ترفرف فى سماء أخيلة هفهافة ومتباعدة عن تفاصيل الحياة والهموم المعاشة فيقودهم الفشل إلى حالات من الإحباط أو الاستعداد للتدنى والملمة « فرافيت» الخير الساقط تحت موائد الأكابر فيعتبرونها مكاسبهم المستحقة لأنهم برعوا فى تبرير الخطايا وعجزوا عن المواجهة ثم نظموا قصائد المديح الكاذبة من أجل منحة أو عفو عن جسارة قديمة يلزم التكفير عنها بالخرس المتواصل ، يتحولون إلى أبواق تطنطن وتبرع فى ترديد العبارات الرنانة عن مزايا أسيادهم الجدد الذين فكروا فى البدايات أن يثورا على أمثالهم ، ولعلنى وقد أفزعتنى الصور البشعة توصلت إلى إتفاق بينى وبين نفسى أن أتباعد أو أتحاشى أى إمكانية لأن أتحول لمشروع زعيم صغير مثل المتولى الذى ترأس شلة دانت له بالولاء طمعا فى بعض ما كان يجلبه وينفقه عليهم وكلهم يعرفون أنه حرام مبرر أو حلال وهمى وضعه وحده وحيدا أمام نفسه وأوصله إلى التفكير فى نهايته المفجعة .

●●●

طابت لى الوحدة وتعايشت فى حالة من التوافق مع كل ما يحوطنى بمسكنى الجديد المطل على الشارع فلا يخيفنى من احتمالات أن يدفعنى شيطان مارق لأرمى نفسى من نافذته مثلا بهدف الانتحار لأن العمق لم يكن يكفى أو يغرى نوازع الرغبة فى الخلاص من الحياة التى تفجرت فى شقة الحلمية والتى لم ينقذنى من حصارها إلا زحام الغرباء المفروض والذى

تقبلته حتى لا أنتحر بسبب الوحدة القاتلة ، لكن الوحدة هذه المرة كانت تغريني برغم الجدران الصلدة لأكتب الشعر مثلا ، وكان مشواري اليومي لمبنى المجمع فرصة للتعايش مع نفسي واجترار الذكريات بكل ما فيها من بهجة أو أحزان ، كأنني كنت ألتقط أنفاسي بعد مشوار صعب ومملوط بلا هدف غير الرغبة في التجريب والكشف ، ولا بد أنني توصلت من داخلي إلى قناعة بأنني جربت واكتشفت ما يكفيني وزيادة ، وعندما زارني طلبه العتمان في مكتبي رحبت به ترحيبا فاترا وطلبت له الشاي، فأخرج علبة لفافات بغلافها وفضها ثم ناولني سيجارة فلم أمانع ، سألني عن محل سكني فأفهمته أنني عملت اشتراكا للسفر بين القاهرة وطنطا قبل وبعد مواعيد العمل الرسمية ، أظهر إشفاقه علىّ من هذا الجهد المجاني فأكدت له أنني مكره وأنني قدمت بالفعل طلبا للنقل إلى مدينتي الصغيرة بعيدا عن صخب القاهرة واغترابي فيها ، كنت أجرب الكذب لأول مرة معه وربما اكتشفت أنني أستطيع أن أكون كذابا بارعا وقادرا على الإقناع مثل الكثيرين من أمثاله ، وعندما طلب مني أن أستضيفه يوما في تلك المدينة التي سمع عنها لقراءة الفاتحة للسيد البدوي اعتذرت بجفاء استشعره فابتسم ممرورا ، وعندما سألني عن كتب المتولي قلت له إنني تخلصت منها خوفا على نفسي وقد كانت الشقة مراقبة من أجهزة الأمن التي تعتبر مثل هذه الكتب سببا في وضع المواطن في خانة النشاط المعادي . لا أعرف كيف تواترت الأفكار وكيف استطعت أن أحبك الكذبة بعد الكذبة ، وربما لم أكن أهتم بتصديق طلبه أو تكذيبه لكل ما أقوله ، كنت أرغب فقط في التخلص منه بفعل خوف تولد لديّ من ناجيته بعد أن حذرني منه الأستاذ ياسين ومن قبله المتولي نفسه ، وحينما قام وطالبني بتوصيله خارج الغرفة

طالبنى بخمسة جنيهات سلفه وسيقوم بردها ، وذكرنى بأننا فى أول الشهر وجيبى بالقطع عمرانا ما يزال فأخرجت المبلغ وقلت دون مواربة :

- دى آخر مره ح تاخد منى فلوس يا طلبه ، وممكن تعتبرها مساهمه فى تمن الكتب إللى اشتريتها بتراب الفلوس من خال المتولى زى ما قلت بعضمة لسانك

كان يدس المبلغ فى جيبه ويتأملنى مندهشا ومكذبا روحه ، لكنه أومأ لى قبل أن يلوح بكفه وهو يتجه لدرجات السلم لينزلها على مهل وكأنه يعدنى بلقاء آخر ويتوعدنى بطلب سلفة لا أملك القدرة على الفرار من الاستجابة لها رغم غلظتى فى هذا اللقاء ، من داخلى كنت أعتقد أننى دفعت فى كتب المتولى ثمنا لائقا ويحق لى أن أقرأها بإحساس المالك ولو بالتواطؤ مع نفسى ، ولا بد أننى كنت منهمكا فى قراءتها لأستكمل تفاصيل ما لم يكن واضحا فى خيالى عن هذا العالم الغريب ، وكانت عادة شراء الكتب قد تزايدت عندى فملأت فراغات المكتبة الكبيرة المسنودة على الجدار الفاصل بين مسكنى المعزول عن أصحاب باب البيت المسكوك بإحكام فى أغلب الأوقات .

بدا لى أننى لمحت ابتسام ذات مساء فى شارع مراسينا فتظاهرت بعدم رؤيتى ، لعلنى تعمدت تأجيل طلوع درجات السلم لأتأكد أنها هى بعينها أو لأستمتع أيضا بتأمل حركات البدن الفارع والشعر المسترسل الذى كانت الرياح الخفيفة السارية تطيره فتلملمه بأناملها وخطواتها المتعجلة تساعدها على الذوبان فى زحمة الشارع العريض. وتذكرت سالى وتمنيت لو ألتقى بها صدفة لأعتب عليها وأتشكى من وحدتى ، وفى الداخل بحثت فى أوراقى عن تلك القصائد المكتوبة بوحى من غيابها عنى ، لعلنى ضحكت على نفسى فى

تلك الليلة وتأكد لى أن الشعر مبالغة متواصلة وأن أستاذنا القديم الذى نسيت اسمه كان صادقا عندما قال لنا فى المدرسة إن أجمل الشعر أكذبه.

كان صباحا مبكرا عندما دقت بابى ، كانت أول دقة على الباب أسمعها منذ سكنت المكان ، وعندما فتحته رأيتها قبالتى بلحمها القليل وشحمها الأقل ، أزاحتنى فذكرتنى أنها فى الشارع ما تزال فأفسحت لها الباب الموارب لتدخل . تأملت هى المكان بألفة وكأنها تعرفه ، وعلى طرف السرير جلست فاستخدمت أنا الكرسى الوحيد حائرا كيف أبدأ معها حوارى، لكنها قالت:

- جبان ، أصل إنت جبان .
- أنا ؟
- طبعا إنت ، ولا سألت ولا فكرت ، ولا دورت ع البنى آدمه اللى عرفتها ف يوم من الأيام .
- أنا ... أنا آسف ...
- أنا إللى آسفة عشان سألت عليك وجيت لغاية عندك .. بس غصب.. كان غصب عنى .. جيت غصب عنى عشان أقولك الكلمتين دول ... تسمحلى أخرج .

قالتها وهى تقوم بانفعال وتتوجه ناحية الباب لكننى اعترضت طريقها ببدنى ، كانت فى عينيها دمعتان توشكان على السقوط من خلال السواد المرسوم بكثافة فوق وتحت الرموش ليبرز بياض العينين وقد توسطهما سوادين خالصين يتواريان خلف العدستين الرقيقتين . لمستها متوددا بكفى وتقدمت نحوها بينما تتراجع هى بخفة ودون مقاومة أو اعتراض ، وعندما

وصلت هى إلى حافة السرير جلست باستسلام ، لم أكن متعجلا لمناقشتها أو تبرير غيابى عنها أو حتى سؤالها عن سر غيابها الذى كان بحساباتى يستحق العتاب ، لكن الوقت لم يطل لأنها جففت بالمنديل مشروع البكاء وتماسكت ثم همست :

- أنا آسفه ، ما كنتش قادره أمسك نفسى .

- أنا إللى أسف، كان لازم أحاول أشوفك وأعرف منك سبب غيابك ، أنا ما فهمتش إنتى ليه ما ...

- ما جيتش مش كده ؟ افرض جرى لى حاجه ما تسألش ؟

- لما ابتسام جتنى وكلمتنى ...

- ما ليش دعوه بابتسام ، أنا إللى فرضت نفسى عليك م الاول ، مش كده ؟ عجبتنى ووقعتنى غصب عنى ف حبك . ومستعده أعمل أى حاجه ترضيك ، بس حس بيا .

- أنا إللى آسف بجد ، كنت فاكرها حكاية زى كل الحكايات الطيارى. ع العموم حصل خير ، وكل حاجه تتعوض .

- ما تكسفنيش بقى .

بينى وبين نفسى كنت أتعجب من نظراتها المقتحمة للمكان وكل محتوياته وكأنها رسام يرسم بورتريه فى حضور رسام آخر يرسم تقاطيعه. كان معطفها الأبيض على حافة السرير إلى جوار المذكرات " والفارما كوبيا ابتسمت ثم خلعت نظارتها ووضعتها على المكتب وهمست :

- اشتقت لك .

كانت تملك ابتسامة واثقة ، من ذلك النوع القادر على تبديل الملامح

وتجميلها ،لعلنى لم ألحظ هذه الابتسامة قبلا ولعلها لم تبتسم فى المرات السابقة بمثل هذا الصفاء والمودة ، كنت حائراً ومتردداً وربما كنت متوترا ، لعلها المفاجأة التى لم أتوقعها بمجيئها إلى مسكن جديد لم أذكر عنوانه لأحد ، لعلها كانت جسارتها مع البساطة التى تصرفت بها كأنها فى بيتها وأنا وافد على غير موعد ، تحركت فى المكان بحرية واتزان أخت شقيقة تزورنى فى بيتى للمرة الألف ، تتأمل الفوضى وتتحرك فى اتجاه المطبخ ثم تعود وتهز رأسها لوما واستنكارا ، ولا بد أنها أدركت أسباب دهشتى ولم تندهش أو تتحدث عن المبررات أو التفسيرات ، شعرت أنها قادرة على اختصار المسافات فى كل شئ ، قليلة الكلام كثيرة الحركة على عكس كل من عرفتهن ، قالت وهى تقف أمام صفوف المكتبة المعلقة على الجدار تتفحصها وتختار كتابين تضعهما فوق المكتب ومن تحتهما «الفارما كوبيا» :

- ح أبقى آخد دول أقراهم ، عاوزه شوية حاجات فى المطبخ .

نظرت إليها مستفسراً عن نوع الحاجات فتحركت بخفة يمامة على بعد خطوة واحدة ، مدت يدها إلى غلاف " الفارما كوبيا " ترفعه وباليد الأخرى لوحت لى ببعض الجنيهات الجديدة تقدمها لى :

- فلوسك .

ترددت قليلا وأنا أتأملها مستوضحاً فأكملت :

- تلاقيك مفلس ع الآخر .ماما قبضت قرشين م الشئون ، خد فلوسك، الفقرا الطيبين يستلفوا ويسددوا ، مش كده ؟

مددت يدى وأخذت النقود ثم وضعتها على طرف المكتب ، كنت مفلساً بالفعل وحائرا فى كيفية تدبير أمرى فانتشلتنى من الحيرة والارتباك، ربما

شعرت بالدفء من داخلى والطمأنينة والرغبة فى أن أكافئها بسبب إعادة ما لم أكن أحسب أنه سوف يعود أبدا وفى الوقت الحرج، كانت ابتسامتها الصافية هى التى اجتذبتنى ناحيتها وجعلتنى أحيطها بالذراعين لأقبلها عدة قبلات بريئة على الخدين ثم قبلة متأنية ومتمهلة على الشفتين تقبلتها بامتنان المستجيب .

- إنت عملت إيه .
- تانى ؟

سألتها وأنا أترك بدنها برقة وأتراجع متباعدا بلطف عنها ، عجزت مثلما عجزت هى عن الرد فابتسمت بوداعة ورأيت عسلها السوداوين تلتمعان ببريق مفاجئ ، كأنها تبدلت وتغيرت وصارت قادرة على أن تملأ المكان وتسيطر عليه بإشارة منها ، ولابد أنها خطفت مشاعرى منذ تلك اللحظة لأتنازل عن الصورة المرسومة فى الخيال لفتاة الأحلام ، لحظة الدخول بكل الرغبة فى علاقة مع بنت ضامرة الصدر نحيلة لكنها فى ذات الوقت قادرة على التحكم فى المشاعر وإشاعة البهجه والنشوة فى الأطراف بجسارتها التى لم أجربها لا مع بنات ليل ولا بنات نهار ، سالى كانت دنيا صغيرة قابلة للتمدد والاتساع :

- أنا سألت عليك وعرفت إنك تستاهل أضحى عشانك
- سألتى مين ؟
- سألت واحد شيخ .

قالتها وهى تضحك فتكشف أسنانها المنتظمة البيضاء بشكل اسر، علنى كابدت مأزقا لم أصادفه أو أقدر على تفسيره فسألتها مستطلعا وكأننى تلميذ يجتهد للتعرف على درس لم يحضره :

- شيخ ؟ شيخ إيه ؟ ويعرفنى منين ؟ إنتى بتهرجى ؟

- أبدا ، أصل إنت لما بستنى ف العوامه خفت وقلت حرام الناس الغرب عن بعض تبوس بعض ، هربت منك ، بس لما سألت عرفت إنه مش حرام.

- دقيقه واحده.

قالتها وهى تتجه إلى دورة المياه فجلست أنتظر وأتفكر فى كل ما سمعته من ألغاز تستعصى على الحل لكنها خرجت بروب مفتوح لونه أحمر وردى ، اقتربت منى وأخذتنى فى حضنها بمودة ثم قالت بجرأة لم أتوقعها أبدا :

- وهبت لك نفسى ، ح تقبل ولا ؟

- ولا إيه بس ؟ إنتى طلعتى لى منين ؟

- ح أبقى أقول لك بعدين .

●●●

اقترحت هى فى اللقاء التالى أن نحرر بيننا عقدا لزواج عرفى فلم أمانع، صارت تأتينى بحسب ما تعد وبأكثر مما تعد ، توقظنى فى الصباح الباكر أو تفاجئنى بوجودها فى المسكن وأنا راجع من مأمورية خارج المدينة، تدهشنى وتكشف لى مواهبها فى التعامل مع البشر بينما تسير إلى جوارى، تبدو رغم ضآلة حجمها قادرة على امتلاك الدنيا واكتساب ودها، ولابد أننى بمرور الأيام كنت قد اختصرت العالم فيها وصرت أنور فى مدارها رغم ما كانت تدعيه من أننى استلبت إرادتها ومشاعرها وعقلها، وكنت أكتشف مع مرور الأيام أن جسدها الصغير يتفجر وينمو وتبرز تفاصيله وتقاطيع وجهها تزداد نضارة وتتألق بمثل ما كان صدرها يصحو ويتدور على نحو مثير للمشاعر والرغبات ، وعندما أحدثها عن تلك الاكتشافات تضحك بمرح وتتهمنى بالجنون ، أقول لنفسى أنها تخشى على

روحها من الحسد ، أو أنها لا تريد أن تعترف بما تبدل فيها وتغير حتى تحولت فى واقع الأمر إلى أنثى مرغوبة بكل الحسابات ، بل إنها ازدادت طولا فى نظرى وازداد شعرها نعومة وسوادا ، وقالت لى فى لحظة صفاء نادر أنها تزدهر وتتألق وتنمو بالحب ، وأنها فى زمن سابق كانت قد عاشت تجربة حب جربت فيها كل شئ ووصلت إلى حد الاكتمال بلا موانع ، عجبت لصراحتها وسألتها عن مصيره فرفضت أن تبوح بسرها المدفون أو أن تحدثنى عنه بأى كلام ، كل ما عرفته أنها هجرته بوعيها وإرادتها وأنها انطفأت لسنوات عاشتها تهرب من ذكراه وتتأكل لإحساسها أنها بغير تدبير منها كانت سبباً فى دماره ، حذرتنى من معاودة السؤال عنه أو عن مصيره الذى كان بحساباتها يستحقه وطالبتنى بأن أحدثها عن المستقبل وأن أكف عن تقليب صفحة ماضيها

●●●

انخرست كل الأصوات من حولى وسيطر الصمت ، لم يعد هناك غير حفيف خطوات الرجل الطالعة ومن ورائه الرجلان التابعان يوشكان من فرط الأدب أن يمتنعا عن التنفس بينما يصعدان وراءه بدرجتين . كانت الوجوه الواقفة قد التفتت إليه وهو طالع "بالبالطو" وزر طربوشه يتأرجح بحرية ويكيد الطربوشين التابعين بزريهما الموشكين على الثبات والسكون ، ساعتها فكرت أن الطرابيش درجات ، طربوش للسيد وطربوش للعبد ، وزر طربوش حر للسيد وزر طربوش ذليل للعبد لا يميل براحته إلا لأخذ الأمر أو طلب الرضا من الأكابر ، كنا فى ذلك الزمان ننقسم إلى نصفين غير متساويين ،

نصف أعلى يملك كل شئ ويحق له عمل أى شئ ونصف آخر أدنى غير محسوب حسابه فى أى شئ ، وكنت أثق تماما من مكانى فى النصف الأدنى دون أن أكون مستعدا للموافقة على تلك القسمة غير العادلة .

عندما وصل الرجل إلى آخر الدرجات بدا لى سميناً إلى حد مفرط، ربما بسبب المعطف السميك ومن تحته الكوفية الصوفية والسترة ومن تحتها الصديرى من نفس القماش ، وكان كرشه يسبقه والعطر الذى لم أكن أعرف نوعه يفوح ويغزو الأنوف المهذبة وسط الوجوه المطرقة ، بدا لى أنه خصنى بنظرة استهجان فأحنيت له رأسى بأدب ثم رفعتها ، دخل هو من الباب المفتوح الفسيح ومن بعده رأيت الرجلين ، أحدهما يحمل حقيبة تشبه تلك التى يحملها حلاق قريتنا ، والآخر يحمل مجموعة من الملفات الورقية على صدره مسنودة بذراعين نحيلين. وعندما نظرت إلى قفاه اكتشفت أنه محلوق لتوه ربما ، كان على كتفيه وظهر سترته الصفراء بقايا شعر مقصوص ، وعلى القفا نفسه آثار " البودرة " التى استخدمها الحلاق بعد أن أنهى عمله ، منفوضة بالفرشاة ربما ، لكن آثارها ظاهرة وكأنها إعلان ، كنت أرغب فى أن أسأل أى الواقفين مثلى ينتظرون عن الكيفية التى سوف يسمحون لنا بها للدخول ومقابلة الرجل المهم ، لكننى لشدة دهشتى وجدتهم جميعا وقد استداروا وأعطونى أقفيتهم وكأنما عن عمد ، كانوا ينظرون إلى الجدران أو مسقط السلم أو حديد البوابة وكأنهم اتفقوا على خصامى وعزلى عنهم لأسباب لم أكن بقادر على اكتشافها وإن كنت قد أرجعت الأمر إلى صغر سنى أو عدم إطراقى للرجل الكبير بنفس طريقتهم بينما كان يمر بنا ، لكن الذى اكتشفته هو أنهم جميعاً ودون استثناء كانوا قد قصوا

شعر رؤوسهم قبل المجيء ، مثلهم مثل حامل الملفات الذى أدهشنى ، وربما شهدت نفس بقايا الشعر المقصوص العالق على الأكتاف وفوق الظهور لدى البعض منهم وربما نفس " البودرة " أو بقاياها التى ظلت بعد محاولات الحلاقين غير الجادة فى إزالتها أقنعة محلوقة لأناس كنت أراهم من وجوههم قبل دخول الرجل المهيب السمين صاحب العزة ، وعلى غير وعى منى وجدتنى أتحسس قفاى وأتذكر أننى كنت قد حلقته فى مساء اليوم السابق ، ربما أتشابه معهم جميعا فى نظافة القفا وإن اختلفت فى إزالة آثار البودرة عليه . وربما بسبب هذا الفارق الهزيل شعرت أنهم ودون مقدمات قد خاصمونى أو على الأقل بدا لى ذلك. كنت اضع الطربوش المكوى فوق رأسى وكانوا مثلى يضعون طرابيشهم الحمراء فوق الرؤوس وقد تدلت منها خيوط " الزرور " السوداء فى حالة سكون يوشك أن يصل إلى حد الثبات ، تحسست زرى فاطمأن قلبى لأنه كان يتحرك بخفة وأدب. جاء رجل قصير من الداخل ، صفق بيديه لنعيره انتباهنا فنظرنا نحوه وسمعناه وهو يقول بخفاء وكأنه يطردنا

- الباشا ما عندوش وقت يقابل حد النهارده

كأنهم كانوا ينتظرون تلك العبارة أو يتوقعونها ذلك أن أياً منهم لم يعلق بالقبول أو الرفض ، تحركت أقدامهم دون ترتيب وبآلية ، رأيتهم يهبطون درجات السلم وأياديهم تتساند على سطح الدرابزين الخشبى ، كنت أنظر ناحيتهم وكأننى مسئول عن اكتشاف الكيفية التى بها ينزلون ربما كانت قدماى مربوطتين إلى الأرض أو ممسوكتين بمسامير يصعب الفكاك منها ، لعلنى كنت قد اصبت بشلل مؤقت فامتنعت عن الحركة من مكانى حتى رأيت ذلك الرجل القاعد على مقعده ذى العجلات الذى كان

يقترب منى وهو يشير ناحيتى قبل أن يسألنى بود خالص

- معاك كارت توصيه ؟

●●●

«تتناول إيده فى إيدك بأدب ، توطى عليها تبوسها ، لو حاول يسحبها ما تسيبهاش ، واحسبها فى عقلك بقى ، بوس إيد الراجل ده يعنى وظيفة فى زماننا الصعب والجيل المتعلم بشهايد لكن عطلان .»

تذكرت كلمات الحاج إبراهيم التى كان قد قالها لى أكثر من مرة ، ولولا الحياء لطلب منى أن أحلف أمامه على المصحف أننى سوف أفعل ما أوصانى بفعله ، ولولا صداقته القديمة لأبى ما كتب على الكارت الخاص به أمامى تلك العبارات التى حفظتها عن ظهر قلب قبل أن يدسه فى يدى وكأنه يمنحنى حق الحياة نفسه :

معالى الباشا الكبير دمت لنا وللفقراء سنداً ، حامله ابن رجل مشلول ومحتاج ، الولد حامل شهادة الثانوى ، نسلمه لأياديك البيضاء التى يقبلها فيزاداد شرفاً مثلما نفعل ، وكلنا عبيد أوامرك .

كان الكارت فى المظروف الصغير أدفئ بهَ صدى ، أداريه عن نفسى مثل عورة مكشوفة ، تحسسته وأومأت للرجل القاعد على مقعده ذى العجلات ، أشار إلىّ بطرف سبابته لأتبعه ، وبخفة أدار نفسه وبسرعة قادنى إلى غرفة فسيحة مزحومة برجال من كل الأعمار ، نظر إلى المقعد الوحيد الخالى فاتجهت نحوه وجلست .

كان السكرتير القصير غاضب الملامح يأتى وينادى على الاسم

فيقوم صاحبه ، يصلح من هندام نفسه بنفسه ويطفئ اللفافة إن كانت فى يده لفافة ، يتبع السكرتير القصير بخطوات وئيدة وينتظر حتى يفتح له الباب الأخضر المنجد بجلد أخضر ومسامير مذهبة ترسم على الجلد رسوما غامضة وزخارف مبهمة ، وعندما ينسك الباب نسمع صوت الانغلاق الذى له صوت الأنين المكتوم قبل الصمت ، وبعد الفترات المتباعدة كان السكرتير يأتى وينادى على الاسم الجديد حتى أوشكت القاعة أن تصبح خالية ، لم يكن قد تبقى غيرى وشابين فى مثل عمرى ناداهما معاً فلم يبق غيرى. حاولت ان اتذكر الكلمات التى أوصانى الحاج إبراهيم بأن أقولها للباشا أول ما أقف أمامه فلم أستطع ، تاهت كلها من ذاكرتى ، كأنها كانت مكتوبة بقلم رصاص خفيف وفاتت على سطورها أستيكة نشطة ، كانت على أحد الجدران ساعة معلقة لم أنتبه إليها إلا عندما سمعت دقاتها ، كانت ورائى بالتحديد ، بندولها يتحرك ولها عقرب وحيد يحسب الدقائق بينما عقرب الساعات مفقود ، ومع ذلك كنت أسمع صوتها بعد أن انتبهت إلى وجودها خلفى ، لم أستطع أن أميز الوقت فى المكان الذى أسدلت على كل نوافذه ستائر ثقيلة وإن كانت أنوار النيون تضيئه بشده ، لعلى جرؤت وقمت وقد صرت وحدى فى المكان ، رأيت صورة الباشا فى " روب " المحاماة الأسود فوق ثيابه الثقيلة ، ورأيته راكباً فرساً مقوس الظهر إلى أسفل ربما بسبب الثقل الكبير الذى يحمله ، ورأيته بملابس " التشريفة " وقد فتل شاربه ورفعه إلى أعلى مثلما كان يبدو لنا شارب جلالة الملك فى صورته المطبوعة فى أوائل صفحات الكتب الدراسية ، كنت أشعر بالجوع والتعاسة وكانت فى الحلق مرارة من نوع آخر لم أجربه قبلا ، لم تكن مرارة الفقر أو

التعاسة الناتجة عن أزمة قاسية مرّ بها أب فسودت الدنيا فى وجه الابن ، كانت مرارة من نوع آخر مختلف ، ربما كان الخوف من العجز عن عرض قضيتى أمام الرجل يحاصرنى ، لكننى كنت على استعداد للدفاع عن نفسى فى أول مرافعة منطوقة بأمل الحصول على عمل ، ووسط حيرتى رأيت الرجل القاعد أمامى فوق الكرسى المتحرك ، أسمعه يقول متعجلا وهو يمد يده ناحيتى :

- بقولك هات الكارت أدخله للباشا .

مددت يدى وأخرجت المظروف من جيبى وناولته للرجل ، استدار ببراعة وخفة واختفى فى الدهليز البعيد ، بعدها بلحظات رأيت السكرتير القصير وهو يدخل ، يشير إلى دون أن ينطق باسمى ، يقودنى داخلا الباب الأخضر فانقاد وراءه مسلما نفسى للدخول فى الإختبار الصعب سمعت صوت إغلاق الباب ورائى أنيناً مكتوماً أعلى وأزيد من كل المر السابقة ربما بسبب شدة الاقتراب ، رأيت الرجل المهيب جالساً وراء المك الكبير ، يدور بالكرسى الدوار ويرد على الهاتف ، لا ينظر ناحيتى وكأنه بشكل متعمد ، وبغضب يفوق غضب السكرتير أسمع صوته :

- يا باشا تتكلم بالليل ألف سلامه .

ثم لنفسه :

- منعون ابوك ابن كلب

قال عبارته الأخيرة وعبرنى بنظرته ، التفت إلى الرجلين بالطربوشين والسيدة بالقبعة المدورة وفوقها ريشة واقفة لم أر مثلها أبدا وكلهم قعود

بأدب أمامه ، وضع السماعة مكانها بشكل مسرحى وكأنما كان قد نساها أو تناساها عن عمد ، ثم أشار إلى الهاتف نفسه وكأنه يشير إلى إنسان من لحم ودم :

- مخضوض وخايف ، خنزير غبى .. مع إن البلد فيها ملك محبوب نفديه بدم الفؤاد ..

أزاحنى السكرتير من مكانى برفق لأقف إلى جوار رجلين رأيتهما من قبل فى القاعة الخارجية فاندهشت لأنهما مازالا ينتظران وكانا من أوائل من دخل حجرة الباشا ، جهزت نفس لوقفة طويلة ، كان الرجل يتحدث بحماس والمرأة تكتفى بالنظر إليه بابتسامة ثابتة لا تتأثر أو تتبدل ، وبدا لى أن الرجل أطل ناحيتى إطلالة مباغتة وهو يتحدث عن حزب الأحرار غير الدستوريين والوفد النصاب والديوان الملكى الخربان ، وأشياء أخرى بدت لى مقلوبة رأسا على عقب ولا توحى بأى انتماء أو احترام لشيء أو لجهة ، وكأنما كانت كل الأحزاب عنده فاقدة لقيمتها وكل الزعامات أكاذيب وادعاءات ، شئ يحير ، ولم أكن أعرف على وجه الدقة إلى أى شئ يوجه كل هذا الغضب ولحساب من كان يهين كل الرجال الذين كنا نهتف بحياتهم لتأييدهم أو كنا نهتف بسقوطهم فى مظاهرات الطلبة أيام دراستنا فى المدارس الإبتدائية والثانوية .

انفتح الباب الأخضر ودخل رجل مبروم الشارب بعناية يضع نظارة طبية على عينيه وطربوشا مكويا على رأسه . رأيته يتجه إلى الباشا مباشرة، ينحنى ويأخذ يده اليمنى ويحوطها بين يديه قبل أن يقبلها عدة قبلات

متتابعة وبصوت مسموع ثم ينحنى وهو يعيدها إلى مكانها المأمون على مسند الكرسى الدوار ، وبظهره يخطو إلى الخلف عدة خطوات ودون أن يخطئ التقدير يصل إلى جوارى ويقف منتبها ويلهث قبل أن يقول بارتياح من أدى واجبه على أكمل وجه :

- نقبل الأيادى يا باشا .

ويدا لى أن شارب الرجل المبروم قد انبرم أكثر وصار أكثر صلابة فى وقفته ، كأنه بعد أن أدى واجبه قد سمح له بأن يشمخ ويعلو فوق كل الشوارب فى المكان ، ولعلنى وأنا أتأمل صورة الرجل المهيب المعلقة فى بروازها الذهبى إلى جوار صورة الملك ، لعلنى توهمت أبى وقد أطل من وسط الإطار وسمعته وهو يهمس لى محذرا كما كان يفعل فى السابق :

- إوعاك توطيها لحد مهما إن كان يا ولد .

شعرت بنوع من الدفء ، وبلفتة خاطفة رأيت الشارب المبروم وقد ارتخى، لعلنى قرأت فى عينيه شبح انكساره رغم البسمة البلهاء الثابتة على الشفتين المنفرجتين واللسان الظاهر المحبوس داخل الفم المفتوح ببلادة، كنت أرغب فى الإعلان عن وجودى رغم نسيانى لأى كلمات لائقة ، تنهدت فرمانى الرجل المهيب بنظرة عارضة فيها شئ من الاعتراض وهو مازال مستمرا فى موضوع لا أعرف أوله من آخره :

- إحنا يا هانم نعرف البلد دى كويس ، ونعرف يا حضرات الناس إللى تعرف مصلحتها كويس ، فيه ف البلد دى ناس جاهزة تفدى الملك بدم الفؤاد .

كان يبدو لى مثل يوسف وهبى فى فيلم "سفير جهنم" وكان قد توقف ونظر ناحيتنا وكأنه يستكشف أثر خطبته الحماسية على كل واحد منا، ربما أكون قد كرهت المليك فى تلك اللحظات اكثر من كل الأوقات السابقة، وربما أكون قد عبرت عن ذلك بنظرة أو همسة مفلوتة أو بتكشيرة استهجان تلقائية ، ذلك أن الرجل أشار ناحيتى على وجه التحديد بسبابة يده اليمنى وكأنه يتهمنى بكل غضب :

- الجيل ده ما فيش منه أمل .

قالها والتفت إلى السيدة ذات القبعة بريشة واقفة لم أر مثلها أبدا مط يوزه فى امتعاض وأشار إلى السكرتير القصير الغاضب ليهرول ناحيته، يسمع همساته ويهمس بحياء وخجل فى أذنه المدورة ، ينظر المهيب ناحيتى ويهز رأسه ، يهش السكرتير عنه وكأنه ذبابة ثم يشير إلى بسبابته :

- تعالى .

أتقدم ناحيته خطوات فيشير مرة أخرى آمرا :

- لف .

ألف وأدخل المسافة الخالية بين الجدران وجانب المكتب ، أصبح محاصراً بضرورة الكلام أو الفعل ، كأننى عصفور ممسوك فى طرف فخ ، أنظر إلى كفه المفرود على مسند الكرسى الدوار وأتذكر نصائح الحاج إبراهيم بتفاصيلها الدقيقة وكأننى تلميذ خائف من دخول الامتحان إلى حد الرعب فلما قرأ ورقة الأسئلة تدفقت فى خياله كل إمكانيات الإجابة واحتار

بأى الأسئلة يبدأ . كنت أشعر بقلق كف الرجل وهى تخبط خبطات متتابعة ومتباعدة ، تعلو وتنخفض بحركات عصبية وكأنها تنبهنى إلى وجودها أو تساعدنى على عمل اللازم لاراحتها ، ومن طرف الحجرة سمعت صوتا آمرا يأتى من بعيد دون أن أميز مصدره :

- سلم ع الباشا .

أمد يدى اليمنى ناحية الكف الغليظة فأراها وهى ترتفع إلى أعلى؛ ممدودة فى وضع رأسى مع الذراع وان كانت محنية بميل إلى أسفل ، كانت يدى فى يده تسلم وكنت أنظر إلى عينيه الضيقتين فأكتشف ضيقهما أكثر، وكانت تقاطيعه المكتنزة لا تليق أبدا مع ضيق الحدقتين إلى حد مؤسف، لعلنى لم أسيطر تماما على الكف المكفية على بطنه وذراعى مستقيمة، كان الرجل يشعر أننى جئت لأعانده أمام جمع من الأتباع ونوى الحاجات ممن يطلبون وده ، وعلى نحو خاطف سحب كفه وشمخ بأنفه فى استعلاء يليق بأمير أو ملك حقيقى ، سقطت الكف سقوطا ملحوظا على مسند المقعد لكنه سيطر عليها بسرعة وهمس لى بأدب يليق برجل مهيب مثله بينما شاربه المبروم مرفوع لأعلى مثل جلالة الملك : - استنانى بره .

خرجت من نفس الباب الذى دخلت منه رغم وجود الباب الآخر الموارب بيد الرجل الجالس على مقعده. سمعت مع انفتاح الباب وانسكاكه صوت الأنين، وكانت صورة الباشا بملابس التشريفة وبالحجم الطبيعى تقف فى مواجهتى، غاضبة ومستهينة بأمرى، وكنت أنزل درجات السلم على مهل دون الاستناد إلى الدرابزين، أسمع صوت أبى يحدثنى عن ضرورة السعى من جديد وعدم الاستسلام، ويوصينى بينما أنزل درجات السلم بألاّ أخيب رجاءه أو أن اكسر نفسى لمخلوق حتى ولو كان واحداً من أتباع الملك سكان القصور.

●●●

يومها تركونا نطوف بكل شوارع المدينة فى حراسة العساكر نتظاهر أمام المدارس التى لم تخرج وتتظاهر مثلنا ، نهتف أولا بأن اليوم حرام فيه العلم ، فإذا أخرجوهم هلّلنا ، وإذا تأخروا ألقينا على الأبواب والنوافذ قطع الطوب وحبّات الظلط التى خبأناها فى جيوبنا وحقائبنا حتى يستجيب الناظر ونسمع هتاف الأولاد فى الداخل أولا قبل خروجهم بسعادة ومشاركتنا مشوارنا فى أركان المدينة ، كان الأولاد الكبار يهتفون ونرد عليهم ، يشتمون الإنجليز فنشتمهم ، يهتفون بسقوط الملك والخونة فترتفع أصواتنا بحماس وجرأة ، يؤكدون أن النحاس زعيم الأمة وأن إتفاقية ٣٦ التى ألغاها هى ضد الاستقلال التام والموت الزؤام ، ومن كل الشرفات وأسطح البيوت كان ناس المدينة ينظرون إلينا بإعجاب ويؤيدوننا بترديد الهتافات أو الإشارات ، وكانت المظاهرة تكبر وتكبر حتى لم نعد نقدر على معرفة أولها من آخرها ، ويومها أيضا نجحنا فى إخراج طلبة المعهد «الأحمدى» لأول مرة ، خرجو بالعمامات والجبب والقفاطين وهتفوا هتافات أخرى غير تلك التى كنا قد حفظناها فرددناها أيضا ، وقرب ميدان المحطة تقابلنا مع مظاهرة أخرى كبيرة يقودها أفندية كبار وتمشى فى مقدمتها سيدات وممرضات وبنات من مدرسة المعلمات المجاورة لمدرستنا يحملن اللافتات ويسرن بنظام ومن ورائهن الأفندية وعساكر السوارى راكبين الأحصنة يحيطونهن من الجانبين. وقفت مظاهرتنا ومظاهرتهم تاركين بينهما مساحة فراغ وسط ميدان المحطة ، توحّدت الهتافات فى واحد يطالب بالسلاح لأجل الكفاح فتردّدت أصواتهم بقوة ظننا أنها لابد وأن تصل الى آذان الشمس نفسها ، هلّل البعض وكبّر البعض الآخر وأشاروا لنا فنظرنا إلى المأمور راكب الحصان يتوسط المساحة الخالية ومن حوله الضباط فوق

الخيول التى تتحرك وتوسّع حيّز الفراغ حوله ، بعدها لم يعد من الممكن أن نرى أو نسمع لأن الكبار وقفوا أمامنا وحجبوا عنا كل شئ ، نزل الزعماء من فوق الأكتاف وخفّ الزحام ورأيناهم بعد ذلك يتفرقون فى جماعات كبيرة إلى كل الإتجاهات ، جاء " السنباطى " زعيم مدرستنا بوجهه الذى احتقن بالدم وصوته المبحوح ووقف الى جوارنا ، كان ينظر الى المأمور راكب الحصان الذى يتحرك به فى المساحة الخالية بين المظاهرتين والضباط راكبين الخيل التى يقودونها ويرمحون فى شبه دائرة يتسع حيّزها كلما تراجعنا إلى الشوارع الجانبية. كان السنباطى هو الذى قادنا عبر المسالك الضيقة التى يعرفها فأخرجنا الى الشارع العمومى المؤدى إلى بيوتنا وكان لا يكف عن الكلام والتلويح بكلتى يديه مؤكدا لنا وكل من يسمع كلامه أن المأمور سوف يأتى بنفسه إلى كل المدارس فى صباح الغد ليسلمنا البنادق فى الفصول تماما مثلما يحدث عندما نتسلم الكتب والكراسات وأقلام الرصاص ووجبات الغداء .كان يستمد حماسه الزائد من نظرات الناس له وإعجابهم به وقد نزلت خصلة من شعره الأسود الناعم على عينيه فأهملها ليصبح شكل أنور وجدى ، وفجأة أوقفنى أنا والدسوقى رضوان بإشارة وسألنى :

- تعرف تضرب نار ؟

- لأ.

قلتها بخجل وقد انكمشت على روحى وكأننى عملت عملة كبيرة دون وعى ، هز رأسه وسأل الدسوقى :

- وأنت ؟

- ما أعرفشى .

ومرة أخرى هزّ السنباطى رأسه فاهتزت خصلة الشعر أكثر ، قال وكأنه يحدث نفسه ويجعلنا نتحسر أنّ قطارا مخصوصا سوف يقوم من المحطة حاملا من يجيدون حمل السلاح إلى خط القناة ليحاربوا مع الفدائيين. كنت أتبادل النظرات مع الدسوقى وأشعر مثله بالغيظ من السنباطى الذى كان يحكى عن خاله جابر عسكرى البوليس الذى يدعى أنه كان يأخذه إلى الخلاء عند جسر السكة الحديد ويمرّنه على ضرب النار ، كنّا لا نجرؤ على تكذيبه حتى لا يفشى سرّنا لخاله الذى لابد أنه سوف يبوح للمأمور فيحرمنا من استلام السلاح والسفر ، لكن السنباطى عرف نوايانا وواجهنا دون مواربة أو تردّد :

- ولا حدّ منكم ح يستلم سلاح ولا حد منكم ح يسافر معانا .

غضبنا منه وكتمنا غيظنا لأنه كان أكبر منا ، صحيح أنه كان يشاركنا فى كثير من الأيام مشاوير الذهاب والعودة من المدرسة إلى الشارع الذى يشاركنا السكن فيه ، لكنه فى ذلك اليوم اكتشف ضآلة شأننا وصغر أجسامنا على المهام الصعبة فقرر أن يتباعد عنّا ويمشى مع ولد كبير فى مثل طوله وعرضه .

●●●

كان باب البيت مواربا ، دفعته ببطء ودخلت ، لكننى فى المسافة بين باب البيت وباب الحجرة تذكرت أننى كنت قد تركته فى الصباح يتوجع من آلام الظهر وأنه كان قد أوصانى بالعودة إلى البيت مباشرة لأنه لن يذهب إلى الورشة ، تباطأت خطواتى لكننى لم أتوقف فوجدتنى أقف أمامه وهو على طرف الفراش نصف راقد نصف قاعد يسند رأسه على كفه اليمنى المفرود

وكوعه مغروس فوق الوسادة ، سمعته يتنفس بعمق وكأنه يتنهد ، شعرت بالخجل من نفسى لأننى لم أطاوعه ، وضعت حقيبتى مكانها وغيرت ملابسى ، طلب منى أن أناوله قلة ماء فأسرعت ناحية النافذة وسحبت واحدة رفعت عنها غطاءها النحاسى وناولتها له فشرب حتى ارتوى ثم تجشأ وأعادها ، أخذتها منه ووضعتها مكانها فى صينية القلل النحاسية الكبيرة ، حاول أن يتمدد كما كان فلاحظت أن أوجاع ظهره تعوقه عن الحركة المعتادة ، كنت أحكى له دون أن يسألنى عن المظاهرات وكل ما جرى فيها بينما أشعل المصباح الزجاجى وقد غزت الظلمة أركان الغرفة بحيث أصبح للضوء الخافت أثره المرئى قبل أن أرفع الشريط بعد أن سخنت الزجاجة فكسى الشعاع المنبعث كل شئ ، ولعلنى لاحظت حزن نظرته وهو يحادثنى :

ـ ما هو مافيش فى البلد دى غير الوفد إللى ح يقدر يقف قصادهم ، ماهو وفد يعنى شعب وشعب يعنى وفد ، فاهم ؟ الحكومة دى مش ح تنفع .

كنت أشعر بالجوع ولا أجرؤ على مقاطعته وكان هو يحكى بحماس متدفق عن مصطفى كامل وسعد زغلول والنحاس وظلم الإنجليز الذين جاءوا الى بلادنا ونهبوا خيراتنا وتتواطأ معهم الحكومات والملك النطع الذى يسعى لرضاهم ويسهلون له تهريب الأموال والمجوهرات الغالية فى بنوكهم ، وعلى رأى المثل " شيلنى وأشيلك " ، لعلنى نسيت الجوع والتعب وصوتى المبحوح ورغبت فى أن أخرج مرة أخرى إلى الشارع لأقود مظاهرة جديدة وأهتف بكل ماكان يحدثنى عنه من أسرار... ليسقط الملك .

●●●

طالت رقدته فى الفراش على عكس ما كان يظن ويحسب ، أرسلنى فى أول أسبوع إلى الورشة وأوصانى :

- تقول له يا عم الحاج عبده أبويا مش قادر ينزل الشغل الجمعه دى كمان ومحتاج الحسبه اللى عندك ، إللى يديهولك إنصح له وارجع ع البيت على طول .

لكن الحاج عبده لم يعطنى أى شيء ، وعد بالتصرف وتدبير المطلوب فى الجمعة التالية ، فى الصباح رهن أبى ساعته ماركة " الترماى بالكاتينة الذهب لأسعد فرج الساعاتى ساكن البيت المجاور وأوصاه بالكتمان ، كنت أنظر اليه وهو يخرجها ويفك الكاتينة وقد غطاه الحزن والخجل وكأنه يتجرد من كل ما يستره بينما تمتد يده إلى النقود يأخذها بدلا من الساعة ، من بعدها تزايد عليه الوجع ، نزل الألم إلى الركبتين ثم انتشر منهما وحاصر الساقين والفخذين ، أصبح من العسير عليه أن ينزلهما من فوق الفراش الى الأرض أو يرفعهما إليه دون مساعدة ، أصبح مشواره إلى بيت الأدب همّا قاسيا يكابده وأكابده معه وهو يستند إلىّ بنصف ثقله ويرمى نصف ثقله الثانى على العصا المعوجة التى زاد استخدامها ، وكانت جلساته فى الشمس أمام باب البيت وهماً تعلق به ولم يسهم فى تخفيف أوجاعه كما كان يظن ، لم يكن الأمر برداً عابراً تداويه الشمس وإنما كان شللا تمكن من نصفه الأسفل ليعذب نصفه الأعلى ، ويوم أرسلنى إلى الورشة قابلنى الحاج عبده بتكشيرة غاضبة وقال بغلظة :

- قول له إن أبويا الحاج راجع حساباته تانى ولقاك خالص مخلص، مالكش عنده حاجه ، وقول له كمان إنه جاب واحد صنايعى غيرك يمشّى الشغل العطلان .

لكنى لم أقل له كل شئ لأنه أعفانى من الكلام ، كأنه قرأه على جبينى مكتوبا فزفر فى ضيق وهمس وهو يهز رأسه :

- الندل .. الندل .. كان قلبى حاسس إنه ح يغدر .

فى الصباح التالى أعطانى خاتمه الذهبى وفاتورة الشراء ووصف لى دكان المقدس جابر الذى كنت أعرفه ، ذهبت وهمست فى أذن الرجل فقام وجلس خلف الميزان ، وزن الخاتم وقرأ الفاتورة وخط على الورق أرقاما ثم قرر وهو يقيسنى بنظراته .

- ح ينقص كتير ، أربعه جنيه ونص وخمسه أبيض

ولم أرد فطلب منى أن أناوله المنديل الذى كنت ألف فيه الخاتم فناولته ، لف النقود فى المنديل ودسّ بيده المنديل فى جيب بنطلونى وأوصانى بأن أضع يدى اليمنى فى نفس الجيب ولا أخرجها إلا فى البيت عند أبى مهما كانت الأسباب .

●●●

خرجنا من المدرسة وقد منحونا إجازة لأجل غير مسمى ، لكن السنباطى صعد على أكتاف الأولاد الكبار وقاد مظاهرة صغيرة يهتف ونحن نردّد وراءه ، كانت مظاهرة صغيرة تطلب السلاح ولا يحرسها العساكر لكنها كبرت قبل أن يظهر العساكر بالعصى الطويلة يرمحون بها وراءنا ونحن نفر منهم إلى الشوارع الجانبية قرب ميدان المحطة ، وكان المأمور الذى ادعى السنباطى أنه سوف يوزع السلاح على تلاميذ المدارس يركب حصانا آخر غير ذلك الذى كان يركبه بالأمس ويتمخطر به فى الميدان وحده، يشير ويجرى ويصدر الأوامر ، وسمعنا صوت عربة الإسعاف

ورأيناها وهى تأخذ الجرحى الممسوكين بواسطة العساكر والضباط ، لكنه كانت هناك فى ركن الميدان ملاءة سوداء مفرودة فوق شئ متكوم على نفسه ومن حوله مجموعة من العساكر كأنما يخبئونه عن عيوننا وعيون الناس ، وبينما كنا نهرب ونتخفى من نظرات المأمور الآتى فى اتجاهنا قابلت الدسوقى رضوان الذى كان يبكى ويجهش بخرقة لاعناً وساخطاً على المأمور والحكومة والملك والوفد أيضا ، حاولت أن أفهم منه فأشار بسبابة يده اليمنى ناحية الملاءة السوداء وصرخ وهو يجرى هروبا من مطاردات العساكر لكل الزملاء :

- العساكر ولاد الكلب قتلوا السنباطى .. قتلوا السنباطى .. انضرب بالشوم والرصاص ومات .. مغطيينه بملايه سوده ومداريين عليه .

لم أشعر بنفسى وأنا أطير فى اتجاه الميدان ، أنفذ من بين العساكر وأرفع الملاءة لأرى وجهه وقد غطاه الدم النازف من رأسه وعيناه وقد انطفأ فيهما البريق بينما يطل ناحية المأمور القادم الذى كان يشير ناحيتى ويصرخ بكلام لم أتبينه وإن كنت قد شعرت بالضربات تنهال على من عصى العساكر ، ولا أدرى كيف رمحت أو انحملت أو تساندت لأصل إلى تلك الحارة الجانبية ويدفعوننى دفعا فى مدخل أحد البيوت ، كنت محاطاً بتلامذة من مدرستنا ومدارس أخرى بالإضافة الى شباب ورجال لم أعرف منهم فى سابق الأيام أحداً ، وكانت البنات والنسوة والأولاد الصغار ينكرون عندما يسألهم العساكر أو المخبرين إن كان أحد منهم شاف ولداً بملابس المدرسة يمر من الحارة وحده أو برفقة عيال كبار ، يضللنهم ويقررن أنهن شاهدن ولداً بملابس المدرسة يحمله جماعة من طلبة المعهد الأحمدى ويدخلون به واحدة من الحارات المجاورة. كنت مجروحا

فى أكثـر من مكان لكننى كنت مـا زلت أعيش على العكس من السنباطى زعيم مـدرستنا الذى صدق وعد المأمور له بأنه سوف يسلّمه ويسلّم كل تلاميذ المدارس السلاح كما كانوا يسلّموننا الوجبات والكتب والكراسات وأقلام الرصاص والبسط ، وتأكد لى أنهم ضحكوا على السنباطى وسحبوه من بيننا ثم قتلوه لتكون مدرستنا بلا زعيم ، لعل شعاع الشمس أصابنى بمزيد من الوجع رغم الأربطة التى كانت تحيط برأسى فوق المواد المطهرة التى وضعوها فوق الجراح لتكف عن النزيف ، لكن نزيف القلب من أجل السنباطى كان يشعرنى بالوجع أكثر .

كنت فى الأيام التالية أبحث عن الفراغ البعيد الخالى من الناس وأهتف بعزم صوتى ضد الملك والإنجليز والوفد وأحاول أن أقبض على الفراغ موهوما بأننى حصلت على سلاح وتدربت فى الخفاء وتعلمت ضرب النار، لكنه لم يكن هناك غير الدسوقى رضوان الذى أسرّ له برغباتى مستحيلة التحقيق ، ولم يكن هناك أيضا غير أنّات أبى وهو يحاول بكل العسر أن يعدل نفسه فوق الفراش ولا يفلح إلا بمساعدتى ، كنت أنام إلى جواره على نفس الفراش عندما شعرت بالبرد لابداً فى داخلى والعرق يتصبب فوق جبهتى وضباب ملون يحيطنى فى المكان ، وعندما صرت أدقق فيه النظر وجدت وجه " السنباطى " الذى كان مزهوا بنفسه وقد لبس عباءة أنور وجدى فى فيلم أمير الانتقام وكان يدعونى أنا والدسوقى رضوان لكى نتبعه ونهتف وراءه لأنه زعيمنا ، يهتف ونرد وراءه وقد التهبنا بالحماس :

- نريد السلاح لأجل الكفاح .

●●●

بعنا الفرش بعد النحاس والصينى فبان لنا عرى البلاط وزادت رطوبة المكان، ولم يبق هناك غير السرير الصغير نتقاسمه فى رقادنا غصبا، لعلنى كنت ما زلت أشعر بأوجاع الخبطات التى أصابتنى بكعوب البنادق، لكنها كانت على أى الحالات تخفّ ، أحس بذلك ساعة فى إثر ساعة ويوماً فى أعقاب يوم على عكس مواجعه التى كانت تتزايد فى ليل الشتاء المطوط ، كان من الممكن أن أسمع آهاته المبتورة فى الصحو وأصحو على سماع أصوات آهات أشد ، وكان من المألوف أن أسمع دعواته تطلب لنا الرحمة والشفاء ، لكننى فى واحدة من تلك الأمسيات بينما أتقلب سمعت صوته واضحا يحادث نفسه ويرد على نفسه وكأن شخصا آخر يقف ماثلا أمامه كان يخبط كفاً بكف :

- طيب أهو ما عادش ف البيت كله حاجه تنباع ، وبقينا قصادك أهه ع البلاط.

- ح تفرج.

- إزاى ؟ والهم كابس علينا من كل ناحيه.

- كل عقده ولها حلال .

- دا إحنا زى اللى أنقطعنا من شجرة ، وقعنا م العلالى على أرض اتعدمت فيها الرحمة ، حتى لما اشتغلنا كنا شغالين مع شوي خطافين .

- ح تفوت .. أزمه وتفوت .

- دا شلل ، شلل بحق وحقيق وما كانش يخطر ع البال .

- ح تقوم .

على هذا النحو كان يتحدث وكنت أشعر بالرهبة وأتماسك كاتماً

أنفاسى، محصوراً أكثر من كل المراتَ السابقة ولا أتجاسر على القيام لفك حصرى، ولم أكن أعرف إن كنت قد رحت فى النوم أو أنها كانت مجرد إغفاءة قصيرة تنبّهت بعدها إلى أننى كنت محصورا إلى حد لا يطاق ولا بد من قيامى قبل أن ينفلت العيار وأبول على الفراش ، قمت ونزلت ، وكان هو ما يزال غارقا فى النوم أو بدا لى ذلك وشعاع المصباح الشاحب ينعكس على الباب المسكوك بالترباس ، أفتح الترباس وأجذب الباب بشدة فأواجة العتمة ، كان وسط الدار مفتوحا على السماء التى كانت بلا قمر ولا بدر ولا حتى نجم يبعث فتيلا من ضوء فى المكان ، ظلام دامس يُزيد فى قلبى الرهبة ، ولكنه لم يكن هناك مهرب من تحسّس المكان بالأنامل وحركة القدمين المحاذرة وكأنها لضرير بلا عكاز. هل تبدلت أماكن الأشياء أو أننى تهت عن تفاصيل المكان؟ ولم أكن أعرف أى جدار هذا الذى استندت إليه وأنا أتبول ، أسمع الصوت المنفلت بقوة فى أرضية المكان ، ويطول الوقت أو يبدو لى أنه طال أكثر من كل المرات فى كل عمرى ، وأشعر بشىء من الارتياح ، أتحرك مبتعداً ومتراجعاً لكننى لا أتمكن من تحديد مكانى ، وبدا لى أننى درت فى دائرة لم أكن أعرف مركزها على وجه التحديد بهدف الوصول إلى باب الغرفة ، وعندما عجزت فكرت فى القعود مكانى ، كان من الجنون أن أناديه وهو راقد فى الفراش وعاجز بالقطع عن تحريك قدميه حتى لو أراد ، لعلنى بكيت من أجله ومن أجل السنباطى ومن أجل نفسى ، ولعلنى أغفيت برهة قبل أن أشهد الشعاع الذى ينفذ من المصباح وقد زاد وهجه عن المألوف ، قلت لنفسى إن الهواء فتح الباب وشغّل المصباح فزود نوره ، لكننى سمعت صوته واضحا وهو يردّد بإصرار وعناد ويجاوب نفسه:

- مش قلت لك كل عقدة ولها حلال ؟

- قلت ياسيدى .. قلت .

ورأيته واقفاً عند عتبة الباب المفتوح يخطو فيتحرك ظله مثل عباءة سوداء تتحرك فتشملنى وتتخطانى لترسم على الجدار عباءة أمير الانتقام ، كنت عاجزا عن القيام ، وكانت ملامحه تختلط فى بعض الأحيان بملامح السنباطى لكنها تعود كما كانت للأب الذى قام من رقدته العاجزة قيامة المستحيل ، وفى ثبات وثقة وضع كفه على كتفى وأمرنى بحسم :

- قوم .. قوم .. قوم .

وقمت أخطو وراءه على مهل وعلى طرف لسانى سؤال لم أنطق به وأنا أكذّب ما أراه وأحاور نفسى بنفسى وقد تفجّرت كل أجزاء جسمى بالعرق المباغت لأنه برغم كل علامات الشلل قام وتحرك ومن عينيه كانت تطل نظرات الوعد والوعيد والإصرار .

●●●

كان انتحار المتولى فجيعة مغلفة بالغموض لكل المجموعة التى سكنت شقته أو حتى زارتها زيارات ممطوطة يمكن وصفها بالمشاركة المتواصلة التى يمكن اعتبارها مساكنة ، كان العبث والمرح قد انتهى واحتل الكدر والحزن مكانيهما فى قلوبنا ، كانت بنات الليل وبنات النهار اللواتى اعتدن على المكان، تأتى فتصاب الواحدة منهن بالفزع عندما تسمع خبر انتحاره على هذا النحو الصعب ، تبكى أو تصرخ أو تتأسى وتندب عمره الذى أنهاه وهو فى عز شبابه وحيويته ونزاهته ووعيه ، وبعد كل لقاء كانت الواحدة

منهن تودعنا مؤكدة أنها آخر مرة تدخل فيها شقة المرحوم ، ربما تقول واحدة منهن من فرط الانفعال أنها لن تعبر الشارع أو تدخل الحى أبدا ، وربما أيضا تأكد لى فى تلك الأيام مصداقية المتولى عندما كان يقول إن اللائى يصنفهم الجهلاء باعتبارهن هامشا فسدانا على المستوى الأخلاقى زورا وبهتانا لأنهن بالحسابات العادلة ضحايا أبرياء وأوفياء بمشاعرهن الإنسانية المؤكدة وهن مدموغات بتهمة ظالمة بالتحلل بحسب دعاوى هؤلاء الذين يطنطنون بها ممن يُنصبون أنفسهم حراسا للفضيلة وكأنهم وكلاءها المعتمدين بمثل ما هم وكلاء عن أبرياء هذه الدنيا الفاسدة لحمايتهم من دخول نار جهنم لأنهم يسايرون المتغافلين والفاسقين ويرتكبون الخطايا بسبب الجهل ، يقول ثم تجلجل ضحكته كفاصل بين الجدية والسخرية قبل أن يواصل ويؤكد لنا أن عقول هؤلاء تفكر بطريقة تحتانية تتحكم فيهم برغبات مكبوتة وقابلة أن تتفجر عند أول همسة أو لمسة ناعمة ، ويؤكد أن لديه الكثير من الأدلة على فساد بعض الأتقياء ، نشاكسه ونستنكر فيقسم بربه المعبود ، نكذبه فيتهمنا بالتخلف .

أيامها كان المد الثورى على أشده وكانت الشعارات المعلنة أكبر من قدراتى على المشاركة المباشرة بأكثر من التعليق على الأحداث. وذات مساء كنت وحيدا مع المتولى وكنا قد شربنا حتى شعرت أننى بين الحلم واليقظة أو التوهان والإدراك نصف الصاحى لبعض ما كان يدور حولى أو أسمعه ، ليلتها عرض على أن انضم لواحدة من تلك الخلايا الثورية التى تعمل تحت الأرض بهدف حماية مستقبل الوطن فترددت للحظات قبل أن أرفض عرضه ، الغريب أنه لم يستنكر رفضى الذى تصورت أنه سيكون فجيعة له أو خيبة أمل على الأقل بحساباته لكنه صب لى كأسا وهمس :

- إللى زيك كفاية كده عليه الشعر ، بس واصل بجد وما تهمدش لأن مشوار الشعر صعب ونهايته ممكن تبقى أصعب .

ليلتها وبعد أن فرغت الزجاجة كنت وحدى فوق السرير أتذكر كيف أنه بدأ مشواره معى بتكسير بعض الثوابت المدموغة بشيء من الجمود فيبدو لى أننى كنت أتفجر وأتحرر ، لعله راهن على جرأتى برفضى المعلن دونما تردد لكل ما كنت أراه معوقا لأى نشاط إنسانى مفيد لوطن يحمل همه بوعى أكثر منى. وفى الصباح التالى بينما نتناول وجبة الإفطار سألنى عن أسبابى وهو يبتسم بمودة فقلت له دون مواربة إنه كان السبب على نحو غير مباشر لأن حكاياته الأولى معى كانت شكايات بمرارة من زملائه القدامى الذين كتبوا عنه تقارير تسببت فى حبسه أكثر من مرة بحسب رواياته ، وربما دعمت اعتذارى بموافقته على رأيه بحماس بأننى لا أحل بأكثر من مشروع شاعر ولا أفكر فى المزيد أكثر من قدراتي، أوضحت أننى كنت فى الماضى مثل جزيرة معزولة فى فراغ العالم ، مبعدا ومتباعد وراغبا فى التواصل مع الشمس والقمر وكل أركان الكرة الأرضية المسكون كان يستمع إلىّ بتعاطف من يفهم ثم هز رأسه وقال متبسطا :

- إنسى كل إللى قلته لك، طبعا ح تنس وما تجيبش سيرته لحد مهما كان ، خصوصا الولد طلبه ، أصله بيشتغل معاهم

- طبعا ، هو ده كلام يتقال لحد يا متولى ؟

كنت أفكر على نحو خاطف وأرغب فى أن أعرف إن كان الولد طلبه يعمل مع تلك الخلايا الثورية أو يعمل مع أجهزة منوط بها مطاردتهم، لكننى لم أسأل ، ربما لأن الأمر كان محرجا بالنسبة لى . ولعل المتولى فى الأيام التالية تفهمنى أكثر ولم تظهر منه أى بادرة توحى باستياءه منى ، ولعله بعد

تلك الليلة الحرجة كان الوحيد الذى يدافع عنى وسط اتهامات شلة " الغلب " لى بالتردد أو السلبية ، وكان يذكرهم بأننى مشروع شاعر مغفورة له خطاياه ويبرع فى قراءة مواجعى بينى وبينه ويفلح أحيانا فى أن يداوينى أو يستفز عقلى فى أغلب الأحيان لأفكر بجسارة أو أكتب بجرأة أكثر دونما مخاوف أو تردد فيبدو لى أنه شفانى من مرض عضال .

كنا نلتقى على فترات متباعدة بمن كانوا يقومون بتنفيذ عمليات شركته الوهمية القادرة فى نفس الوقت على الإنجاز بأكثر من تلك التى كانت لها مراكز رئيسة وفروع ورؤوس أموال بالملايين كما يؤكد لنا وعلى العكس منه وقد اتخذ عنوان الشقة عنوانا لشركة " المتولى ليمتد لمقاولات الكهرباء والإنشاءات . كان من يأتون إليه يشاركوننا السهر والشرب والتدخين والملابس والحوار أيضا فأشعر أن لى أشقاء من غير أمى وأبى ، أشقاء فى الوطن الذى كنا نحمل همه فى الصحو والمنام وحالات السكر والتوهان الناتج عن الدخان الأزرق ورائحة الحشيش والإفاقة فى الصباح التالى لنعاود نفس الكلام وكأننا لم نشبع من كلام الليل الذى قالوا إنه دائما مدهون بالزبد وإذا طلع عليه النهار «يسيح» أو يتوه من الذاكرة ، يحكى لنا عباس أو البرعى أو مؤنس البرقى بعض نوادر المتولى فتتأكد لنا قدراته على المكسب الحلال من أولاد الحلال والمكسب الحرام من أولاد الحرام بحسب ما كان هو يقول ساخرا كاشفا ملاعيبه التى تتوازى مع ملاعيب أكابر سوق المقاولات ، يدخل المناقصة ويعرض أقل سعر فيحق له أن يحصل على العملية بالفعل ويتسارع إليه المندوبون عن الشركات الأكبر ، يعرضون عليه أن يعتذر أو يتنازل لهم من الباطن ويحصل على عمولة لائقة مقابل تنازله ، حراما يستحله من أكابر يحق له أن ينهب أموالهم على غير وعى منهم

لينفقها صدقة على أمثالنا من المساكين فى جلسات عبث هادفة لتطويل الأعمار المهددة بالفناء من كثرة القهر ، يضيف أنه لن يكف عن الصرف على من يستحقون بأموال من لا يستحقون ، كانت دنيا المتولى مقسومة قسمة عادلة بين أقوياء وضعفاء ، أغنياء بلا مبررات ومعدمين دون جناية ، أوفياء وخونة ، أذكياء وأغبياء ، سادة وعبيد ولصوص صغار يستبيحون حقوق المسلوبين العجزة ، محكومين وحكام ، ظلمة ومظلومين، رجال رجال وحريم حريم ، بنات ليل وبنات نهار ، أبيض وأسود ، أسود وأبيض بلا رماديات ، كان ينفى على مستوى وعيه البشرى وجود اللون الرمادى الخالص ويتهم من يتباعدون ولا يحدون مواقفهم بالخوف الرعديد أو عمى الألوان الاجتماعى المتواطئ لأن البسطاء بحساباته يمكن أن يميزوا لو دققوا النظر حولهم فيكتشفوا أنه لا وجود لإنسان رمادى بغير إرادته ، ويتوصل واثقا من نفسه إلى تصنيف موضوعى لخلق الله لواحدة من الخانتين ، أبيض أو أسود ، أسود أو أبيض ، مظلوم أو ظالم ، قاتل أو مقتول ، رجعى أو تقدمى ، الغريب أنه كان يعلن مثل هذه الأفكار فى وجود أى إنسان مهما كان مستواه الاجتماعى أو الفكرى أو الأخلاقى فى تجمعات ينفق عليها وتبدو لنا غير مناسبة مثل جلسة مستديرة حول زجاجات خمر و " مزة " سخية أو " منقد " نار يتوسط المجموعة تنصب عليه كل العيون بينما تنتقل الجمرات منه لتغطى " المعسل " المرصوص فوق الحجر الذى تتوسطه أو تتناثر على سطحه " تعميرات " الحشيش القادرة على تغييب العقول أو شعللتها وإسكات الألسنة أو انفلاتها لتقول وتبعبع وتستجلب القهقهات والضحكات وتبرع أيضا فى الخلاص من الهم العام ولو لفترة تطول أو تقصر حتى تحدث الإفاقة ويتعرف البنى آدم على نفسه من

أول وجديد ويعرف موقعه من الإعراب .

لكنه أيضا كان يغامر فى المناطق الخطيرة ، يكتب شيكات بلا أرصدة تغطيها ، ويتهرب من السداد على نحو متكرر ثم يسدد من مال مجهول المصدر بالنسبة لنا ، يظهر بعد اختفاء ويطلب منا أن نؤكد لمن يسأل عنه من رجال الأمن أو الضبطية أنه باع الشقة للولد طلبه بموجب تنازل موثق فى الشهر العقارى ، وكان التنازل موجودا بالفعل ودائما فى جيب طلبه ، يتباهى به علينا جميعا فى لحظات التجلى ونسيان ذاته ، لعلها كانت حيلة من المتولى للزوغان من المخاطر التى تترتب على عدم السداد حتى يتيسر له المصدر الذى يغطيه ويحميه ويخرجه من ورطة مالية فى إثر ورطة برغم المكاسب التى كان يحصل عليها والأرقام الفلكية بحساباتنا التى ينفقها ويتحدث عنها وكأنه يتحدث عن مرتب هزيل لموظف متواضع مثلى فى أول السلم الوظيفى ، ولا بد أنه كان يقارن إمكانياته بإمكانيات غيلان المقاولات الكبار فى زماننا فيستدر عطفنا وتضامننا معه لأنه فقير وينتمى للطبقة المظلومة أو " البلوريتاريا " ويرى أن الفارق بيننا وبينه قليل جدا بحساباته.

كان مسكن المتولى وثيابه ومحتويات بيته مشاعا لكل من يلجأ إليه بناء على تصريحاته فكان يحق لنا استخدام أى شيء يخصه ولا نتردد فى استعارة ما يناسبنا من ثيابه أو كتبه المشاع ماعدا ساعات اليد المرصوصة بنظام فى أحد أدراج رف دولابه الكبير والمسكوك بمفتاح يخفيه عنا الولد طلبه أو " سلفه الفلسان " كما كان يسميه المتولى ساخرا ، لكن طلبه كان يفتحه فى غياب المتولى ويسلم الواحد منا ساعة يختارها ليتباهى بها فى لقاء مع محبوبته مثلا ويعيدها قبل عودة المتولى من السويس أو الإسكندرية أو سوهاج أو غيرها من المدن التى تكون له فيها مقاولة تستلزم وجوده فى

بعض الأحيان للتسليم أو التسلم أو متابعة مراحل التنفيذ ، عندما يعود المتولى يأخذ المفتاح من طلبه ويفتح الدرج فى رف الدولاب المفتوح كى يطمئن فقط على ساعاته ، نتضاحك ونعابثه ونسأله عن سر تلك الساعات الكثيرة المحفوظة فيضحك ، نضيف أنه من الممكن مثلا أن يحتفظ بمفتاح الدرج معه فى غيابه ليطمئن أن طلبه لم يؤجر لنا ساعة منها فيهز رأسه بإحساس العارف ويقول مثلا :

- زمان كان فيه عند كل ملك أو إمبراطور حقير وظيفة لحامل أختامه ومفاتيح خزاناته ، وأنا شايف إن الولد طلبه ده ينفع حامل مفاتيح لنفر زى حالاتى ، يسرق أو يبدد أو يسلف أو يأجر لكم ساعة وأنا أعمل نفسى مش عارف ، لعبه يعنى ، والساعات دى غير كل حاجة ف المخروبه دى ، حاسس إن زمانها يخصنى ، صحيح إنه ح يكون زمن قصير ، بس مش عايز حد منكم يحسبه بساعه من ساعاتى ، فاهمين ؟

ولم يكن أى واحد منا بقادر على فهمه ، لعلنا أرجأنا التفكير فى لغز ساعات المتولى أو زمن المتولى القصير الذى عاشه بيننا وخوفه من السماح لنا بحساب عمره الباقى بساعة من ساعاته ، وكان أحيانا يربكنا ويفسد فرحتنا بقميص جديد اشتراه الواحد منا كى يرتديه فى لقاء عاطفى مثلا ، فيصمم أن يأخذه معه فى حقيبة ملابسه وهو مسافر أو يرتديه قبل صاحبه ولو كان أضيق أو أوسع من مقاسه وهو يتضاحك ملء شدقيه ويعلن على عادته :

- ما فيش قميصى وقميصك ولا سريرى وسريرك ولا فلوسى وفلوسك يا غجر منك له ، ربنا خلق الدنيا مشاع بس الناس الغامقة ضحكت ع الناس الفاتحة وحطت الحدود وقالوا لهم دى بتاعتى ومش

بتاعتك ، خوفوهم وقالوا لهم اللى يفكر ياخد منها شبر ح ندفنه فيه ، خافوا وبعدوا واستسلموا لحد النهارده ، بس الدنيا مشاع ، أصلها مشاع، صار فيها غنى وفقير، حاكم ومحكوم، وأنا الحاكم بقى وإنتم المحكومين، حد عنده اعتراض ؟ فاكرين مسرحية دايرة الطباشير إللى شفناها مع بعض ؟ فاكرينها ؟

نسكت ونستسلم فيشعر بغبطة وربما يناول صاحب القميص مبلغا أكبر من ثمنه ويطالبه بأن يهنأ بلقاء المحبوبة ويمثل عليها دور العاشق الولهان ، ويشهد الحاضرات عليه إن كانت فى الشقة بنات ليل أو نهار فيقهقهن ويتمايلن ولا مانع أن ترقص واحدة منهن على دقات المتولى على الطبلة التى كان يحتفظ بها ويعتز بقدرته على ترقيص العابد على إيقاعها ، لكنه كان أحيانا يأخذ ولا يدفع ، يركب دماغه ويتحول لحاكم مستبد غير مستنير .

كانت مكتبة المتولى حافلة بكل ألوان المعارف ، تاريخ وفلسفة وعلم نفس وأدب قديم ومعاصر بلغاته الأصلية أو مترجم عربى وتراث شعوب وتفاسير قرآن وكتب فى الأديان المقارنة وعلوم الإجتماع ونظريات علمية وفابية وماركسية وشيوعية بدائية وأصل أنواع واكتشافات ومراجع لكل محاولات البحث عن صيغ حكم ؛ بداية من الملوك الفراعنة والأباطرة ، الطاغية والمستبد، المستنير والحاكم الهمجى والعملاء والخونة ومن كانوا يحكمون بنظرية التفويض الإلهى ، دنيا براح غويطة بين صفحات الكتب تسمح لكل من يبحث عن المعرفة بإضافة جديدة ، الغريب أن الكتب كانت تسرح على هواها دون اعتراض منه ولا سؤال عمن استعار وأعاد ما أخذه ومن سلب ولم يفكر فى إعادة ما كان يعتبره بحسب تصريحات المتولى مشاعا مسموحا لشلة " الغلب " بالذات .

كان انتحار المتولى قتلا لكل الأحلام ويترا لكل مشاريع الحوار معه من منطقة الاعتراض الكامل أو النسبى أو الموافقة والتطابق فى الهواجس والأفكار ، ولعله ترك فى حياتنا فراغا لا يحتمل أو تركة ديونها أكثر من أصولها ، المفجع الحقيقى كان التوقيت الذى اختاره المتولى لأنه انتحر فى مساء الرابع من يونيو ١٩٦٧ على وجه التحديد وكأنما فر بجلده وخلايا مخه من مواجهة الهزيمة التى أصابتنا بالفجيعة والانكسار والعجز عن الفهم أو الخلاص ، لعلنا كنا نحتاجه بيننا صاحيا يفكر ويفسر ويرد أو حتى يساعدنا على الفرار بالعبث إن كانت سكة العبث تصلح للفرار من مأزق تاريخى لم يكن فى الحسبان ، هل كنا نبكيه بمرارة أو نبكى وطننا المهزوم ومصيرنا التعس ومستقبلنا الكالح إلى أمد غير محسوب ؟ وهل كانت اعتراضاته وسخرياته من كل ما كان يحيطنا إشارات ورسائل مغلفة انكتب علينا أن نفض أغلفتها لنكتشف البشاعة ونرى بلدنا وهى مهدرة مستباحة ؟ وكيف احتملنا أن نرى زعيمه الذى كان يعشقه رغم أن أمر عتقاله ومكابداته فى الحبس حدث فى زمن الزعيم الذى انكسر وتنحى عن حكم البلد على الملأ ، صحيح أن البسطاء استمسكوا بما تبقى من زعيمهم وطلعوا فى مظاهرات يطالبونه بأن يبقى فى نفس مكانه ، لكننا وقد كنا فى نفس الخندق لم نستطع أن نعيد المتولى ليشاركنا الوجع أو يرسم لنا سكة خلاص حتى ولو كان خلاصا وهميا يقيلنا من دوامات التيه ويرمينا على أى شط لنتنفس ونتحسس مكاننا بين كتل المقتولين المظلومين الأسرى، فهل راودتنى فى تلك الأيام فكرة الانتحار لأتخلص من المواجع ؟ ربما اخترت التأجيل لأشاهد بقية فصول المسرحية المعتمة أو أن مشاعرى تبلدت بوحى من روحه ولم أفعل ، وربما جبنت عن الارتطام بأرض لم تعد تخصنى تماما

بمعنى من المعانى ، ذلك أن المتولى انتحر على أرض مصرية تماما وتناثرت خلايا مخه فى محيط برج القاهرة بكل ما كان يمثله لجيلنا من دلالات بينما لو مت فسوف أموت فى جنازة شهداء أولى منى بالتشييع والوداع وجزء من أرض البلد مسكون بدبابات الأعداء. ويوما فى إثر يوم كان الوافدون والوافدات إلى شقة المتولى يتناقصون ولم يبق غيرى أنا والخضرى وطلبه ، وما كان مخزونا من زجاجات المنكر كان يتناقص بفعل فاعل أو أكثر ومن داخلى كنت أستنكر فكرة الشرب فى أيام الغم بأكثر مما كنت أرفضها قبل زمن المتولى القصير الذى بدلنى دون أن أشعر وببطء مدروس لأتحول إلى شخص منفلت العيار بين مجموعة من المنفلتين الباحثين عن مهرب أو بهجة أو شيء من الجسارة للتعبير عن المخزون داخل الداخل وقد واجهتنا انكسارة وطن غير محسوب حسابها فدمرت كل ما كان يحوم فى أدمغتنا من أحلام ، ولا أدرى كيف انزاحت أو سقطت عنى كل براقع الحياء الموروثة والمكتسبة بعد قليل من التردد ، لعلها كانت رغبة كامنة أو شر ساكن فى الخلايا باعتبار أن الإنسان يمكن أن يتغير للأفضل أو الأسوأ بحسب ما كان المتولى يقول قبل أن يدعونا لمغامرة جديدة لم تخطر ببالنا أبدا ، ولا أحد يدرى من أين كان يستمد تلك الجسارة اللا متناهية ، لكنه كان يردد لنا نفس العبارة :

- ما هو يا بنى آدم منك له يا تعيشوا يا تموتوا ، جربوا ، جربوا ، وبعدين كل واحد يختار اللى يناسبه ، أنا بالنسبه لكم فرصه .

الغريب أننا كنا نوافقه ونبرر لأنفسنا بشكل جماعى أو كل واحد على حدة بينه وبين نفسه أن التجربة بالفعل ضرورية لكل من قرأ أو حاول أن

يقرأ ويفهم ويتعلم من الدنيا أى شيء ، كانت الخطوط الحمراء قد توارت أو تخفّت بعد رحيله لأن الهم العام كان أخطر وأبشع من فقدان صديق نادر لا يعوض مثل المتولى .

●●●

فتحت الشقة بمفتاحى فرأيت طلبه العتمان جالسا فى ركن الصالة وقد أحنى رأسه وسكن تماما ناظرا إلى الأرضية وكأنه فى عزاء داخل «مندرة» وقد فقد عزيزا لديه ، لكنه لم يكن وحيدا ، كان إلى جواره وجه جديد لم ألتق به قبلا وفى الركن البعيد كان الخضرى جالسا فى عزلته باختياره وكأنه لا يوافق على وجود نفسه فى المكان ، تنحنح الرجل الذى بدا لى كاتبا لمحام أو محضر محكمة لا يزيد بينما يقول بصوت من عثر على ضالته :

أهو وصل يا سيدى إللى إنت مستنيه .

زفر طلبه ورفع رأسه ببطء ثم تردد قبل أن يتكلم بخجل غير مألوف منه بالنسبة لنا جميعا فى السابق :

- ح أقول إيه بس يا سيد ؟ الراجل ده يبقى خال المرحوم وجاى يستلم الشقه ، حقه بقى وهو وعياله أولى بيها ، أنا سلمته الأمانات إللى كانت عندى ف درج الدولاب ، الساعات يعنى ، وكان معاها ميت جنيه كمان خدهم .

وقال الخضرى كاشفا ومفسرا بشكل أكثر وضوحا :

- بالعربى كده مطلوب ناخد هدومنا وكل إللى يخصنا ونخرج الليلة ، حتى مش بكره الصبح ، ح نعمل إيه يا سيد ؟

لم يكن لدى أى رد أنطق به ، وفى صمت توجهت إلى الحجرة التى كنت أنام فيها ولملمت ملابسى الخاصة وكتبى وحشوت الحقيبتين حشوا قاسيا لا يسمح بأن أحكم إغلاقهما ، وكأن الخضرى كان ينتظرنى لأنه استمهلنى بإشارة منه وتوجه إلى الحجرة الأخرى ثم خرج إلينا حاملا حقيبة. لا بد أنه كان قد حشاها وأحكم إغلاقها على كل ما كان يملكه ، وضعها أمام طلبه ثم فتحها بعصبية وهو ينظر ناحيتى وكأنه يطالبنى بأن أفعل مثله تماما ، كان يغمغم بحزن جريح ويتماسك بعسر :

- بص يا طلبه كويس ، الحاجات دى بتاعتى ، لو فيه حاجه تخص المرحوم طلعها ، خاله أولى بيها زى ما بتقول

شعرت بالإهانة لا أدرى لماذا ، لكننى لم أكن فى حاجة لفتح الحقيبتين المفتوحتين فاكتفيت بوضعهما بجوار حقيبة الخضرى ، كان طلبه يتظاهر بأنه لا يفحص أى شيء وإن كانت عيناه تجولان فى محتويات مفروشة أمامه ، وكان يهز رأسه نفيا أن يكون طرفا فى هذا الموضوع بينما الرجل الذى يجلس إلى جواره يبدو ممثلا فاشلا وشبه صامت تقريبا ، يستلهم وجه طلبه وكأنه يطلب منه السماح له بالكلام أو السكوت ، لكن الموقف انتهى وخرجنا أنا والخضرى تشيعنا النظرات ، وكان المقهى الذى يسهر حتى صباح اليوم التالى هو ملجأنا فى تلك الليلة بعد فشلنا فى العثور على سريرين فى لوكاندة الطاهرة ، ولم يكن لدينا استعداد لمواصلة البحث فقررنا أن نبيت جلوسا على مقاعدنا حتى يطلع علينا صباح جديد .

●●●

سلمت الحقيبتين الكبيرتين والمزحومتين بالثياب والكتب لعم على ، لم

يسألنى عن محتوياتهما واكتفى بحملهما ووضعهما فى دولاب مسكوك فى حجرة المدير العام ، لم أكن أعرف أنه خال تماما من داخله رغم الاهتمام المتواصل بدهانه وتنظيفه مثل كل محتويات الحجرة البراح ، كنت قد وصلت للإدارة قبل الجميع خلافا لعادتى. فسأل مستطلعا وهو يدس الحقيبتين ويربت عليهما :

- خير ، كنت ف البلد ولا إيه يا أستاذ سيد ؟
- إيه يا عم على .... ما تجيب لنا إتنين شاى م البوفيه
- تحت أمرك .

قالها وهو يفسح لى مدخل الباب لأخرج فتوجهت لمكتبى وجلست ، استندت عليه بدماغى وربما أكون قد غفلت زمنا ليس بالقليل لكننى أفقت على أصوات زاعقة بين الشيخ عبد الله وعم على عرفت منها أن الشيخ عبد الله طلب لنفسه شايا بالحليب فتجاهل الأمر وعاد بعد غياب متظاهرا بالنسيان ، تنبهت لأسمع صوتيهما المجلجلين وعم على يذكره بأنه ساعى مسئول عن مكتب الأستاذ المدير العام وحده وليس عامل بوفيه ، كانت عينا الشيخ عبد الله مصبوبة على كوب الشاى المحطوط فوق مكتبى والمغطى بطبق صغير ، وكان الكوب باردا عندما تحسسته فتناوله عم على من يدى وهمس :

- ح أغيره لك يا أستاذ ، دا برد خالص .
- وتجيب لى شاى بالحليب أنا كمان .

قالها الشيخ عبد الله آمرا ومستغلا كونه ذاهب للبوفيه لتغيير كوب شاى بارد ، لكن عم على نظر إليه وقال مستفزا له :

- روح اشتكينى للمدير العام ، ومش ح أجيب لك شاى يا شيخ عبد

الله ، مش فيه مدير عام ؟ روح قول له .

كتم الشيخ عبد الله غيظه وجلس مكرها ثم شرع يزوم ويتمتم بكلام غير مسموع فهمت منه بعسر أنه يستجلب اللعنات على كل من يميز بين ناس وناس ولا يراعى الله فى عمله ومعاملة خلقه بالعدل فيصبح عاصيا يستحق أن يكون مثواه جهنم ويئس القرار ، كنت مرتبكا وراغبا فى تحديد مصيرى وعلى غير استعداد لسماع المزيد من الصخب ، خرجت من الحجرة وطلبت إذنا من الأستاذ شلتوت فلم يمانع على غير عادته ، قلت لنفسى إنه مبسوط من نفسه ومن الدنيا بأسرها فى هذا الصباح وتمنيت له دوام الانبساط ، فكرت فى الذهاب إلى الجامعة لأتعرف على أخبار النتائج من غير حماس ، ركبت ونزلت عند بابها فسمعت صوت كلاكس فالتفتت لأرى سيارة الأستاذ ياسين الفولكس وهو يلوح لى بيده لأدخل من بابها الذى فتحه ، جلست جواره وسألته على استحياء وبقلق :

- هى النتيجه ظهرت يا أستاذ ياسين ؟ .
- لسه يا أستاذ سيد قدامها أسبوعين ع الأقل ، على فين ؟
- مش عارف .
- أنا نازل الحلميه الجديده ، يعنى زين العابدين ف سكتى .
- أى حاجه ، أى حته .

لا بد أنه استشف من ردى عليه ارتباكى وحيرتى لكنه لم يواصل الأسئلة ، كان الأستاذ ياسين زميل دراسة فى الجامعة على امتداد السنوات الأربع الفائتة إلى جانب أنه مدرس رياضيات يسكن الحلمية الجديدة فكان يتطوع أحيانا بتوصيلى لشارع زين العابدين وربما لم يعرف أننى سكنت شارع خيرت مع المتولى ، كانت هناك دائما أسباب تجعلنا

نتقابل ونتعامل فى حدود الاحترام المتبادل ، فهو أستاذ بوقاره وأنا أستاذ من غير سعى ، لعله كان يمنحنى لقب الأستاذ ليفرض علىّ أن أقف عند حدودى فى التعامل معه، ربما كان يتخوف من جرأتى على التعامل مع بقية الزملاء والنداء على أى واحد باسمه المجرد ، لكنه كان وقورا ومزهوا بنفسه إلى حد أنه يرفض الرد على أى واحد يوجه إليه الكلام باسمه غير المسبوق بلقب أستاذ رغم أنهم زملاء دراسة بغض النظر عن فروق الأعمار والوظائف ، لعلنى دون حوار منطوق كنت لا أعترض على احترامه لنفسه ولغيره ، سمعته يسألنى :

- دا إنت رحت بعيد قوى يا أستاذ سيد ، متغير كده ليه ؟

- لأ .. مفيش ، عادى .

- ح تنزل فين ؟ ميدان السيده كويس ؟

- كويس .

- ولا إيه رأيك نركن وننزل نتغدى ؟ أصل المدام مسافرة من يومين وحاسس إنى وحيد ومهزوم م إللى جرى لنا .

آه م إللى جرى لنا يا أستاذ ياسين . ننزل .

ونزلنا ، رأيته يتوجه ناحية دكان الحاج زايد الكبابجى فتفجر إحساسى بالجوع وتذكرت أننى لم أتناول طعام الإفطار ولا حتى عشاء الليلة الفائتة ، كان المكان خاليا تقريبا من الرواد، ربما لأننا لم نكن فى توقيت غداء أو عشاء ، حدثنى بمرارة عن تداعيات الهزيمة والانكسار غير المتوقع عند تلميذات المدرسة الإعدادية التى يعمل بها ، قال إنه يعجز تماما عن رد الأسئلة الجريحة على ألسنة البنات، فاستعدت الوجع العام بكل ضراوته

ومرارته ورأيت وجه المتولى قبالتى يضحك لأنه هرب من مواجهة موقف صعب مستحيل الاحتمال ، وبدا لى أيضا أننى سمعت صوته ينصحنى بأن أتخلص من مكابداتى لأننا لم نشارك فى قرار بدخول معركة شرسة ونحن فى حالة غفلة فاختلط على الأمر تماما وتداخلت تقاطيع الأستاذ ياسين ووجه المتولى وأوشك الصوتان أن يتحولا لصوت واحد ممزوج ومشترك، سمعته يسألنى :

- إيه يا أستاذ سيد ؟ بتبص لى كده ليه ؟ مس سمعنى ؟
- سامع طبعا ، بس ، أصل مش قادر أتكلم ، ح أقول إيه ؟
- على رأيك ، الواحد مهما قال إيه الفايده ؟

طرح سؤاله الذى لا جواب له ثم حدثنى عن أحوالى الخاصة ، كانت مواجعى مخزونة تبحث لها عن مخرج لأتخفف منها ولو بالبوح ، ولا بد أنه أفلح فى جرجرتى إلى سكة الكلام لأحكى له عن المتولى ونهايته الدامية وكيف أنه عرض على مشاركته فى مسكنه منذ ثلاثة أشهر على وجه التقريب فتركت مسكنى بشارع زين العابدين بمحتوياته للزميل الذى كان يشاركنى فيه ، قلت له ما جرى مساء الأمس من طلبه العتمان والرجل الذى قال إنه خال المتولى وكيف وجدت نفسى وحيدا فى مأزق بعد أن حمل الخضرى حقيبته وذهب إلى أهله فى السويس . ابتسم الأستاذ يا سين مهونا علىّ الأمر ثم هرش دماغه وكأنه يستحضر فى ذاكرته حلا ليخرجنى من المأزق العارض ، ربت على ظهر يدى اليمنى برقه وقال :

- بس .. لقيتها .
- هى إيه يا أستاذ ياسين ؟

مشكلتك ح تتحل ، عندى حل صعب وحل سهل ، السهل هو إنك تسكن فى شقة فاضيه بس آخر دور فى مساكن الحلميه جنبى ، فيها شوية كراكيب قديمه بس آهى تسد على ما تتصرف وتشترى عفش ، بس تدفع قسط التمليك .

والحل الصعب يا أستاذ ؟

عندى بيت مشطبه فى المطرية ، دور واحد صغير ، أوضتين وصاله بس فاضى ع البلاط ، لو تحب نروح دلوقت وأسلمك مفاتيحه ... من غير إى التزامات خالص ، قلت إيه ؟

- معقول الكلام ده يا أستاذ ياسين ؟ معقول ؟

- وهو كان معقول تسيب سكنك باللى كان فيه وتشيل هدومك وكتبك وتروح تعيش مع واحد بالأخلاق دى ؟

لم أعلق على ما قاله بخصوص المتولى ، لكنه أعفانى من عبء اللجوء للسمسار الضرير الذى كنت أتعامل معه ليبحث لى عن المسكن الجديد وقت الحاجة ، الغريب أنه كان يفلح فى كل مرة مستعينا بثقة أصحاب البيوت فيه وخفة ظله مع الناس مستعينا بعكازه وصبى من عياله يقوده للمكان المقصود ، أبعدت صورة السمسار الضرير من دماغى وتأملت التقاطيع المتلهفة على معرفة قرارى أو اختيارى ووجدت الحل السهل أنسب فاستأذنت وجه السمسار الضرير وهربت من الحل الصعب الذى كان من الممكن أن يحرمنى من الحى الذى تعايشت معه وناس عرفتهم وأراحتنى معاشرتهم ، ليلتها كتبت مع خالة صاحبى عقدا يلزمنى بينى وبينها بأن أسدد أقساط التمليك أو أترك المكان فى حالة التخلف عن السداد ، كان

العقد مكتوبا بخط زميلى وشهادته وبدا لى أن السيدة شعرت بنوع من الارتياح لأنها ساهمت فى حل مشكلة صديق لابن شقيقتها الأستاذ :

- عشان خاطر عيون الأستاذ يا ابنى ، أصلها فوق خالص ومش بقدر أطلع ، وأهى تعمر بحسك وتشيل عنى هم الأقساط .

وكان على أن أحمل الحقيبتين بمساعدة عم على واضعهما فى تاكسى يتوجه لمساكن الحلمية وأصعد بهما وحدى لآخر دور دون التفكير فى الإستعانة بعابر سبيل أو التفكير حتى فى البحث عمن يشاركنى مشوار الطلوع الصعب على مراحل .

فى بداية دخولى للمكان كنت أتنفس براحة والتقط أنفاسى وقد فتحت كل النوافذ ثم شعرت باختناق واكتشفت قذارة المكان وأنه يحتاج لمن ينظفه ويزيل الأتربة المتراكمة بكل أركانه وفوق كل قطع الأثاث القديم المكدسة فوق بعضها دون ترتيب أو نظام ، لكننى حاولت أن أنظف حيزا آوى إليه حتى يطلع الصباح وأبحث عمن يتولى تأدية هذه المهمة الصعبة بأى ثمن ، الغريب أننى كنت بمرور الأيام أشعر بغربة فى المكان على نحو غامض وأشعر أنه لا يخصنى بأى شكل ، ومكرها أحاول التآلف معه ولا أستطيع ، كنت عند دخولى أو خروجى من باب العمارة أشعر أننى مندس فى مكان لا أملكه ، وربما كان ذلك بسبب أن أحدهم سألنى مرة إن كنت قريبا للحاجة فردوس فنفيت صادقا معه أنها قريبتى ، وربما كانت إجابتى سببا فى تلك العزلة التى شعرت بها على العكس من الألفة التى كنت أنعم بها فى شقتى التى تركتها فى زين العابدين ، كان جيرانى القدامى يعرضون على

خدماتهم ومساعداتهم دون غرض غير التآلف مع الغريب الساكن فى نفس الشارع ، قلت إن المساكن الشعبية تلملم أشتاتا متباينة تحتاج إلى وقت غير محدد حتى يتم التواصل والامتزاج ، قلت أعتمد على نفسى فى كل شىء ، آكل قبل صعودى أو أشترى مخزونا يكفينى أياما أو حتى أطبخ ما تيسر ، أغسل الثياب وأنشرها على الحبل الممدود وسط الصالة فيبدو لى أنها لا تجف بالسرعة المطلوبة ، وقررت عمل منشر فى الشرفة فاشتريت لفافة من حبال التيل الأبيض وقطعتين من الحديد كان من اللازم أن أثبتهما أولا فى الحافتين من الشرفة التى بدت لى عالية أكثر مما كنت أتصور ، أحاول التثبيت فأشعر بالدوار ويتوه عقلى ، أضبط نفسى وقد أوشك بدنى على السقوط ويبدو لى أننى كنت أرفع ساقى اليمنى إلى ما فوق سور الشرفة دونما قصد ولا تردد ، ليس من أجل مساعدة نفسى على تثبيت المنشر وإنما لإسقاط بدنى بقصد مخفى يتستر وراء محاولة عمل منشر للغسيل ، أتراجع وأراجع نفسى ثم أعود مرة أخرى قائلا إن المسألة كلها هواجس فى هواجس ، لكننى ضبطت نفسى وأنا أعاود رفع ساقى بالفعل وكأننى أتمنى بينى وبين نفسى أن أتخلص من حياتى وقد خلت من كل التسهيلات واحتشدت منذ بدايات عمرى بالمصاعب ، أتراجع ثم أرجع ثم أتراجع وأجلس مكانى ، حزينا على وحدتى القاتلة قائلا إنه نصيب أغبر ذلك الذى ظل يحاصرنى ويواصل حصارى ، لعلنى بكيت ثم ضحكت على نفسى بحسرة بعد تثبيت الحديدتين وأنا أتصبب عرقا ، وكان هناك حبل الغسيل أيضا الذى يحتاج إلى ربط متواز ومتتابع ليتيح لى فى المستقبل الاطمئنان إلى إمكانية نشر كل ملابسى المغسولة فى ظهيرة أى يوم جمعة

مثلا ، لكننى خفت تماما من الفكرة ، قلت لنفسى إن جدار الشرفة سوف يسقط بى وأموت على غير توقع أو على الأقل بدون ترتيب منى أو ربما رغبة فى الموت على هذا النحو ، كأننى كنت أرمى التهمة على نصف الجدار وأتهمه بعدم الصلابة وكأنه فخ منصوب للتخلص من وجودى نفسه فألقيت بلفافة الحبال بعيدا عنى وتراجعت إلى الخلف لأتمدد وأرتاح .

تذكرت وأنا راقد فوق الفراش العتيق كيف كنت أطلع لصاحبى عبد الحميد فى الدور الثالث عشر من مبنى المجمع حيث كان يعمل مأمورا للضرائب ويسكن بالقرب منى ، يبادلنى مع الكتب الحوار فى كل ما كان يدور حولنا ونستشعره خطرا آتيا قبل أن يحدث بالفعل ، كنت آخذه من مكتبه ونتجول سويا فى المساحات الممدودة لنتكلم بحرية أكثر ، وكنا فى بعض الأحيان نقف بجوار السور الدائرى الكبير المطل على أرضية المبنى ، أنظر إلى أسفل من خلال تلك الدائرة المسورة الكبيرة أو واحدة من الدائرتين الأصغر فأشعر بالدوار ، كان عبد الحميد يجذبنى فى كثير من المرات بعيدا عن السور بشدة وبكل قوته وأكثر من قوته :

- حاسب ، ح تقع ، بتبص لتحت قوى كده ليه ؟

- ما أعرفش ، هو أنا كنت ح أقع ؟

- إنت زى إللى كنت ح ترمى نفسك ، ما تقفش لوحدك فى أى مكان عالى وتبص لتحت ، أوعاك .

- عندك حق .

أقولها صادقا ومصدقا لفكرته عنى ، أنسحب إلى الوراء واثقا أن مثل هذه الدوائر الغويطة تتساوى مع فوهات موت سحرى من عمل شيطان فاسق يستلب من أمثالى رغباتهم فى الاستمرار أحياء ، يأخذنى إلى مكتبه

ويطلب لى شايا أو قهوة ويحدثنى عن أى شيء ليجعلنى أنسى فأنسى ، وبينى وبين نفسى بينما كنت أنزل درجات السلم إلى الدور الثالث من مبنى مجمع التحرير أقرر عدم النظر مرة أخرى من خلال ذلك السور الأكثر ارتفاعا وتحته دائرة مبلطة عمقها ثلاثة عشر طابقا ، أتذكر كل ذلك وأطالب نفسى بالوفاء بالوعد الذى قطعته على نفسى بأن أحافظ على حياتى وأنسى حكاية المتولى ، أتذكر أننى أقدر أحيانا على كتابة الكلام الموزون الذى يسمونه شعرا ، وأننى نشرت عدة قصائد مبشرة حسبما قال كل من قرأها فيتأكد لى أننى مشروع شاعر يستحق البقاء .

ذات ظهيرة وبينما أتوجه لباب الخروج الرئيسى رأيت بنت الليل صباح وبنت النهار سوسن قبالتى تماما ، كانتا تبتسمان لى بمودة، فابتسمت وسرت فى طريقى لكن سوسن مست كتفى بكفها وسألتنى معاتبة :

- هو ما كانش عيش وملح ؟
- طبعا كان عيش وملح ، بس .
- بس إيه بقى ؟ تكونش مكسوف تكلمنا ؟
- مكسوف ؟
- يمكن يا بت مستعر مننا ولا شكلنا زى المشبوهين .

نفيت كل تلك التداعيات التى تولدت عن ربكة أصابتنى أو ذكريات طافت بخيالى بؤرتها شارع خيرت ، وكنا نتكلم بينما نسير فى نفس الاتجاه ، يتضاحكن فأبتسم وأستعيد زمنا قضيناه سويا فى شقة المتولى وكيف أنه هو الذى وصف صباح بأنها بنت ليل ووصف سوسن بأنها بنت نهار دون أن يوضح لنا مقصده من تلك التصنيفات العشوائية ، كان واضحا أنهما

جاهزتان لمشاكستى ، ولا بد أننى أيضا لم أمانع أو أستأذن منهما متعللا بأى عذر يمكن أن أستدعيه وأدّعيه لأخلص نفسى ، كنت بالقطع متواطئا معهما ، مررنا من ميدان لاظوغلى وتحاشينا دون كلام منطوق الدخول فى شارع خيرت وسرنا فى امتداد نفس الشارع حتى عبرنا شارع بورسعيد ، كان واضحا أنهما قررتا ملازمتى مثلما قررت استقبالهما فى المسكن الجديد دونما أى اتفاق منطوق وقد ذكرت لهما عنوانه ردا على سؤال مستطلع من صباح بنت الليل ، صعدنا درجات السلم بجسارة كنا قد اعتدناها فى السابق ودونما حذر أو حسابات لأى نظرات كانت تستطلع أو تتابع ، وكل ما كان يدور بيننا على درجات السلم هو الكلام عن علو المسكن الذى يقطع الأنفاس ، هل شعرت وأنا داخل الشقة بالألفة مع المكان الذى لم يتبدل فيه شيء ؟ نفس النوافذ والأبواب والمحتويات المتراكمة التى علاها الرماد ، لكن النفس البشرى الوحيد تحول إلى ثلاثة أنفاس أوشكت أن أسمع أصواتها بعد زمن سخيف من العزلة والوحدة القاسية ، لم يكن يدور فى خيالى أى شيء أكثر من تدبير وجبة غداء لثلاثتنا ، وقبل أن أفكر فى مخزون يصلح لذلك قالت سوسن بنت النهار وهى تنظر لصباح بنت الليل :

- مش وصلتنا ؟ لو سمحت انزل هات لنا غدا ، مستنى إيه ؟
- ياريت كباب وكفته ، إحنا ميتين م الجوع .

أضافت صباح بنت الليل فرفعت الكتفين استسلاما لأن صعود السلم عبء لا يستهان به ولا فرار منه ، كان المشوار مألوفا والجو منعشا والجيب عامرا ببقايا مكافأة عن قصيدة كنت قد نشرتها فى صحيفة يومية ، وكنت أهم من ذلك كله قد عرفت خبر نجاحى بتفوق بحسب ما بشرنى الأستاذ

ياسين بالهاتف قبل نزولى من مكتبى بنصف ساعة ، كانت فى القلب فرحة كامنة تفجرت على استحياء وأوشكت أن تنسينى بعض الهم العام . وفى الميدان قابلنى طلبه العتمان وأخذنى فى أحضانه مهنئا لى بالنجاح : وبينى وبينك درجتين ونص بس ، رايح على فين ؟

- مبروك عليك النجاح ، أخبارك إيه ؟ وعايش فين ؟

- ف الدنيا الواسعة ، يوم هنا ويوم هناك ، بس خلاص ح تفرج يا أبوالسيد وعمرك ما ح تقول عنى سلفه الفلسان تانى .

فكرت أن أتخلص منه بأى حيلة لكننى لم أفلح ، شعرت أنه يحاصرنى ويتبع خطواتى فتوجهت لأول مقهى صادفنى وطلبت لطلبه شايا ولنفسى قهوة ، هرش دماغه قبل أن يطلب منى جنيها ليشترى سجائر فناولته الجنيه المطلوب ، قام وحصل على علبة السجائر فى لمح البصر وجلس يدخن ويشرب الشاى بتلذذ ثم سألنى إن كنت قد رجعت لمسكنى الذى شاركنى فيه أياما والكائن فى زين العابدين ؟ فذكرته بأنه أول من يعرف كيف تركت الحجرة بكل محتوياتها لجارى ليضمها لحجرته ويتمكن من الزواج فى الشقة ، وكأننى يومها أزحت برحيلى عقبة بين عاشقين ، ولم أفكر حتى فى التأكد من أن مشروع الزواج بينهما قد اكتمل أو أن التجهيزات ما زالت تجرى حتى الآن ، جلجلت ضحكة طلبه فشعرت بخجل مباغت ثم تشككت أنه يرانى، برغم مفاسدى المكتسبة فى زمن المتولى، ما أزال فلاحا لم تبدله أضواء المدينة كما كان المتولى يقول عنى مداعبا ، كان المتولى يحوم بروحه فى المكان ، يحذرنى من ملاعيب طلبه أو يوسوس له كى يحاول معرفة أخبارى بالتفاصيل ، ولا بد أن دفاعاتى تهاوت واعترفت له بما كان وما

صارت إليه أحوالى بعد تلك الليلة البغيضة ، كنت أظن أنه سوف يشعر بنوع من الندم أو الخجل لأنه ساهم فى طردنا طردا من مكان لم يكن يخصه وفى وقت حرج ، لكنه لم يفعل ، لعن الخضرى ووصفه بسوء الظن وبأنه كان يستحق ما جرى له وأنه لولا وجود الخضرى ما فعل أو سمح للرجل الغريب أن يحدث ما فعلاه معى فى تلك الليلة ، طالبنى بمسامحته ونسيان ما فات فأكدت له أننى بالفعل نسيت وسامحت .

●●●

كنت أحمل اللفافة الكبيرة وطلبه يحمل حقيبة بلاستيك فيها الخبز والمخلل والفواكه التى اشتريتها لتكون أكلة لائقة بنجاح وتفوق ، كانت سوسن بنت النهار التى فتحت الباب تربط رأسها بإيشارب معفر بالأتربة وتلبس بيجاما تخصنى وفى البعيد كنت أرى صباح وهى محنية ومسنودة على ركبتيها تمسح الأرضية ، كان المكان قد تبدل تماما إلى حد أننى لولا وجود البنتين لتصورت أننى دخلت شقة غير تلك التى تركتها خربة ، وسألتهما أين كانت المفروشات والسرير والتسريحة ذات المرآة والمواعين المرصوصة فى ركن المطبخ والمطبقية المزحومة بكل تلك الأطباق فتضاحكتا حاسبتين أننى أداعبهن أو أستهبل :

- ودافن بوتاجاز وأنبوبة فى كوم عفش مرمى ومكسل تفرش الشقة أو تجيب حد يفرشها لك ؟

قالت سوسن ومصمصت صباح شفتيها وهو ترمق طلبه بعين ونصف وكأنها تتوقع وصوله إلى المكان بينما تتناول منه ما كان يحمله بين يديه ، كانت أكلة دسمة وشهية وكان الفراش هناك فى الحجرة قبالتى يغرينى

بالتفكير بعد تناول الوجبة لأتمدد وأشعر براحة واسترخاء ، لكن الوقت كان ممدودا وسخيا ولم يكن أينا متعجلا لعمل أى مداعبات أو مشاكسات فجة مثلما كنا نفعل معهن عند المتولى ، لكنه استأذن وأوصاهما بحسن معاملتى، تركنى لأرقد بين بنت الليل وبنت النهار حتى صباح اليوم التالى.

تبدل المكان تماما وصرت أتعايش فيه على راحتى وقد اعتدت الزيارات المتكررة من بنات ليل وبنات نهار على فترات متتابعة دون مواعيد مسبقة ، كان طلبه - يأتى بوافدة جديدة أو يأتى مع ضيف يعرفه بى ويعرفنى عليه ، ويوما فى إثر يوم تحولت الشقة بعد عامين تقريبا إلى ملجأ متاح ومستباح مثل شقة المتولى ، كانت بنات الليل وبنات النهار - حسب تأكيدات طلبه تأتى بحثا عن الراحة بعد السهر الغصب وحيدة أو بصحبة صاحبتها، أفتح الباب فأراهما باسمتين فأفسح لهما ، هل كنت أبخل على الضحايا براحة البدن أو الشعور بالمودة المتبادلة دون مطامع أو تفكير فى عبث إلا إذا جاء عرضا وبرغبتين متبادلتين ؟ لكن طلبه حول المكان لملجأ جديد لشلة " الغلب" التى أسسها المتولى وتحولنا إلى جماعة شباب فاسد فى رأى من كانوا يترصدون حركاتنا من السكان أو الغرباء العابرين عرضا أو بغرض الاستطلاع على قلة أدب جيلنا الجديد . تباعد عنا من كان يحترم نفسه ، وبدا لى أن المكان تحول ببطء إلى مسكن مفتوح ومألوف لغيرى ولا يخلو من الجنس اللطيف إلا نادرا ، ولعلنى تصورت بحمق أننى تحولت لمصلح اجتماعى أو صاحب ملجأ ليتامى المدينة من بنات الليل وبنات النهار الباحثات عن مأوى أو ساعة صفاء بلا غرض أو ثمن غير الشعور بأنها فى

نهاية الأمر إنسانة تحس وتجد من هو على استعداد لاستقبالها دون غرض خبيث ، لكننى اكتشفت الخدعة الكبرى عندما زارنى الأستاذ يا سين وطلب منى أن أنزل معه ، وفى مكان خلوى خارج حدود المدينة قال لى إن الشقة بريئة النوايا بحساباتى تحولت لبؤرة تراقبها مباحث أمن الدولة وشرطة الآداب والبوليس السياسى ومكافحة المخدرات وكافة أجهزة أمن الوطن ، وأكد لى أن هذه المعلومات وصلته من قريب له يعمل فى جهاز أمن خطير وأنه طالبه بمطالبتى بإخلاء المكان الذى تحول إلى تجمع لخلايا تنظيمات مضادة للنظام الحاكم . أصابنى بالرعب ووعدته بالبحث عن مسكن غير شقة خالته فورا ، لكنه همس لى بأن آخذ حذرى من طلبه على وجه التحديد لأنه أُس الفساد واكتشفت خلال يومين بليلتين وأنا أراقب من يراقبون المكان أننى تحولت بالفعل إلى هدف أحمق مطلوب حيا أو ميتا .

●●●

«سيد الكرام ابن السعدونى» كان يبربش بعينيه قليلة الرموش وقد احتقنت جفونه واحمرت بشكل مزمن تقريبا ، قميصه هو نفس جلبابه الأبيض " مدفوسا " داخل بنطلونه بشكل فاضح يسمح لكل من يدقق النظر بأن يكتشف أنه جلباب ، وكثيرا ما كان تلامذة فصلنا يسحبون الجلباب لأعلى بينما يلتفون حوله ويضحكون وهو يحاول أن يعاود إدخاله مكانه داخل البنطلون بينما يدور حول نفسه وكأنه يدارى عورته ، كنت أشارك الصبية الطيبين محاولات إبعادهم فيتباعدون أحيانا أو لا يتباعدون لكنهم فى كل الحالات يضحكون فنضحك وهو يسب ويلعن العيال معدومة الأصول التربية ، كان يجاورنى على نفس التختة فى سنة أولى إعدادى ، وبينى

وبينه يحدثنى عن قريته التى جاء منها بزهو يفوق زهو أبى بكفرنا ، يحكى عن الأشجار التى زرعها جده والتى تطرح التوت والجميز ويحكى عن ثمار البلح السمانى وسعف النخلة العريض الذى يداعبه النسيم ويهزه فتصدر عنه أصوات ، أنصت لحديثه باهتمام وأتخيل براح غيطاننا هناك مبسوطا على امتداد " الشوف " كما يقول أبى عندما يتحدث عن حوض أولاد عوف الكبير والصغير فى كفر عسكر التى هى مسقط رأسه ورأسى ورأس كل أولاد عوف ، أسأل ابن السعدونى عن بلدته التى يحكى عنها وكأنها جنة الله على أرضه فلا ينشغل بالرد ويواصل حديثه عن عشقه للأرض متباهيا بأنهم يملكون ستة قراريط بالإضافة لفدان بالإيجار ، يحدثنى عن الخبز الجاف الذى يفضله عن خبز المدينة الطرى الذى يوجع البطن وكيف أنه يأتى بخبزه الذى خبزته أمه ويحتفظ به فى الحجرة التى يسكنها مع ولدين من نفس قريته فى تلك الحارة المتفرعة من نفس الشارع الذى نسكنه . كان يقف أمام باب البيت كل صباح وينادى بالاسم فأطل من النافذة وأشير له بأن ينتظرنى ثم أنزل إليه ، نمشى فى الشوارع شبه الخالية حتى نصل إلى مدرسة النجاح الإعدادية وسط المدينة ثم نقف متجاورين فى طابور الصباح بعد سماعنا لصوت الجرس ، كنت أتعجب منه لأنه برغم العسر الذى يعانيه يعتز بقريته وبعائلته ويتحدث عنهم متصورا أننى من أهالى تلك المدينة التى لا يعشقها ولا يرتاح لناسها رغم شهرتهم بالمودة مع الغرباء ، وذات ظهيرة قلت له فى مشوار الرجوع أننى من مواليد كفر عسكر فاستنكر وكذبنى وأكد أنه يعرف كل التلامذة الكبار والصغار الذين هم من كفر عسكر لأن قريتهم تجاورها " والحد فى الحد " فلم أفهم مقصده مما زاد شكوكه . راح

يسألنى عن أشياء أجهلها وعيال صغار لم أسمع أسماءهم من أولاد عوف فجعلنى أشعر بالخجل بسبب قلة معرفتى بتفاصيل دروب الكفر أو أسماء العيال فى مثل أعمارنا فتزايدت فرحته وسخر منى بجرأة أدهشتنى وكأنه ضبطنى عريانا فى وسط الشارع ، أغاظنى باعتراضاته الساخرة على الحقيقة فوصفته بالغباء لأنه تناسى اسمى الذى هو سيد حسن عبد القادر عوف ، لكن ابن السعدونى وقف فى نفس مكانه متسمرا ليتأملنى قبل أن يندفع فى اتهامى بادعاء قرابتى لأولاد عوف فى كفر عسكر أو بعبد القادر عوف نفسه مؤكدا أن المسألة مجرد تشابه فى الأسماء :

- دكهم ناس مأصلين بصحيح ، عمد واولاد عمد ، إزاى تبقى مش قادر تدفع المصاريف لحد النهارده وتقول إنك من ولاد عوف ؟ قال من ولاد عوف قال وابن ابن عبد القادر كمان ، دا حتى عيب عليك لما تتمسح ف ولاد الأصول اللى إحنا عارفينهم ومعاشرينهم من سنين .

كانت معايرته لى بسبب المصاريف المدرسية التى لم أدفعها موجعة أكثر من كل ما قاله ، ربما لأن الأستاذ رجب مدرس العربى والدين كان قد أمرنى بالوقوف طوال حصته وأشبعنى لوما وتوبيخا فى نفس اليوم لأن الفصل كله دفع المصاريف بما فى ذلك "سيد الكرام السعدونى " الذى كان ينظر ناحيته متعاطفا بعينيه شبه الضريرتين تغطيهما مساحات رمادية فوق سواد العينين ويشير إليه بإصبعه متعاطفا معه :

- دا حتى ابن الناس الفلاحين الغلابه دفع ، مستنى إيه ؟

لم أكن بقادر على شرح حالة أبى الذى أصابه المرض وأرقده مشلولا وعاجزا عن الحركة على نحو مفاجئ منذ ثلاثة أشهر أو تزيد ، كنت

موجوعا وخجلانا من فقرنا وانكشاف حالنا ، أستعيد ما كان قد قاله صاحبه إسماعيل منذ أسبوعين وهو ينظر ناحيتى :

- ما تقدم له شهادة فقر عشان يعفوه م المصاريف .

- لأ ، شهادة فقر لأ ، عايزنى على آخر الزمن أكتب شهادة فقر يا اسماعين ؟ يبقى فقر وعيا واكسر عينيه كمان ؟

- مش أحسن ما يرفدوه م المدرسة يا حسن ؟

- يرفدوه يا اسماعين ، خليهم يرفدوه ، هو طه حسين مش قال إن التعليم مجانى ؟ قال ولا ما قالش ؟ ولا هو كلام بتضحك بيه الحكومه على خلق الله ؟

أعادنى صوت " سيد الكرام السعدونى " إلى الوعى بينما يتقافز حولى ويلملم ناس الشارع حولنا يستطلعون ويتسمعون ما كان يردده تكرارا مزعجا لنفس العبارات التى قالها إلى حد أننى لم أشعر كيف كنت أكيل له اللكمات وهو راقد على الأرض يطلب من الناس إبعادى عنه فيصرخون من حولى ولا أتوقف فيرفعوننى رفعا ويبعدوننى عنه بكل العسر

قاطعنى " سيد الكرام " أسبوعين وترك التختة المشتركة التى كنا نجلس عليها معا فجلست وحيدا ، كان يتنقل من تختة لتختة ويتهامس مع من يجلسون إلى جواره بينما ينظر ناحيتى فتتسع الأحداق مستنكرة ، أشعر أنه يحرضهم على مخاصمتى أو مقاطعتى فأفكر فى ضربه مرة أخرى ، لكنه جاء فى صباح يوم سبت ووقف أمام باب بيتنا وناداني مثلما كان يفعل فى السابق ، نظرت إليه من النافذة وأشرت له بأننى نازل ونزلت ، كان صامتا وكنت مثله ، لعلنى كنت أنتظر منه أن يفاتحنى ولعله كان ينتظر

اعتذارى عن ضربه لكننا لم نفعل حتى وقف الدسوقى رضوان فى سكتنا مازحا وانضم إلينا ، لعل وجود الدسوقى بيننا سهل علينا الأمر فتصالحنا دون عتاب وكأننا أسقطنا ما جرى بيننا من الذاكرتين معا من غير اتفاق مسبق .

●●●

سألنى " سيد الكرام " مرة إن كنت أعرف عيال الشيخ سعد عوف فجاوبته بأننى سمعت اسمه من أبى وإن كنت لم أقابله أو أعرف عياله فهز رأسه وتلفت حوله ثم قال وكأنه يبوح بسر :

- دا إنت طلعت من ولاد عوف بتوع كفر عسكر بصحيح ، أصل أنا كنت ف البلد خميس وجمعه وسألت أبويا قاللى :

- قالك إيه ؟

- قال إن أبوك ابن عبد القادر عوف بصحيح ، حتى بالأمارة إنت لك أخ من أبوك اسمه صالح ، دا أبوك له ورث لو طاله ح يبقى م الأعيان ، أبويا قال لى كده .

- مش لو طاله ؟

تذكرت حكايات أبى عن أرضه المخطوفة منه وقضية الميراث ، تذكرت كلامه عن المحامى النصاب والأوراق المزورة التى أجلت النطق بالحكم لصالحه عدة مرات ، كل ما كنت أتمناه هو أن يقوم من رقدته ، يتحرك ويمشى ويعاود حكاياته عن كل ما جرى وكان ولعل الحزن كان أكثر من طاقتى على الاحتمال فدمعت عيناى غصبا عنى وشاف سيد الكرام دموعى فواسانى :

- ولا تزعل نفسك يا سيد ، أبويا قال ما فيش أرض بتروح من صاحبها بالتزوير ، وبكره المحكمه تحكم لابوك وابقى شوف.

ساد صمت بيننا وبدت الشوارع المألوفة غريبة عنى ، لعلنى كنت أستعيد فى الذاكرة بكل العسر دروب الكفر أو كنت أشتاق لناسه أكثر من كل الأوقات السابقة ، ولعلنى شاركت السعدونى إحساسه بالغربة فى تلك المدينة ، هل انزرعت فى داخلى رغبة أكثر للرجوع إلى تلك الغيطان أو استعدت ملامح الجد القديم بكل تفاصيلها التى كانت قد تاهت منى ؟ ربما حدث كل هذا فى ظهيرة ذلك اليوم لأننى قلت لنفسى أو للسعدونى :

- عايز أروح كفر عسكر .

- سهله خالص ، إركب معايا القطر يوم الخميس من غير تذكره وانزل معايا ، ح نمشى ع السكه الزراعيه ربع ساعه بالكتير ، تحود إنت على كفر عسكر وأنا أكمل لحد عزبة الكوم الاخضر ، ما هو زمام البلدين واحد والحد ف الحد.

ويوم الخميس توجهت مع سيد الكرام ناحية المحطة ودخلنا دون أن نقطع تذاكر ووقفنا ننتظر على الرصيف وهو لا يكف عن تنبيهى وتحذيرى من الكمسارى لأنه لو أمسكنى من غير تذكرة يسلمنى لناظر المحطة الذى يسلمنى للشرطة أو يبعثنى مع عسكرى ليطلب من أبى أجرة السفر ، كنت أهز رأسى علامة الفهم قبل أن يأتى القطار المزحوم فأسرع هو ليركب وركبت وراءه لكنه تاه منى ، وعندما واجهنى الكمسارى وطلب منى التذكرة بينما يتحرك القطار تظاهرت بالبحث عنها فى جيب قميصى وعيناى على الباب لأقفز خلف خلاف وأقع على بلاط الرصيف ، انكفأت على وجهى

وتبعثرت أوراقى بينما القطار يزيد سرعته ويتباعد وبدا لى أننى رأيت «سيّد الكرام» يلوح لى من نافذة فى آخر عربة وكأنه يلومنى أو يسخر منى ، وساعدتنى على الوقوف سيدة ريفية بينما تشيع القطار وسائقه بسباب متواصل ، جمعت كتبى وكراساتى وساعدتنى لأجلس على مقعد خشبى مستطيل ، كانت ركبتى اليمنى تنزف من تحت قماش البنطلون الذى تمزق فطالبتنى بأن أرفع القماش فرفعته ، أشارت إلى أن أبقى فى نفس مكانى وذهبت إلى البعيد ثم عادت وفى راحة يدها اليمنى حفنة من رماد ناعم شبه منخول وضعته على الجرح فانكتم الدم وكف عن النزيف ، ربتت هى على كتفى وطالبتنى بأن أحتمل ولعنت المدارس التى تجبر الصغار أمثالى على السفر كل يوم فيتعرضون للمخاطر ، سألتنى عن بلدى فقلت دون تردد :

- أنا من كفر عسكر .

●●●

كنت قد قررت الذهاب إلى الكفر ، دفعتنى إليه غربة السنوات فى المدن الغريبة ، قلت لنفسى أسافر لأكون وفيا بالوعد الذى قطعته على نفسى بالزيارة وراغبا فيها فى نفس الوقت ، وفى خيالى طوال الطريق كانت تتوالى سير الرجال القدامى وأسترجع كل ما تبقى فى ذاكرتى من ملامحهم السمراء الحادة والنسوة الفارعات المتشحات بالسواد التى أنسنها مختار فى تماثيله بمثل ما مزجها بملامح الأسلاف القدامى من بدايات التاريخ المكتوب والمروى ، كنت أثق أنه هناك فى كفرنا أشياء يلزم أن أكتشفها بمثل ما فيه من أشياء غامضة يلزم أن أستوضحها .

نزلت الكفر فى وضح النهار ونزلت على الكوبرى ، حاصرتنى عيون الناس تتأملنى وتستطلع بارتياب ، تتابع خطواتى وإلى أى اتجاه أتوجه

وكأننى أخفى أغراضا تحت قميصى أو بين طيات البنطلون ، أشعر بالخجل وألوم نفسى لأننى غامرت وجئت وحدى ، أوشك على الصراخ فى الوجوه المتسائلة بأننى منهم وإن كنت قد خرجت فى الزمن القديم على غير إرادة منى ، لعلنى ندمت بسبب قلة حذرى رغم ما كان يقوله ويكرره مرارا من أن الخروج هو الخروج وأن الرجوع صعب وعسير لأنه بحسابات الغالبية منهم اقتحام لدنياهم التى لم تعد تحسب لنا حسابا ، كان هو بالقطع قد عاشرهم أكثر وقرأهم قبلى وفهمهم أيضا ، لكننى كنت أرغب فى معرفة تخصنى لأتأكد بنفسى وبعدها أواصل الذهاب أو انسحب بحسب الحالة دون شبهة الحكم على أساس وجهة نظر واحدة ، طال مشوارى للوصول إلى دار صالح دون أن أسأل كما يفعل أى غريب وافد لشوارع أو دروب كفر صغير لا يخصه ، كنت أعتمد على أوصاف سمعتها مرارا من جدتى وأبى عشرات المرات وذاكرة شاحبة لكنها كاشفة أيضا ، لكننى وصلت إلى دار صالح ، كان الباب مواربا فناديت عليه مرة واحدة ، لا بد أنه كان بالصدفة وراءه لغرض من الأغراض لأنه انفتح على مصراعيه ورأيته أمامى، عيناه متسعتان باندهاش وهو يسرع ناحيتى ليأخذنى فى حضنه باشتياق حقيقى أحسسته :

- يا حامى يا ولاد ، تعالوا شوفوا مين تعالوا .

قالها بفرح وهو يخبط ظهرى وأكتافى ويتأملنى بينما يتحرك معى على مهل وأنا تحت إبطه ما أزال ، كانت فى الدار زحمة من رجال ونسوة وصبيان وبنات وعيون الكل تتطلع فى فرح سابق على معرفة هويتى وربما عرفها البعض تخمينا :

- تعالى خش المندرة ، خش يا أستاذ سيد ، بيتك ومطرحك دا إنت

نورت الدار والبلد بحالها.

كانت المندرة على يسار الداخل كما قال أبى مرارا وتكرارا فتوجهت إليها دون أن أشعر أن صالح وجهنى . كانت المندرة براح ولها أربعة شبابيك ممدودة ومتطاولة ومقسومة تقريبا من نصفها أفقيا بحيث يمكن فتح الجزء الأعلى أو الجزئين معا ليدخل النور وتدخل الشمس فى أركانها ليتأكد لمن يجلس فيها أنه الظهر الممتد المتواصل أو الليل الطويل الذى له فى النهاية آخر ، وكانت الست كنبات والثلاث "ترابيزات" بيضاوية رخام السطوح الأبيض بالإضافة إلى أربع مقاعد أرابيسك فى الصدارة تبدو شديدة التباعد بسبب اتساع المكان الذى ذكرنى بصحن جامع مفتوح ، أجلسنى على أحد المقاعد ربما لأكون فى مواجهة الباب الكبير المفتوح وجلس على طرف الكنبة التى تجاورنى . توافد أربعة رجال وجلسوا على أطراف الكنبات وحام حول الباب المفتوح عدد من الأطفال صبية وبنات من كل الأعمار ، ينظرون ويرمحون ثم يعودون ويتضاحكون بخجل . كان الرجال الجالسون يتأملون بحذر ويرحبون بالإشارات والكلمات المتوجسة قبل طرح الأسئلة المكتومة عن هوية الضيف ، جاء صبى فى سن المراهقة يوشك أن يسأل إن كان يحق له المشاركة فى مجلس الرجال لكنه لم يجرؤ على السؤال فجلس صامتا ونظر لصالح الذى أمره :

- فز قوم سلم على عمك الأستاذ سيد وحب على إيده.

وقام الولد وسمعت الرجال يزومون ويتبادلون النظرات وقد تأكدوا من هويتى ، وعندما سلم الولد منعته من تقبيل يدى :

- لأ .. ما تبوسش إيد حد أبدا مهما كان.

- إنت كده ح تفسد علينا العيال يا أستاذ.

كان من الواضح أنها دعابة مقصودة فانطلقت الضحكات ونوبت كل التحفظ فى لحظات ، رد من يجاوره مشاكسا:

- ما تخرس يا شيخ عفريت ، يفسد علينا العيال دا إيه ؟ دا إنت اللى متخصص تقلب موازينهم وتعوج المعدول فيهم.

- أهو كلام ، طب إيه رأيكم إنى عرفته من أول ما حط رجله وخطى عتبة الدار، هو حد منكم شاف صالح بياخد حد ف حضنه من يوم ما ربنا خلقه ؟ دا براوى وراضع لبن ذيابه.

ومرة أخرى انطلقت الضحكات التى تناوش صالح الذى بدا وكأنه صار مستهدفا فى حماية ضيفه فلمعت عيناه وهز رأسه متوعدا بخفة وساخرا فى ذات الوقت :

- مقبوله منك لجل سواد عيون الأستاذ يا فتحى ، شايف أخوك يا عبد الفضيل ؟ بعدين ، بعدين نتحاسب ونشوف.

لكن فتحى قام واقفا واقترب منى ومد يده ناحيتى ليسلم فقمت وسلمت عليه، أخذنى فى حضنه بمودة وعاير صالح :

- وأنا يا صالح محمى ف ابن عمى دهه ، ح يجيب لى حقى منك من يوم ورايح ، دا مغلبنا يا أستاذ سيد ، ح تحمينى من رزالته ؟ أصلى ولو إنى ابن عمه الكبير مش قادر عليه.

- والله وبقى لك أخ مفتش يا صالح يا ابن عمى على آخر الزمن ، لأ وايه باين عليه زى البهوات بتوع مصر.

- يا راجل يا سو ، خللى عندك شوية تمييز ، دا الخالق الناطق أبويا حسن .

- وفيه من صالح ، ولا ح تقول ما فيهش منه ؟ لو راجل قول

كان الكل يضحك ، وبدا لى أنها مسرحية مرتجلة لم يكتبها مؤلف أو يحدد حركة أبطالها مخرج محترف ، لكنها كانت بالنسبة لى مسرحية شيقة ومن فرط عفويتها تمنيت لو أشارك فيها لولا خجل موروث كان يعترينى ويمنعنى أحيانا من الكلام ، لكننى كنت أبتسم وأتأملهم كأننى ناقد مكلف بكتابة دراسة عن عرض مشحون بالدلالات ، لعل حوارهم الممتد غير المرتب أدهشنى إلى حد أننى كنت أوشك على مطالبتهم بالمزيد ، ولا بد أنهم استشعروا ترحيبى وموافقتى كجمهور واحد وحيد بقراءة تعبيرات وجهى الفرحان بالعرض فواصلوا وضحكوا وأضحكونى فأنسونى كل همومى ، ورأيت صالح يقف ويشير إليهم بالكفين المفرودين يطلب منهم بعض السكوت فسكتوا للحظات ليسمعوا كلماته :

- طب إيه القول يا جماعة إنى ما كنتش مصدق أنه ح ييجى بصحيح ، أنا قلت لروحى أهو كلام فض مجالس يا صالح ، وأصل أنا كنت رايح أعزم أبويا يحضر شرط البنت واتقابلنا هناك ، أهو أبويا ما جاش ، ح أقول ايه ف الراجل ده بس ؟ هو أنا مش إبنه ورايح له عشان أردم ع إللى فات ؟ بس إنت يا أستاذ ما كدبتش خبر وجيت وفرحت قلوبنا كلنا بصحيح ، حد مننا ضحك زى ما ضحكنا النهارده يا جماعه ؟

هزوا رؤوسهم نفيا وعلقوا بعبارات متتابعة تؤيد صالح وعلى وجوههم علامات من اكتشفوا موهبته على غير توقع منهم أو خطرت على بالهم ، تبادلوا النظرات قبل أن يقوم فتحى ليؤكد :

- على النعمه .. والمصحف الشريف ، والمصحف الشريف إن القعدة

دى ما حصلت من ايام أبهاتنا وعمامنا الله يرحمهم ويمكن من أيام الجدود كمان ، جاتكم نيله عيله غاويه نكد بمناسبه ومن غير مناسبه ، يجرى إيه لو اتلمينا تانى يا ولاد الكلاب ؟ يجرى إيه ؟

طرح سؤاله الأخير بصوت متحشرج ولم يتمكن من السيطرة على نفسه فجلس مكانه يبكى ويجهش بصوت مسموع وكلما اقترب منه واحد أزاحه عنه وكأنه مجروح من داخل الداخل وعلى لسانه نفس السؤال ممزوجا بحسرة على كل ما فات :

- يجرى إيه ؟ يجرى إيه لو إتلمينا على بعض تانى ؟ يجرى إيه ؟ يجرى إيه يا ولاد الكلاب ؟

كان فى إيقاع كلماته الخافتة اعتراضا وعجزا ورغبة صادقة فى الخروج من مأزق يعيش الكل فيه ، وكانوا جميعا يتبادلون النظرات المرتبكة ويمسحون آثار دموع تتسلل خلسة من العيون إشفاقا عليه أو على أنفسهم رغم كل محاولاتهم للتماسك بينما الأطفال ينفلتون ويتجاسرون ويرمحون ويضحكون ويتأملون فى داخل المندرة وعند بابها المفتوح .

●●●

دعانى لزيارة مدافن أولاد عوف استجابة لرغبة بحت بها فى حديث عابر ، سار إلى جوارى صامتا وعبر بى زقاقا ضيقا لم ألتفت إليه فى سكتى لداره لكنه أوصلنا لمسار ممدود بين الغيطان ، وبعينيه نظر إلى البعيد وأشار بإصبعه بصوت مقهور :

- كده على طول يا أستاذ ح نوصل للترب بدل المشى فى كفر النداين ويسألونا رايحين فين وجايين منين ؟ زيارة الأموات واجب وصدقه مخفيه ،

ربنا يجعل متواهم الجنه ، أصل كلنا رايحين مهما العمر طال ، بس مين يقرا ومين يسمع ؟ أهو انت ح تكسب فى ثواب بزيارتنا دى .

كان صوته يبدو رتيبا ومستكينا على العكس من هيئته الصلبة وتقاطيعه الصارمة ، وكنت لا أعرف كيف أرد عليه مخافة أن أقول كلاما لا يليق بهيبة الأموات وهيبة سيرة الجد عبد القادر على وجه التحديد ، كنت أفكر فى الأبدان التى تسربت منها الأرواح خلال القرون وكيف أن القبور منذ تاريخنا القديم مستودع آمن للأبدان التى لا بد أن تعود إليها الأرواح لتحيا من جديد . كانت أصوات الكلاب تأتى من بعيد. وتتجاسر على إعلان الجلبة وتقتحم السكون كلما اقتربنا من المدافن التى بانت لنا ، كأنها تندب أرواح الموتى ومن سوف يموتون فى تتابع متواصل لا ينتهى أبدا ، كنت أقف أمام مدفن الجد عبد القادر وكأننى واقف فى حضرة ملك ملوك من زمن الفراعين، سرحانا أسأل نفسى كيف استمرت الحياة وانفلتت من حتمية الفناء وكيف تجددت الأعمار والملامح وتكررت الأسماء فتشابهت أسماء الأحياء مع أسماء من ماتوا ؟ كانت فى الوراء خضرة الأرض البراح وكل الأشجار تميل مع النسمات التى تفوت براحتها فلا يوقفها أو يعوقها حد أو سد ، كان الغروب هناك فى البعيد يزحف فأسمع وسوسات من رحلوا ولم أشهدهم أو أراهم من أجداد الأجداد الذين عاشوا فوق نفس الأرض وعجنوها بكد أعمارهم وأنهار العرق لتبقى قادرة على الإثمار ، ويتبدى لى أننى أرى أطيافا بأعواد فارعة وأكتاف عريضة وقد اسمرت الجباه بفعل شمس لا تكف أبدا عن الإشراق ، هل اغتسل القلب من مواجعه وسط المدافن أو أنه كان يخفق بقلق ربما بسبب أننى سوف أتباعد غصبا لأن

المكان لا يخصنى ؟ كنت أعرف أن هذا المكان نفسه هو ملجأنا الحتمى بعد الكد والعناء والترحال والسفر ، سمعت صوته وهو يهزنى هزا لينا :

- دا انت رحت بعيد خالص يا أستاذ ، إيه خبر إيه ؟ عمال أنادى عليك وانت سرحان ما بتردش ، أمال لو عاشرته زينا كنت ح تعمل إيه ؟ اترحم عليه ، اترحم عليه .

لا بد أننى شعرت بالخجل من نفسى وانقدت إلى جواره وقد غير اتجاهى بخفة لنغادر المدافن ، كان هو يتلفت حوله وينظر ناحيتى بقلق ، ربما حسب أن جرعة الزيارة كانت فوق قدرتى على الاحتمال ، وربما تداعت في ذاكرته مواجع كانت مدفونة فى داخل الداخل يجاهد أن يداريها ويواصل الحياة ، أجلسنى على حافة حوض طلمبة ممدود ومملوء بمياه صافية فوقها بقايا حشائش ونباتات طافية على السطح ، اقترح وقد تأكد بنظرة خاطفة من وجود " كوز " ماء مركون :

- أجيب لك بق ميه ؟ الطرمبه دى ميتها نضيفه وزى ما تكون متكرره ، بتبل ريق كل من زار وهو راجع ، تشرب بق ميه ؟

- اشرب .

قام وأمسك " بكوز " الماء الذى غزت أركانه مساحات من الصدأ ، أنزل ذراع الطلمبة ورفعه عدة مرات فرأيت الماء يتدفق ، ملأ " الكوز " وأفرغه عدة مرات وكأنه يغسله لأطمئن بأن ماءه صار نظيفا ، ناوله لى فشربت منه جرعتين وهززت رأسى أشكره فأخذه وشرب حتى أفرغه ثم عاد وملأه ليشرب المزيد ، جلس إلى جوارى وتحير كيف يعيدنى إلى ما كنت عليه قبل أن نبدأ مشوارنا المشترك ، زفر عدة زفرات ثم قال بإيقاع وديع .

- لا إله إلا الله ، لا إله إلا الله ، دا إنت قلبك رهيف قوى ، أمال لو كنت شفت ربع إللى أنا شفته كنت عملت إيه ؟ دا أنا شفتهم قصاد عينى والواحد منهم بيدب ع الأرض وكأنه بيقول يا أرض اتهدى ما فيش عليكى قدى ، كانوا زى السبوعه اللى المداحين بيحكوا لنا عنهم ف سيرة عنتر ابن شداد وأبو زيد الهلالى والزناتى خليفه .

- طبعا طبعا ، ما أنا عارف ، أبوك حكى لى كتير ، كتير قوى، كأننى عندما أكدت له معرفتى ولو بسماع الحكايات فتحت له بابا كان يتمنى لو ينفتح ، وكانت هناك من حولنا ظلمة منورة بقمر بين البدر والهلال تتيح لى أن أراه ويرانى ، وكان الصمت يسمح لى بأن أسمع صوت أنفاسه ولا بد أنه كان يسمع صوت أنفاسى أيضا ، تزحزح من مكانه ووقف قبالتى ثم حط كفيه على أكتافى لأظل جالسا فى نفس مكانى ، زفر عدة زفرات متلاحقة وقال بصوته الخافت الذى بدا لى ممرورا يستحق الإشفاق :

- ح أقولك كلام ما قلتوش لحد قبل كده أبدا غير أبويا إللى هو أبوك ، ما قلتوش لحد من عيالى ولا لأم عيالى ، بس قلته لنفسى بينى وبين نفسى من غير صوت ألف مره ويمكن أكتر ، أقوله ولا مش ح تصدقنى زيه ؟

- قول ، مش ح أصدقك ليه ؟

- يمكن يعنى حكايات أبويا عنى وعن جدك وإللى حصل زمان أثرت فيك ، أصل إنت عايش العمر كله معاه ، ويمكن يكون حفضك كلام حصل ف وسط كلام ما حصلش .

- قول يا صالح وأنا لى عقل أفكر بيه ، أنا عايز أعرف منك .

- ما حدش يقدر يستغنى عن أهله وناسه مش كده ؟ ولا حد يقدر

يستغنى عن أبوه ؟ ولا إنت لك رأى تانى ؟

- رأى تانى ف إيه ؟ ما حدش بيستغنى عن أهله من غير سبب ، وبصراحة سمعت منه كلام بيقول إن فيه أسباب .

- أسباب إيه بس ؟ حط نفسك مطرحى ، أنا لقيتنى متهوم ف قضية تزوير ، بس أنا ما زورتش ولا كنت أيامها أعرف يعنى إيه تزوير ، يمكن الكبار عملوها من ورايا ومن وراه ، بس أنا إتاخدت فى الرجلين ، ربك والحق لما الموضوع وصل للمحاكم قلت يا روح ما بعدك روح ، عملت إللى قدرت عليه وخلصت روحى م التهمه ، ربنا أيامها سهل وسلتونى منها زى الشعرة ما بتنسلت م العجين الطرى .

كان يبدو لى صادقا ، فكرت أنه حاول فى حضورى وربما فى غيابى لإقناع أبى بأن يعود إلى الكفر ليعيش وسط أهله وناسه لكنه كان يرفض لأسباب تخصه ، كنت حائرا وعاجزا عن الوعد بشيء لا أملك الحق فى الوعد به ، ولعلنى شعرت بالحرج لأنه فى تلك اللحظات كان يتأملنى متوقعا منى أن أرد عليه ، لكننى عجزت عن إصدار حكم سريع لصالحه أو ضده فهززت رأسى أسفا لأبين له أننى بالفعل تائه فى متاهة بلا فتحات وكلها سدود ، ولعله أعفانى وهو يمد يده ناحيتى بتعاطف محسوس ويقول :

- قوم بقى ، مش عاوز تتمشى ف البلد وتشوف دخانيقها ؟

- أشوف ، ليه لأ ؟ أمال أنا جايلك ليه ؟ عشان الدخانيق .

ضحك فجلجلت ضحكته وضحكت مثله ناسيا ما كان قد دار منذ لحظات ووضعنى فى مكان قاض مبتدئ عاجز عن الحكم فى قضية شائكة لم يقرأ كل تفاصيلها أو يطلع على مستندات ، وفى مدخل الكفر من ناحية الترعة مال بى ودخل دارا بابها مفتوح فيها ثلاثة رجال بشوارب مفتولة وعباءات

ملفوفة حول الأعناق ، ضحك أحدهم بصوت بينما يقفون ليتأملوه ويتأملوننى قبل أن يقول أكبرهم سنا لصالح :

- طب يا أخويا قول عليكم السلام وبلاش السلام عليكم اللى ما بتقولهاش ، حتى عشان خاطر البيه إللى وياك ما يقولش علينا فلاحين ما بنعرفش الأصول ولا إيه يا بيه ؟

- إيه ؟

قلتها فتزايدت ضحكاتهم بينما يصافحونه ويصافحوننى بمودة ، وكان هو يضحك وأضحك ، ثم أشاروا لنا لنجلس معهم على الكنبات المفروشة فى مدخل الدار ، كان صامتا يلعب بلسانه فوق شفتيه ثم يضمهما متوقعا منهم أى كلام ، قال واحد منهم وهو يتفحص وجه صالح :

- نجيب شاى ؟

- هات إللى عندك إن كان جاهز .

- جاهز من يومين .. بس .

قالها الرجل وهو ينظر ناحيتى مستفسرا بشيء من القلق فهز صالح رأسه ساخرا وقال للرجل :

- دا الأستاذ سيد عوف ، أخويا ياللى تنشك ف حبابى عينيك .

- العتب ع النظر يا أستاذ ، هو أنا عدت باشوف يا صالح ؟

بذلك رد عليه الرجل ثم قام واتجه ناحية قاعة معتمة فى مواجهة مدخل الدار، دخلها وغاب دقيقة أو دقيقتين ثم عاد بقطعة سلاح بدائى صناعة يدوية كان يلفها بقطعة قماش بيضاء :

- داريها ف عبك يا صالح وإنت طالع أحسن تجيب لنا نصيبه .

- فين الخرطوش ؟ أمال ح أجربها بالبمب بتاع العيال ؟

- أصبر على رزقك .

كانت أصابعه مدسوسة فى طاقة حمام داخلها منديل نصف ملفوف أخرج منه عددا من الرصاصات الضخمة قديمة الطراز ناولها لصالح التى دسها فى جيب جلبابه بينما يضع قطعة السلاح فى عبه ويتحسسه ليتأكد من ثباته فى المكان المقصود ، وبينما يخرج من باب الدار التفت إليهم ثم شاور بيده اليمنى :

- أقول سلام لجل ما يفرح قلبك يا فرحات ، قال فرحات قال . ردوا عليه السلام ، لا بد أنه لا حظ شيئا من القلق على وجهى فربت بيده على كتفى مطمئنا :

- دا كده بس عشان فرح العمدة زى ما بتقولوا فى البنادر

- فرح العمده ؟

- أصل الأمر هنا ما بيخلاش ، سياعات بنبات فى الغيطان يطلع لنا ديب ولا كلب سعران ، أهو احتياط والاحتياط واجب ، وحتة سلاح زى دى ما تكلفش زى السلاح المترخص ، بس الولد فرحات إللى شفته ده لهلوبه ف عمايل السلاح وتصليحه كمان .

لم أعلق بشىء ، لا بد أنه أدرك أن مثل هذه الأمور لا تعنينى كما تعنيه ، سرنا فى دروب الكفر وعبرنا بوابة أولاد عوف ، كان مزهوا بنفسه كما بدا لى بينما يسير إلى جوارى ويحكى بصوت خافت بعض الحكايات القديمة من وجهة نظره وكأنه يشهدنى على سوء الفهم الذى يعانى منه بسبب أنه يحاول أن يصحح فكرة أبى عنه ولا يستطيع ، يستشهد بزيارات سابقة كان قد قام بها من غير علم أهل الدار وفى حياة الجد عبد القادر «رحمه المولى ووسع قبره ولين الطوبة التى وضعوها تحت رأسه فيه » كنا نتقابل مع رجال

أو نراهم يجلسون على المساطب فيقومون ويسلمون علينا باليد أو بالإشارة أو برد التحية بحفاوة ، كأن وصولى للكفر شاع بينهم وانتشر لأن بعضهم كان يوقفنا ويسأل صالح عن هوية الأستاذ الذى هو أنا فيرفض البوح ويبدو متخابثا بقصد وعارفا أن السائل يعرف ، يتظاهر بأنه سوف يضعه فى اختبار للقدرة على التمييز ، فيتفحص الواحد منهم ملامحى وينقل نظراته إلى صالح فأفهم ويفهم صالح أن من توجه بالسؤال يعرف جوابه أو سوف يحل اللغز المحلول ، وكانت الأجوبة تتوالى بحسب الأعمار والقرابات مثل :

- أخوك يا سى صالح ، مش كده يا أستاذ ولا أنا غلطان ؟
- الخالق الناطق أبوك يا صالح يا ابنى ، يبقى هو ده أخوك المتربى ف الغربة إللى سمعنا عنه ، مش كده يا أستاذ ؟
- يا أخويا هو أنا ح أتوه عن لحمى ودمى ؟ ده الأستاذ سيد .
- ابعد إنت كده من قصادى خلينيى آخده ف حضنى ، أنا ابن عمك عبد الغفار ، مش سمعت عنه ؟ أهو أنا ابنه الكبير .
- ألف ألف بركه إللى الميه رجعت لمجاريها يا سى صالح .
- ما تتفضلوا نعشيكم ، عندنا دكر بط يستاهل حنكك يا باشا .
- لأ لأ .. مش شكلك أبدا يا سى صالح ، ده باين عليه متنور وشبه خلف الملوك . بقى ده سى سيد أخوك ؟ أبدا .

على هذا النحو كنت أسمع منهم التعليقات التى تختلف صياغاتها وإن كانت فى جوهرها تؤكد علاقة الدم بينى وبينه وبين أولاد عوف ، وعندما تركنا البنايات وراءنا سرنا مرة أخرى فى الفراغ الممدود وسط الظلمة المحتملة بسبب وجود القمر الذى هو بين الهلال والبدر ، كنا نسمع نقيق

الضفادع ونباح الكلاب البعيدة يشرخ الصمت ويصنع الجلبة آتيا من الغيطان أو البيوت التى كنا قد تباعدنا عنها ولا أدرى لماذا ، بدا لى أن ناس الكفر أغفت وأن بعض أبوابه ما تزال مفتوحة أو موارية وبعضها إنسك على أصحابها ، ولا بد أننى كنت أشعر بقلق أزيحه عنى لأواصل ما كنت أحسبه سعادة كنت قد شعرت بأنها انولدت عندما حققتُ بزيارتى للكفر حلماً كنت أتمناه لأنه من اللازم للإنسان أن يقترب من جذوره ويتعرف على الفروع الباقية فى نفس أماكنها ، كنت مفتونا بكل ما أراه كسائح أجنبى يرى الهرم والمتحف المصرى أو يقف ليشاهد جريان مياه النهر التى لم تتوقف أبدا منذ فجر التاريخ ، صحيح أننى كنت أختلف عن السائح المفتون بكل ما يراه بسبب أنه ابن حضارة أخرى أو مجتمع آخر بينما كنت قطعة من نفس طينتهم تجرى فى عروقها نفس الدماء ، فمن ناحية الأب انتمى لأولاد عوف والأم منسوبة لأولاد شلبى وهى "الماعون " بحسب ما كانوا يرددون وأميل لتصديقهم ، ربما بسبب ظروف أبعدتنى عنها فلم أتمكن أبدا من رسم تقاطيعها من ذاكرة طفل مفصول عن أمه على غير إرادته بالقطع وربما على غير إرادتها ، لكنها وافقت على حرمانه من رعايتها فتجرع مرارة اليتم فى وجودها ، ولعلنى لم أتذكر فى سنوات الوعى أنها سعت لرؤيتى مرة ، كنت أسأل عنها فيرد هو بأنها ماتت فتعترض جدتى لأبى قائلة إنها تعيش فى نفس كفرنا القديم وإن كانت فى بيت رجل من نفس أولاد شلبى خلفت منه خلفة شغلتها وأنستها وجودى مع أن القطة لا تنسى عيالها ، كنت أكره كلمة الطلاق وأراه ظلما لأى إنسان يكون ثمرة علاقة لم تستمر أو حياة انتهت بالانفصال ، لعلنى كنت مثاليا لأبعد حد لكننى كنت أفكر على هذا

النحو ، ولعلنى فى تلك الزيارة كنت أحوم بغير وعى منى حول الجنور ، كل الجنور ، لكنه كان هناك فاصل أو مانع نفسى فى ناحية وشبه حق قيل إنه مسلوب فى الناحية الأخرى ، صحيح أننى لم أفكر فى استعادة ميراث أبى وميراثى رغم ما قاله من أنه سلب بأوراق مزورة ، لكننى كنت أعتبر أن لى حقا فى دخول دار عبد القادر عوف لأننى أحمل اسمه وأتنادى به بينما لا يحق لى أن أدخل دار علام المنسوب لأولاد شلبى والذى صارت أمى له زوجة منذ سنوات هى كل عمرى تقريبا ناقصا منها أقل من عامين ، وإن كان يحق لى أن أفكر فى والدها عبد الستار شلبى وداره مهما أصابها من خراب ، فى البعيد سمعت جلبة أصوات ورأيت شعلة نار حولها أشباح تبينت أنهم بشر يلتفون حول " راكية " فوقها براد شاى ، كانوا يتداولون «جوزه» تكركر وإن كانت تختلف عن تلك التى كنا ندخنها فى " حوش قدم " مع الشيخ إمام ، نسحب الأنفاس فيخرج الدخان الأزرق تفوح منه رائحة الخشيش المحروق على العكس من دخانهم الصريح المائل للبياض ، جلسنا تلبية للدعوة وتعرفت على أولاد العم : فتحى ومحمد ورشاد وشنعبان وسعيد ومصطفى وشوقى وعبد الونيس ، يكمل الواحد منهم غايته من شرب الشاى والدخان ثم يقوم ويأتى غيره ، كأنها وردیات تحوم حول نار لا تخمد لأنهم يمدونها كلما خبت بمزيد من الوقود ، لكن أحدهم تكلم عن مساوئ التدخين من غير مخدرات فأخرج عبد السلام بعد تردد قطعة "حشيش " راح يقطعها أحجاما ويرصها على غلاف علبة سجائر مفرود ، كانوا يمزحون ويتضاحكون من قلوبهم لأنهم ظنوا فى البداية أننى سوف أعترض على تدخينهم للمخدرات ، ربما فرحوا بمشاركتى أكثر من فرحتهم بسرحان الأدمغة فى البعيد كلما زادت مدة التدخين حتى حرقنا آخر قطعة صغيرة

كانت مرصوصة فوق غلاف علبة السجائر .

لا أدرى من منا هو الذى أشار للآخر ليقوم ، لكننا قمنا وسرنا فى ضوء نفس القمر وإن بدا أكثر إشراقا وقدرة على كشف معالم الطريق فى اتجاه البلد ، كانت الحقول غافية والنسيم منعشا وكنت أستعيد غنوة للشيخ إمام وأدندن بها بصوت خافت :

" ناح النواح والنواحه على بقرة حاحا النطاحة ، والبقرة حلوب حاحا، تحلب قنطار حاحا ، لكن مسلوب حاحا ، من أهل الدار حاحا والدار باصحاب حاحا ، واحداشر باب حاحا ، غير السراديب حاحا

أفقت على صوت كلب شرس ينبح نباحا متواصلا فيه احتجاج واعتراض ربما على كلمات الأغنية أو على وجودى فى المكان لأنه كان يتقافز ناحيتى بجسارة ، يأمره صالح بالابتعاد عنى فيتباعد لحظة ثم يعود ، يلوح صالح ناحيته بالعصا فيتفاداها ويتجه ناحيتى ، كنت خائفا بالفعل وإن جاهدت دون أن أفلح فى أن أدارى خوفى ، كانت عضة الكلب بالنسبة لى تعنى إصابة بسعار ينتهى بالموت ما لم أداويه بالحقن المضادة للسعار فى البطن بالتحذير ، سمعت صوت صالح الخشن يطمئننى :

- ما تخافش .. خايف كده ليه ؟ دا كلب ابن كلب .

كنت عاجزا حتى عن الرد ، ربما كنت أتوارى وراء صالح دون أن أشعر، لكن الكلب استجاب لتهديداته فى النهاية وتباعد عنا ، وبدا لى أن دار صالح المفتوحة على مصاريعها قادرة على بث الطمأنينة فى قلبى المرعوب .

●●●

قلت له كل ما جرى فى مشوارى الأول للكفر فظل يتسمع دون أن يعلق بأى كلام ، وبدا لى أنه كان فرحانا من داخله لأننى عرفت الطريق وحدى

ونجحت فى التعامل مع أولاد عوف هناك ، ربما كان يستجمع بوعيه ويحلل كل ما بحت به من تفاصيل أو مقابلات وما أسعفتنى به الذاكرة من عبارات حوار منطوق ، كنت قد اعتدت منه فى السابق ذلك الصمت المغلف برغبة التعرف على قدراتى أو رغبة إشعارى بأننى مسئول يلزم أن يتعلم من خلال كل ما يصادفنى من مواقف ، لأنه بحسب ما كان يقول دائما لن يعيش لى فى قمقم إلى الأبد وأنه يعرف أن لكل عمر نهاية ، لعلنى كنت بالنسبة له كتابا مفتوحا يستطيع أن يقرأ كل سطوره ربما بسبب أنه عودنى أن أقول كل شيء وأى شيء دون رهبة منه ، على الأقل فى سنوات الشباب الأولى ، كان يكتفى بأن يتأملنى ويهز رأسه عدة هزات أفهم منها أنه يفهمنى أكثر مما أفهمه ، كنت أسرح وأقول لنفسى إن هذا الرجل عاش عمرى قبل أن أعيشه ثم أتهم نفسى بينى وبين نفسى بالجنون لأنه محض خيال جامح ذلك الذى يناوشنى ويرسم لى صورته وسيرته ومشاعره وقد تشابهت أو حتى تطابقت معى لأننى أعرف الكثير أيضا من وجوه الاختلاف بيننا بغض النظر عن تشابه الملامح بفعل الوراثة ، كنت أضع صورته فى مطالع شبابه إلى جوار صورتى فأراهما بالفعل متشابهتين فأقول لنفسى إننى صورة طبق الأصل منه وأنه كان من الممكن أن يكون توأمى لو استعاد شبابه مرة أخرى وسار إلى جوارى فى شوارع المدينة ، كنت أتمدد إلى جواره على السرير فسمعت نحنحاته التى تسبق أو تمهد لكلام يرغب فى قوله وكأنه بتلك النحنحات ينبهنى لأنه سوف يفتح للكلمات بابا كان مسكوكا بإرادته ، وسمعته يقول ساخرا :

- بقى فتحى عيط وحالة العيله كانت صعبانه عليه ؟ عجايب .
- أنا صدقته ، حسيت إنه كان بيتكلم من قلبه .

ايوأ ، ما أنا عارف ، عارف يا سيد إنه كان بيتكلم من قلبه .

ما هما شاطرين ف الندب والتعديد ع إللى فات وإللى مات، ح تروح فين ف وسطيهم ؟ أصل إنت إتربيت بعيد ، صعب عليك تقراهم يا سيد وإنت وسطيهم ، بعد عنهم شويه تفهمهم ، أصل إنت بالنسبه لهم غريب ، أفندى وغريب .

أشعرنى بشيء من الخجل من نفسى لأننى بحساباته لم أتمكن من معرفتهم أو فهمهم ، وبدا لى أنه لا يرحب بزيارتى لهم على عكس رغبتى ، لكنه واصل بعد نحنحة أخرى :

- فتحى اللا عيط عشان عاوز العيله ترجع زى ما كانت وتتلم يبقى إبن ابن عمى إللى كان أول واحد يتسبب ف غربتنا السنين الطويله دى ، كان الله يرحمه بقى يفحت البير بإبره ، خايف أقول لك العرق يمد لسابع جد تخاف .

- يا با إنت محيرنى معاك ، أخاف ولا ما أخافش ؟

- أنا ف الأول ما كنتش عاوزك تروح نواحيهم ، زى ما يكون كنت خايف يلعبوا بيك ، بس ما دام رجلك عرفت السكه خلاص ، براحتك ، بس خد بالك وما تخليش حد يلعب بيك .

●●●

مثلما حدث فى الزيارة الأولى أدخلنى نفس " المندرة " التى نمت فيها فى المرة السابقة ، وجدت على نفس السرير بعواميد طويلة جلبابا وطاقية أشار اليهما وانسحب بخفة وهو يقول :

خمسه كده بس على ما تغير براحتك ، أحسن تكون بتنخزى ولا

حاجه .

- أ .. أ ..

لم يتح لى فرصة الرد عليه لأنه كان قد اختفى وسحب وراءه باب «المندرة» بالفعل ، خلعت ملابسى وعلقتها على الشماعة ولبست الجلباب والطاقية وجلست أنتظر ، لعل الصمت المطبق جعلنى أشعر بأن الوقت طال أكثر مما كنت أتوقع ، تمثلت وجه الجد عبد القادر صاحيا يبتسم لى على العكس من صورته المعلقة فى إطار كالح لا يليق به وتقاطيعه متجهمة توشك أن تكون لرجل غاضب لم يبتسم فى حياته أبدا ، لعلنى فررت من الصورة وسرحت فى البعيد لأستعيد وجهه المبتسم لى وهو يناولنى ثمرة من ثمار الغيطان ويربت على ظهرى بحنو ، قلت إنه كان بالقطع ينام فوق هذا السرير ، ولا بد أنه أطل مرارا إلى كتل الخشب الضخمة التى تحمل سقفها العالى ، وإنه نظر من خلال تلك النوافذ الى نجوم السماء وخاطبها ، ولعله ضرب أبى فى ذلك الركن " بشمروخه " فى ذراعه يوما فجعل الدم يتفجر كنافورة تصل بحسب ما أكد أبى فى رواياته الى سقف المندرة ، وسألت نفسى إن كان هناك بقايا لقطرات من دمه ما تزال بين تلك الكتل الخشبية أو أن الطلاء الجديد الذى سبقه طلاء قديم أو أكثر أزال كل شيء ؟ وسألت نفسى أيضا إن كان قد عاشر زوجته التى كانت بالنسبة لأبى زوجة أب على نفس هذا السرير وولدت له عمى برهوم الذى لم أره فى حياتى أبدا لأنه مات فى عز شبابه وخلف فى قلبه حسرة ؟ ولعلنى بسبب الصمت التام توهمت أننى سمعت همسة فى أذنى تنادينى بصوت الجد القديم ورأيت طيفه عابرا أمامى بعوده الفارع يتهددنى بالضرب " بشمروخه " دون ذنب ، وبدا لى أن خوف أبى الموروث منه تسلل إلى عقلى وقلبى وأننى بالقطع مكانه فى مواجهة الطيف لأننى توأمه ، كان الباب المسكوك ينفتح بعد

طرقات متتابعة خافتة لأرى وجه صالح قبالتى فأفيق لنفسى وأطلب منه بكل الخجل أن يفسح لى الطريق إلى بيت الأدب لأقضى حاجتى .

وأنا أقف مع صالح تحت شجرة الجميز العتيقة نحتمى بها من وقدة الشمس الحامية ، كان يحدثنى عن حدود الأرض فى حوض أولاد عوف الكبير وحوضهم الصغير والتى كانت كلها ملكا لهم فى الزمن القديم الذى لم يشهده وتلك التى صحا ليعرفها وعاش ليحرسها ويحافظ عليها ، كان يشير إلى البعيد بسبابته التى تتحرك بشكل أفقى لمسافات طويلة تقل بسبب ما صار إليه الحال بعد أن فرط الكبار فيها ، كنت أشاركه زهوا محسورا على ما كانوا يملكونه من أرض براح تصل لآخر زمام الكفر وأتأسى معه على ما صار إليه الحال وقد تحركت الحدود وضاق الحيز المملوك بسبب أنهم فرطوا فى الكثير ، كان يشير بالسبابتين الى تلك المساحة التى كانت ما تزال فى حوزته قائلا بتسامح وهمى :

- الله يسامحهم بقى ، كبارات العيلة ما كانوش عارفين قيمة الأرض ، أغلط لو قلت إن عقولهم كانت فاضيه زمان ، الله يرحمه جدك عبد القادر كان أنصحهم ، وقف للمرحوم أبوه لاجل يمنعه من بياعة الأرض ونفذ غرضه ، ولولا إن الراجل حسب ما سمعت كان بيعمل له ألف حساب كان باع أكتر زى إللى باعوا ، ولو كل رجالة العيله عملوا زيه كان أكتر من نص زمام الكفر فضل ف إيدينا ، بس ح نعمل إيه ؟

- المهم تحافظوا ع الموجود .

- الموجود ؟ دا أنا ساعات يتهيأ لى أشيل حديد الحد بين أرضنا وأرض " المدعوق " سلمان شلبى واللى يحصل بعدها يحصل ، أصله خدها بتراب الفلوس ، إيه قولك إنى منعت أنفاره تنزل نص الفدان إللى ناحية

التابوت زرعتين اتنين ، بس دول كانت لهم حكاية يا أستاذ .

- ما بلاش حكاية أستاذ دى وتقوللى يا سيد ، دا أنا أخوك .

- ما أقدرش يا أستاذ ، لسانى ما يطاوعنيش ، سيبنى على راحتى ، لو طلعت لوحدها مش ح أمنعها .

بدا لى أنه لو استطاع بالفعل ما وضع بينى وبينه حاجزا كان بالفعل يحسه فقلت لنفسى إنه سوف يتخلص منه فى مستقبل الأيام فلم أضغط عليه وتركت له حرية اختيار الوقت ليزيح ما يمكن أن يكون حدودا تلزم مراعاتها بينى وبينه ، وبدا لى أنه لم يكن ليتراجع أبدا لو استطاع عن إزاحة الحدود أو إزالتها بينه وبين سلمان شلبى ، تأكد لى أنه لا يحب أولاد شلبى وأن كراهيته لهم كانت بلا حد بسبب حدود الأرض على وجه التحديد، وربما كانت رغبته فى إزالة الحد بينه وبين أرض سلمان شلبى تقابلها فى الناحية الأخرى كراهية توازى كراهيته أو تزيد ، لكنهم كانوا يستطيعون تزويد المساحات على حساب أولاد عوف الذين كانوا بحساباته فى غفلة جعلتهم يفرطون فى أرض زرعوها وعجنوها بكد أعمارهم وأنهار عرق عيالهم وأبقوها قادرة على الإثمار لحساب الغرباء ، هل وسوست لى الرياح فى الاذنين بهمسات اعتذارات فات أوانها ممزوجة بتحذيرات من معاودة تباعدى عن كفر عسكر أو الابتعاد عن أولاد عوف لأشهد بنفسى وأفسر وأكتشف صلابة الجنور ؟

- ولو إنى ما بحبش الجماعه دول من أصله ، إنما الواجب برضه ما دام نزلت الكفر تشوف الست والدتك ،أصل عيب تبقى رايح جاى ولا تشوفكش ، أصل إنت ضناها ع البعد والقرب يا أستاذ ، هو أنا لا مؤاخذه ح أعلمك الأصول ؟

- بس ، قصدى إنت عارف إنها ...

ما أنا عارف ح تقول إيه ، أنما دار جدك عبد الستار موجوده والست والدتها موجوده ويصح برضه تفوت عليها ، ما هما أهلك برضه ، والأم ما بتتعوضش مهما إن كان .

شعرت بشيء من الوجع ، ربما لأنه كان يتكلم منذ لحظات عن أولاد شلبى بكل كراهية وربما بازدراء وأنه لم يخف مشاعره عنى واثقا أننى لم أكن بقادر على منعه أو التفكير فى الاعتراض عليه لأننى أنتسب لهم من ناحية الأم ، كان من العسير أن أنسى حكايات أبى عنهم وعنها وكيف أنه أحيانا كان ينسى نفسه ويوشك على لومى وتوبيخى واهما أننى منهم أكثر من كونى ابنه وأحمل اسمه الذى يتباهى رغم كل شيء به فى كل المناسبات، حتى فى حالات المرارة التى سببتها له سنوات اغترابه غصبا كان يعتز بانتسابنا لهم ، وها هو صالح يعبر بكلماته على سطح الجرح أو يغوص بمشرط بتار على منطقة الوجع القديم ، وعلى نحو غامض كنت أشعر أنه مثل أبى مستعدا أن يلومنى لأن أمى التى يوصينى عليها من أولاد شلبى وربما كان صالح يعتبرها بكل الحسابات السارية مسئولة عن أزمته لأن أبى تزوجها بعد أن شاغلته بجمالها فترة وكيف أنه ترك صالح بحسب ما شاع أيامها بسبب أمى ليكون فى رعاية أمه فكابد حرمانه من رعاية الأب على العكس منى لأننى انحرمت من تلك الأم ، وربما كان يوضح لى الفارق بينى وبينه لأنه ينتسب لأولاد عوف أما وأبا بينما أنا خليط أو نتاج أسرتين متنافرتين ومتصارعتين على امتداد سنوات ، وفى حكاياتهم أسقطوا ما كان يرويه أبى عن زوجة أبيه الثانية وكيف أنها كانت وراء إخراجهم من الدار ، كانت المسائل شائكة ومتداخلة ، لكننى كنت أحاول استعادة ملامح أمى المستحيلة فلا أستطيع رغم معرفتى بأنها تتنفس وتعيش فى حيز نفس هذا الكفر الصغير ، قريبة جدا وبعيدة المنال جدا فى

ذات الوقت ، كان من الصعب أن أحدد هدفه من اقتراحه المباغت أو أستطيع أن أتخلص من بعض الخجل الطارئ فغيرت الموضوع :

- نخلة البلح بتطرح بعد كام سنه ؟

- ما هى الست الوالده لو شافتك فى بيت أبوها يبقى أكرم لك ولنا كلنا ، ودى حاجات ما تآخذنيش فى الكلام نفهمها إحنا أكتر منك ، أصل إحنا مزروعين وياهم وعارفين .

- أكيد .. أكيد يا أبو محمد .. أكيد

- الناس دى ف الأصل ما لهمش أصل وكلامهم كتير ، وانت تخصنا أكتر ما تخصهم ، ولا انت لك رأى تانى لا سمح الله .

- أبدا ... كلامك مظبوط ، وأنا إسمى برضه سيد عوف .

- خايف تكون بتريحنى وخلاص .

لم أعلق على مخاوفه وكأننى استنكرتها بصمتى فلم يواصل كلامه فى نفس الموضوع ، لعله اكتفى بما وصل إليه ولعله أراد أن يعفينى من إحساس بالارتباك الممزوج بأسى كامن قديم ، كان هو قد لمح فى البعيد ابنه محمد راكبا الحمار وواضعا أمامه سبتا يحمل فيه الغداء بحسب ما قال لى ، كنت أشعر بالعطش ، مجرد عطش ، أتلفت حولى خلسة لأرى قلة ماء فلا أجد ، لكننا عندما عدنا الى تكعيبة العنب التى تغطى زريبة المواشى وجدت ضالتى، أخذت قلة الماء ورحت أشرب وأشرب راغبا فى أن أرتوى بينما كان هو ومحمد يفرشان الأرض ويفرغان محتويات السلة من خبز جاف تحت فطير مشلتت وصحنين من جبن قديم وجبن قريش ولا أدرى كيف كان الولد يحمل طبق العسل الأبيض مملوءا دون أن يتسرب منه شيء ، كان أولاد العائلة يتوافدون من غير دعوة تباعا وكأنهم على موعد مسبق ، يتحركون حول المائدة الأرضية وينظرون بفرح لمن جاء بثمار الخيار والقثاء

والطماطم أو خضروات الغيطان، يرصونها رصا بشكل شبه منتظم ثم يشيرون ناحيتى بشكل جماعى يدعوننى للجلوس أولا، جلست ورأيتهم وهم يتناولون طعامهم بشهية ويتأملوننى خلسة ثم يقدم الواحد منهم لى واحدة من أنضج الثمار بعد أن يمسحها فى فوطة كانت تغطى السبت فآخذها شاكرا وأقضمها، كنت أشعر بمزيد من العطش وأشعر أننى لن أرتوى أبدا، أتذوق تنفيذا لوصاياهم من الفطير والعسل والجبن لكننى أشعر بوجع كان مخفيا وجاء أوانه، لعله كما كان قد قال أبى وجع الزمان الذى ضاع فى بلاد غريبة عن الأرض والناس، تباعد وابتعاد ونفى بالرغبة وبالغصب وهروب ينتهى بدخولى الحلبة باختيارى مطالبا بحسب ما أوصانى أن أتحسس خطواتى وأفكر قبل أن أتكلم وأمشى بينهم وهم أهلى على الصراط المستقيم الذى يرضيهم ولو على حسابى: - حد يبقى معاه ضيف باشا كده ويغديه ف الغيط ؟

- وقال إيه ، فطير مشلتت وجبنه قديمه وعيش مقدد .

- يا خويا إنكتم منك له ، مش يمكن هو إللى عايز كده ؟

- بقى المتربى بتاع المدارس ح يقول له غديني وياك ف الغيط ؟ دول فى البنادر بيتغدوا فراخ ولحمه وحمام ورز وطبيخ ، مش زيكم كده .

- إيوه يا جدع، غداهم عشاهم وفطارهم غداهم وحاجه تلخبط الدماغ، مش كده برضه يا أستاذ ؟

- بس يا خويا إنت وهو ، هو معبركم ولا حتى بيرد عليكم .

- ما ترد عليهم يا أستاذ .

قالها صالح وكأنه يسكت الكل ويدعوهم للنظر ناحيتى لسماع ما يمكن أن أقوله تعليقا على عباراتهم التى كانت تبدو لى مداعبات ومناوشات لإخراجى من حالة التوهان التى لاحظوها وحاولوا إبعادى عنها ، قلت وأنا أنظر إليهم جميعا بمودة : - أنا عايز أسمعهم يا أبو محمد .

- أهو رد عليك زى النوات إللى بيتكلموا ف الراديو .

علق فتحى فشعرت بالرغبة فى الضحك ولم أمنع نفسى، ضحكت فضحكوا وظللنا نضحك بشكل متواصل وبصوت مسموع كان ينوب فى الفراغ المكشوف ومنه للسماء، لكننا عندما سكتنا فى توقيتات متقاربة تبادلنا فى صمت نظرات الاندهاش .

جاءتنى سالى سكر فى الظهيرة كما وعدت ، ومن حقيبتها أخرجت كارت "بوستال" وناولته لى ، كان مرسوما عليه ولد وبنت فى سن الصبا المبكر ، كان الولد يركب حصانا أبيض ويرتدى عباءة تليق بفارس من العصور الوسطى والبنت تنظر إليه بمودة وتتابعه من مكانها على يمين الحصان الذى يبدو جامحا يوشك أن يطولها برأسه الصاخب بينما هى ثابتة فى مكانها وكأنها لا تعرف الخوف أو تنشغل بأكثر من مطالعة الصبى مفتونة بهيئته وتتطلع لنظرة منه ، كانت البنت ترتدى ثوبا ورديا مشرقا وتضع فى شعر رأسها زهرة بنفسج أكبر من أى زهرة بنفسج بالمقارنة لحجم البنت المرسومة ، كان الشكل قد استهوانى وأجبرنى على أن أتأمله بإمعان وأتفكر فى دلالاته ومقاصد الرسام المخفية ، بنظرة خاطفة رأيتها تنبهنى لإطلالة خاطفة للوجه الآخر من الكارت فقلبته لأقرأ كلاما مكتوبا بخط جميل ومقروء براحته " إلى فارسى وحارسى فى عيد ميلاده «سالى سكر» والتاريخ المثبت تحت العبارة يوقظنى ويذكرنى بأنه تاريخ ميلادى، من دهشتى نظرت إليها وعلى طرف لسانى سؤال عن الكيفية التى عرفت بها تاريخ ميلادى لكنها أومأت لى بوداعة ومودة قبل أن تقول :

- كل سنه وإنت طيب .
- بس ، عرفتى إزاى ؟ أنا نادر لما أفتكر عيد ميلادى .
- المهم إنى عرفت .
- أول عيد ميلاد حد يفتكرنى فيه ويفكرنى بيه .
- ح تفطرنى فين بقى ؟ أنا صايمه ودا مش أى عيد ميلاد .
- تصورى إنى مولود برضه ف شهر رمضان ، ح تفطرى فين ؟ الحسين كويس ؟

- كويس جدا .

تسكعنا فى وسط المدينة ساعتين قبل موعد الإفطار حدثتنى خلالهما عن أمها التى تتحمل مسئولية البيت منذ أصيب والدها بمرض مزمن أقعده عن العمل والحركة تماما ، عن شقيقها الوحيد الذى يطمح فى دخول كلية الطب وشقيقتها الكسولة الأكبر منها والتى رسبت فى دبلوم التجارة للمرة الثالثة ، ولم تخجل من الاعتراف بفقرهم الذى أجبر الأم على عمل أى خدمة للأكابر فى سبيل تدبير ضروريات الحياة وإكمال تعليمهم ، تريكو وكنافاه وإبرة وتفصيل وخياطة غير أعمال متنوعة بحسب المطلوب طبخ ومسح وغسيل وعمل ستائر وتنفيض سجاجيد ، أحاول أن أجعلها تكف عن مواصلة الكشف عن التفاصيل الجارحة التى لا لزوم لها فلا تكف ، كأنما وجدت إنسانا ظلت تبحث عنه منذ سنوات ليسمعها وتبوح له بكل ما ظلت تخبئه عن كل الدنيا ، لا بد أنها شعرت بنوع غريب من الراحة لأنها تبدلت وابتسمت وأشرقت وهى تتناول وجبة الإفطار بشهية تؤكد أنها كانت بالقطع صائمة ، سألتها إن كان الوقت قد حان لتعود لبيتها فهزت رأسها نفيا :

- مش ح أرجع قبل إحداشر ونص .
- تيجى نروح العوامة ؟
- ح أروح معاك مشوار ف شارع خيرت الأول ، ممكن ؟
- ممكن طبعا .

كان مشوارا قصيرا ومزحوما فى ذاكرتى بكل الاحتمالات ، ولولا أن المتولى وأعوانه فى شركة المقاولات كانوا فى عملية طنطا لخفت عليها من

الشارع كله ، كان الطرابيشى العجوز هناك على الرصيف الآخر وهى تنظر ناحيته وتبدأ العبور وأنا أتبعها دون أن يخطر ببالى أنها سوف تدخل من باب العمارة وتجعلنى أتبعها صامتا ومرعوبا من تواجدها فى مكان فاسد بشهادة كل الجيران ، وعند باب الشقة وقفت وقالت بجرأة :

- افتح . مش معاك مفتاح ؟ مستنى إيه ؟

وفتحت ، كان المكان خاليا وهى تتحرك فى كل أركانه ، تقلب الكتب المرصوصة على الرفوف وتبدلها وكأنها تعرف طبيعة المكان وكل ما يجرى بين جدرانه ، همست وهى إلى جوار المكتبة :

- مكتبه خطيره ، كل الكتب دى بتاعتك ؟

- لا طبعا ، دى شقة واحد صاحبى و . و . وما يصحش نقعد فيها وهو مش هنا ، يعنى ، أصل ، مش عارف أقول إيه ؟ ننزل أحسن ، ننزل.

قلتها وتوجهت ناحية الباب وهى مجبرة على أن تتبعنى ، كان وجه طلبه كابسا على مخيلتى وكان أخوف ما أخافه أن يراها فيظن أنها واحدة مثل كل بنات الليل وبنات النهار ، سرنا صامتين فى اتجاه العوامة وكأننا نعرف وجهتنا ونتعجل الخطوات ، دخلنا نفس العوامة وجلسنا فى نفس الركن وبدت لى خبيرة أكثر من اليوم السابق فبادلتها الخبرة بكل براءة ، ألمحت لى أنها تخشى أن أنظر إليها باعتبارها معدومة الأخلاق مثلا وأكدت أنه لولا أننى أوقعتها فى حبى من أول لقاء غصبا عنها ما فكرت فى زيارة بيتى وهى مطمئنة تماما أنها فى منطقة الأمان الكامل، وعند بوابة العوامة أشارت للتاكسى فركبناه متجاورين. همست تسألنى إن كان ما فعلناه حراما أو حلالا فطمأنتها بأن الحب يغفر الخطايا البسيطة ، أبدت ارتياحها بينما تنزل فى نفس المكان وتبتسم ثم تلوح لى بنفس الإشارة وتعدنى بلقاء

فى الواحدة بعد ظهيرة الغد .

فى اليوم التالى كنا قد وقعنا فى دفتر الانصراف دون أن تأتى نزلت برفقة الحاج حسن الذى كان يستشعر قلقى ولا يفاتحنى ، لكنه لمحها واقفة فى ركن عند باب المبنى المجمع فأومأ ناحيتها ولوح لى بيمناه ، لوحت له وهززت رأسى مودعا ثم اتجهت إليها فبدت لى متجهمة الملامح على غير ما كنت أتوقع منها ، سرت فى اتجاه العوامة بشكل آلى لكنها سحبتنى لشارع القصر العينى ثم اتهمتنى بالكذب عليها مرتين فاندهشت. وقفت قبالتى وقالت إن القبلة حتى ولو كانت بريئة تفطر الصائم على العكس مما أكدته لها ، وقالت أيضا أنها خالفت الشرع وأننى خالفته ، بينى وبين نفسى كنت أعرف أنها تتكلم من وراء قلبها وعقلها أيضا ، وتعجبت لأنها اختطفتنى من صديقة عمرها بكذبة محبوكة والكذب حرام وخروج عن تعاليم الرب الخالق ، وأنها رافقتنى بعد وجبة الإفطار فى الحسين ودخلت مسكنى حيث كان من الممكن أن يحدث ما لا يحمد عقباه ، وحتى لو صامت أو صلّت فلن يغفر لها المولى أنها بدأت ملاعبتى وإغرائى وعابثتنى بقصد ، تذكرت أبانا آدم وأمنا حواء وثمرة التفاح والمثل السارى الذى نردده ساخرين " فتش عن المرأة "، فلم أعترف بهزيمتى وتحذلقت متصورا أن الحذلقة فى مثل هذه الحالات خير وسيلة للدفاع ، وفكرت فى التجديف بالكلمات بهدف اختبار إيمانها الذى تدعيه لكننى منعت نفسى وحاولت أن أهون عليها الأمر قائلا لها إن الرب غفور رحيم وعالم بحالنا فتظاهرت بالاقتناع وطالبتنى بتوصيلها فلم أمانع، قبل أن تنزل أكدت بلسانها أنها سوف تراني ولم تحدد المكان أو الزمان ، ولعلنى لم أهتم بها كثيرا أو انشغلت عنها بما كان يحوطنى ، قلت لنفسى إنها مجرد بنت مجنونة وقد تتصور مثلا أننى سوف أذهب إلى

مساكن زينهم وأنادى باسمها فتسمع صوتى وتنزل ثم تعتذر عن الغياب أو أذهب فى مواعيد الدراسة وأتسكع حول كلية الصيدلة متطلعا لوجوه الطالبات حاملات المعاطف البيضاء فأراها بينهن فى لحظة خاطفة وارتمى فى أحضانها نادما وتائبا ، لكننى لم أكن قد أصبت بمثل هذا النوع من الجنون أو خسرت قدرتى على مواجهة موقف عابر عمره قصير مع بنت ضامرة الصدر قصيرة القوام وإن كانت جسورة فى عبثها وفرض وجودها على غير توقع بحساباتى ، لم أكن محروما من مثل هذا العبث السطحى ، ربما كنت على العكس فى تلك الأيام قد شبعت لحد التخمة لأن بعض المحترفات البارعات فى الملاعبة كانت تأتى طوعا وبشكل متواتر أبدانا وأشكالا متباينة المستويات الجمالية والمظاهر لمسكننا متطوعات ودون سعى، أحيانا كانت زحمة الأصدقاء والوافدات تزيد عن قدراتنا على الاحتمال فنحاول الفرار بسك الباب وعدم فتحه متلصصين وراء العين السحرية لتكشف لنا هوية الواقف أمامه ، وقلت لروحى إن الوقت أغلى من الذهب وأن إهداره على هذا النحو حمق وغباء لا مبرر لاحتماله ، ومن أدرانى أن لم تكن هذه المقابلات مصادفات مدبرة يعلم المولى جل جلاله من ذا الذى يدبرها ؟

●●●

وقفت أمامى بشعرها المسترسل الهفهاف الذى يزود الوهج الطالع من سمرة الوجه ، سمرة مصرية تعيدنى للزمن الفرعونى ، كانت تحمل المعطف الأبيض على ذراعها اليسرى وبخفة تلملم خصلات شعرها الأسود الخالص وتبتسم وهى تدارى بكشاكيل المحاضرات المحمولة فى يدها الأخرى تفاصيل صدرها النافر. قلت لروحى : هى صيد يستأهل السعى والرمح

وكل المهارة فاحفر لو استطعت للصيد فخا غويطا لتزهو بنفسك ، جلست دون إذن فخمنت أنها زميلة سالى ولم تخذلنى هى لأنها قالت برقة :

- أنا ابتسام ، زميلة سالى سكر .

- أهلا يا ابتسام ، هى فين ؟

كان الشيخ عبد الله يطرقع بقبقابه فى الممر وكأنه يعلن أنه آت ليقيم الصلاة، لا بد أننى شعرت بالحيرة والارتباك والقلق وربما شعرت هى بذلك فقامت واقفة ، قمت بشكل آلى وتبعتها وهى تخرج من باب الغرفة، سألتها وأنا أتلفت حولى وكأننى مازلت أبحث عن كائن يتخفى منى ومن ابتسام :

- على فين ؟

ابتسمت هى ولم تجاوبنى على السؤال الساذج ، ربما قرأت فى عينيها سطورا تتهمنى برغبتى فى حصارها باعتبارها بنت سهلة المنال ، لا بد أنها لاحظت انبهارى بمظهرها ، كانت متألقة الوجه واثقة من قدرتها على لفت الأنظار إليها بينما نخرج من باب المبنى المجمع ، ابتسمت وسرت بحسب ما توجهت خطواتها ، حسبتها جاهزة لأقودها إلى عوامة عم دهب مثلا لكنها سارت فى الاتجاه المعاكس تماما ، سرنا صامتين فى الشارع ولفترة طالت وأنا صابر حتى باغتتنى بسؤال عن شكل علاقتى بسالى ، قلت لها كل شيء دون حذر أو تحفظ فهزت رأسها ثم باغتتنى للمرة الثانية بالسؤال المخجل :

- بس كده ؟ معقول ؟ أتاريها زعلت خالص منك .

- مش فاهم .

- ليه ما حاولتش تكون إيجابى معاها أكثر ؟

أبديت اندهاشى وتمنيت لو تكون هذه البنت قد جاءتنى لأقع فى

غرامها على حساب سالى مثلا ، لم أكن لأمانع لكننى خفت فى ذات الوقت واسترجعت وجه فاطمة التى أسهمت بسبب جمالها المشهود به أن أتحول إلى كائن قابل للتداول أو كرة تلعب بها مجموعة بنات ، تحفظت فى كلامى ثم عاودت سؤالى لها متخابثا عما تقصده بنصيحتها لى أن أكون أكثر إيجابية فنظرت ناحيتى باستنكار قبل أن تقول لى إنها سوف تترك لعقلى تفسير كلمة إيجابية وأضافت أنها واسطة خير ، كان شعرها الناعم يتطاير فأوشك أن أغازلها لولا إحساسى بصرامة الملامح الجميلة التى تعلن دون كلام منطوق أنها لا تخصنى وأنها واسطة خير بالفعل ، وعندما ودعتنى بإيماءة ودون مصافحة تأكد لى أنها عرفت الكثير عنى من سالى أو من غير سالى وفكرت أنها تستحق قصيدة أكتبها عن لقاء عابر .

كنت أيامها قد تناسيت حكايتى مع سالى بالفعل ، ربما لأن شقة الحلمية الجديدة التى استأجرتها وحدى بعد انتحار المتولى قد تحولت رغم النوايا الحسنة إلى محاولة فاشلة للنسيان والتباعد عن الانفتاح الزائد الذى عشته مع شلة " الغلب" كما كان المرحوم يسمينا ، تحولت بقدرة قادر رغم إرادتى وضيق ذات اليد إلى امتداد متواضع لشقة شارع خيرت حسبما شاع ، امتداد لا ينقصه غير المتولى وزمن المتولى الذى عبر حياتنا على نحو متعجل وخاطف ، والمتولى رحمه المولى كان حكاية لا يحق لى أن أداريها أو أخفيها مهما تحصنت برغبة الكتمان تأدبا أو رهبة من الخروج على النص كما يقول الأساتذة المتخصصون فى بعض الدراسات الأدبية المنشورة، لكن سالى بحسب ما تأكد لى بعد ذلك كانت خطوة حتمية تالية لزمنه على غرار الحتمية التاريخية وإن لم يسعدها الحظ برؤيته أو يسعده برؤيتها ، لكن المسألة لم تكن تحتاج إلى رؤية متبادلة ، ربما لأن الأحداث أكدت أنه هناك

علاقة تحتية بين ظهورها فى حياتى وغياب من أطلق علينا اسم شلة «الغلب» والذى تنازل عن الحياة باختياره الحر ورحل ثم تحول إلى ذكرى ساكنة فى الأدمغة بثبات ومن المستحيل أن تسمح لنفر مثلى بالفرار منها أو نسيانها .

●●●

حدثتنى عبر الهاتف فلم أميز صوتها الساخر والشامت ، كنت محاصرا بصوتها الذى بدا لى مسموعا لكل من كانوا فى حجرة الأستاذ شلتوت وكيل الإدارة وبطانته الدائمة من صغار الموظفين البارعين فى هز الرؤوس والتظاهر باستخلاص النتائج ممن يرد على أى مكالمة مع الجنس الناعم حتى لو أكدت من طلبته بأنها أخته أو أمه أو ادعت قرابتها أو زمالتها له إذا كان شابا مثلى لم يرتبط بشكل رسمى ، حاولت تقليل ردود أفعالى بينما أسمع عباراتها الساخنة التى تتهمنى بالغدر وعدم الوفاء لصديقة عمرها ، تلومنى على قلة أدبى وحيائى وتوحى بجرأتها أنها تعرف تفاصيل علاقتى بسالى ، تصف فرارى بالخسة مع من تعلقت بى وضحت بالكثير لإسعادى ، وطافت بخيالى ملامح كل البنات التى عرفتنى عليهن سالى أستعيد الأصوات ولا أنسى فاطمة التى عرفتنى على سالى فلا أتعرف على صاحبة الصوت من بين كل من حاورتهم من معارفها وزملاءها ، وبدا لى أننى كنت أسمع همسات صوت أنثوى آخر يطلب منها أن تتخفف ، فتستجيب وتلوم بخفة خاطفة قبل أن تندفع مرة أخرى :

- مش عرفت إنها نجحت وما فكرتش تروح تبارك لها ؟
- أصل ..
- أصل إيه وفصل إيه ؟ أنا عارفه كل حاجه بينكم وأقدر أوصف لك

عش الغرام ، هو فيه حاجه بتستخبى ؟ أقول كمان ؟

- طيب ، بعدين بقى ، ح أبقى أكلمك ف البيت .

قلتها ووضعت السماعة متظاهرا بأننا اتفقنا على كلام مؤجل بينى وبينها ، كانوا يتبادلون النظرات المرتابة وكنت أفكر فى شكر الأستاذ شلتوت قبل خروجى من الحجرة ، لكنه سألنى :

- مين دى يا أستاذ سيد ؟

- دى واحده جارتنا ف البيت .

- جارتك إيه ؟ دى رطرطت عنك بكلام فارغ وقالت حاجات ما يصح بنت تقولها لواحد زى حالاتى ما تعرفوش ، بينها وبينك إيه ؟ ما تكونش متورط معاها ف حاجه كده ولا كده ؟

- لا لا لأ ما فيش ، ما فيش حاجه من دى خالص ...

- على كيفك ، تقول ما تقولش ، على كيفك .

- عن إننكم .

قلتها وانسحبت من الحجرة وكل العيون تتابعنى بارتياب ، ربما سمعت همساتهم وضحكاتهم التى شيعتنى ، لعلنى كنت أتعجل الوقت لأفر من الإدارة وأختلى بنفسى فى أى مكان ، لكن الوقت كان يبدو لى بليدا ومنهكا بأكثر من قدرتى على الانتظار فأغلقت أدراج مكتبى وانسحبت لأنزل إلى الميدان الذى بدا لى ضيقا جدا وخاليا من كل المخارج الآمنة . سرت فى اتجاه مسكنى الذى لم يكن لدى بديلا عنه لأجلس حائرا عاجزا عن مواجهة سالى وأمها ولو من باب تأدية أبسط الواجبات بالمباركة للبنت بعد معرفتى بنجاحها شأن الغرباء. ترددت وأنا أخلع ثياب الخروج ثم خلعتها وعدت

لأرتديها عازما على الذهاب إلى مساكن زينهم ، ثم ترددت وجلست ، تمددت على طرف السرير لأسأل نفسى عن العبارات التى يمكن أن أتعلل بها لأننى غبت كل هذا الوقت ولم أنفذ ما كنا قد اتفقنا عليه فى صباح تلك الليلة القاسية والبشعة والتعهد الذى قطعته على نفسى بأن أدبر أحوالى وأتقدم طالبا القرب الرسمى منهم شأن أى رجل محترم بعد نشر أخبار نتيجتها فى الصحف منذ أسبوعين ، لكن هل كان من الممكن خلال تلك الأيام أن أذهب لأعلن لهم عجزى عن تنفيذ وعدى ؟ وهل كان من الممكن أن تكون الظروف التى صادفت أمى علة مقبولة عندهم فى مثل حالتنا ؟ ثم كيف وصلت أخبارنا إلى تلك التى حدثتنى على هذا النحو الفاضح فى مقر عملى والتى " رطرطت بكلام فارغ أجهله " حسبما أكد الأستاذ شلتوت ؟ وتأكد لى وأنا مرتبك وتائه أن العجز المادى يكسر الأنوف والرقاب مهما حاولت الانتصاب أو الشموخ اعتزازا بالذات ومهما كان الإنسان يستند على قدرات أو معرفة وطاقة تدفعه للبحث عن حياة أفضل تليق بالإنسان لأن الفقر آفة تستلزم الحرب والاستئصال رحمة بنفوس البشر وأبدانهم ، لكنه لابد وثابت وكاتم على الأنفاس ، الفقر علة الفقراء ومشنقة من يحلمون من نوى الطموحات المعدمين أمثالى، كانت تتبدى لى فى البعيد طائرا يرفرف بجناحيه طلبا لإنقاذه ، أتحسر عليها لأنها سلمت نفسها باختيارها لقبضتين عاجزتين عن حمايتها أو القدرة على الارتباط بها بشكل مشروع بسبب الفقر فانفلتت من بين الأنامل بعد كل ما تعرضت له من قسوة أحب الناس إليها.

كانت تأتينى فى منام ناعم فأشعر بارتياح أو تأتى فى كابوس مفزع

فأنتفض من مرقدى لأراها وقد جاءت تحدثنى بمودة لتغفر لى التباطؤ عن وفائى بالوعد غير المقصود بسبب ضيق ذات اليد ، وفى غفوات أشبه بالأحلام تتداخل المواجع مع الرغبة الكامنة فى استعادتها وإحاطتها بحماية الفقراء لبعضهم البعض باللحم الحي، تسألنى فى الغفوة الخاطفة مثلما كانت تسألنى صاحية :

- عاوز إيه ؟
- عاوز آخدك ف حضنى ..
- خدنى .

وفى الغفوات آخذها فى حضنى بكل مودة لأخلصها وهى وردة ضامرة لها عطر فواح ومحاطة بشبكة من الأشواك ، وكلما نزعت شوكة طلعت مكانها شوكة أصغر منها فى نفس المكان فأنزعها ، يطلع مكانها شوكة أقل حدة فأنزعها وتترك مكانها مشروع شوكة لم يكتمل ويمكن أن تتحسسها الأنامل بلا حذر ، والأشواك التى أنتزعها تتساقط ببطء ولكن بإصرار منى على تحريرها ، ولا بد أننى خلصتها تماما من كل ما كان يحيطها من أشواك أكثر من مرة ورأيتها قبالتى وقد تألقت وبدت لى مثل إيزيس الخالدة فى حضن أوزوريس قبل أن يغدر شقيقه الشرير بها وبه ، يمزق أعضاءه ويوزعها فى كافة الأرجاء ساخرا من إيزيس وهى تلملم الأعضاء مرة أخرى بكل العسر وتمنحه أعلى مراتب الخلود ، وفى الإغفاءة وبرغم ضآلة البدن كانت تملأ الصدر والقلب والمشاعر كأنها طفلة من صلبى أو أننى طفل طالع من بين أحشائها وقد عاود الامتزاج بها فشعر بالارتياح الذى لا يدانيه أى ارتياح ، والطفلة / الأم التى لم ألتق بها فى السابق تتجلى لى فى لحظات مخطوفة من الزمن الدوار، لعلها باحت لخلايانا المشتركة أنها سوف تقدر

على طمأنتى وإشباعى ولعلنى وعدتها بالحماية والرعاية والاكتفاء بها لتكون هى الأم / الأب / الأخ / الأخت بالإضافة لكونها الزوجة العاشقة والمعشوقة.

أفزعنى جرس الباب وأخرجنى ذات صباح من جنتى الوهمية لأراها قبالتى على نحو مغاير تماما ، تزيحنى عن طريقها وتجلس صامته على طرف السرير ، مطرقة الرأس بعكس ما كنت أتخيلها فى غفواتى الخاطفة ، أسألها عن أحوالها فلا ترد ، أقترب منها فتتباعد عنى ، أصمت لأمنحها فرصة اختيار الكلمات لتشرح لى ما جرى لها فتصمت أيضا ، لكنها بعد فترة قالت بأسى ومرارة :

- ابتسام سقطت .

خفت أن أهون عليها الأمر لأنها كانت فى حالة لا تقبل التهوين من فداحة ما حدث ، خفت إلى حد أننى لم أتجاسر على تهنئتها هى بالنجاح الذى هو فى نهاية الأمر مفتاحا من بين مفاتيح الغد نسعى لامتلاكه ، يتأجل أو يتأخر لكنه من بين مفاتيح خلاصنا المأمول ، لذت بالصمت فسألتنى وباغتتنى بسؤالها :

- تعرف دكتور بيعمل عمليات إجهاض ؟

قلت لنفسى أن حبوب منع الحمل خانتنا ووضعتنا فى مأزق وأنه ليس بالمأزق السهل ، وفكرت فى كل الاحتمالات فى زمن صمتها الذى كان احتجاجا بحسب ما تصورت على جريمتى ، قلت لروحى أنه من الممكن أن نعقد قراننا رسميا بأقل تكلفة ممكنة بديلا عن التخلص من جنين هو ابنها بمثل ما هو ابنى ، وفكرت بأنه ليس من الضرورى أن نغامر بجراحة غير مأمونة على كل المستويات ، لكن سالى قالت بمرارة أكثر :

- ابتسام حامل والندل هرب بعقد الجواز العرفى معاه ، يعنى البنت راحت ف شربة ميه .

- كل مشكله ولها حل

- إنت ح تفتى ؟ ما لهاش حل ، دا سافر على بره وسابها وهو عارف إنها حامل ، أنا إيه إللى كان جابنى هنا ؟

قالت عبارتها الأخيرة وقامت من قعدتها القلقة ، توجهت ناحية الباب وفتحته رغم محاولتى إيقافها لمعاودة فتح الموضوع والبحث عن حل وبينما تخرج قالت بشكل عابر وهى تتحرك نازلة بتعجل :

- خليك ف البيت ، يمكن أحتاجك .

كان من المستحيل أن أفكر فى اللحاق بها وأنا فى ملابس البيت وهى ترمح رمحاً وراء تاكسى توقف استجابة لإشارة منها وهى تنزل السلم ، وجلست وحدى لأتأكد أننى فى الهامش غير الفاعل فى هذه المدينة ، وكرهت الكتب المرصوصة فوق الرفوف لأنها لا تستطيع مساعدتى على تجاوز أزمة بنت مأزومة بمثل ما تعجز عن فك اللغز الخاص بوجودى نفسه ، هو وجود بالصدفة غير المدبرة أو بالصدفة المدبرة ، لكنه وجود يشبه العدم ، العدم الذى كان المتولى يحدثنا عنه باعتباره مصيرا حتميا لكل الكائنات الحية وكم كنت أعترض على سوداويته ونظرته المتشائمة لكل ما يحيط به وبنا ، لكن تبادل الأدوار اجتاح نصفى المتشائم خلسة وجعله يكره اليوم الذى إنولدت فيه ويطرح على نصفى المتفائل أسئلة بلا أجوبة ، ومقهورا ارتميت فوق السرير لأفر من نصفى الكاره للحياة فى مثل هذه الظروف الصعبة وبشكل متواصل دونما أن تتاح لى فرصة لالتقاط الأنفاس .

طلعت شمس النهار فاستشعرت سخونتها وهى تنحط على بدنى المتمدد

بغير إرادة مسبقة منى ، حاولت أن أظل صاحيا أنتظر البنت التى تسربت منى بعد أن أوصتنى بانتظارها فربما تحتاجنى لكننى لم أتمكن ، قمت واغتسلت لأفيق لروحى التائهة وأستعيد الحالة التى كانت عليها والعبارات التى قالتها متعجلة ، كنت مهدودا وعاجزا عن الوقوف مصلوب العود ، تساندت على الجدران ثم ارتميت على طرف السرير بعد أن أغلقت النافذة لتمنع شعاع الشمس من دخول المكان ، لكننى سمعت رنين الجرس قبل أن اشعر بالراحة ، قمت لأجدها قبالتى تسألنى :

- عارف فصيلة دمك ؟

- طبعا .

-البس بسرعه وحصلنى .

نظرت إليها وهى تنزل درجات السلم وتركب التاكسى الواقف أمام المدخل تماما ، وكان على أن أرتدى ثيابى على عجل وأخرج لأجلس إلى جوارها دون أن أعرف إلى أى الاتجاهات سوف نتجه ، لكن الوقت لم يطل لأن المسافة كانت أقصر من كل توقعاتى لأن التاكسى وقف بعد الناصية الثالثة قبل أن يصل حتى إلى الميدان ، توجهت إلى باب عمارة وأنا فى إثرها دونما كلام ، قرأت على باب واحدة من الشقق لافتة لطبيب توليد ونساء كانت له ملامح متجهمة ، لعله تعامل معى باعتبارى مسئولا عن مأزق البنت الراقدة فى شبه غيبوبة داخل الحجرة التى أدخلنى إليها لأرى جهاز نقل الدم بالقرب منها يسعفها بالقطرات ، وبإشارة منه تمددت على «شيزلونج» وشمرت كم قميصى عارفا أنه سوف يسحب دمى ليعوض نزيفا نتج عن جراحة أجراها ، كنت دائما أكره لون الدم وأكره أى حقنة تقصد شريانا أو تبحث عنه بلا مراعاة لما تسببه من وجع طفيف لكنه يتضاعف

عند أمثالى ليصل لحد الهلع لمجرد التفكير فى أن الإبرة تقتحم مسار الدم وتضيف إليه علاجا أو إسعافا أو تأخذ منه لتسعف من يحتاجه ، لكن احتمالى لم يشفع لى عند طبيب الولادة الذى كان يزوم احتجاجا على عجزى المفتعل حسبما ظن - عن رؤية قطرات الدم وهى تنفذ من فتحة الإبرة وتتقاطر فى زجاجة كبيرة كانت خالية وبدا أنها سوف تشفط كل دمى ، لكن الأوقات العسيرة تمضى مهما تزايد الوجع أو طالت المكابدة لأنه نبهنى بإشارة من يده بأن أقوم من مرقدى وأخرج من الحجرة واضعا على مكان الإبرة قطعة صغيرة من القطن وأوصانى بالإشارة أن أضغط عليها وأجلس جنب سالى التى كانت فى حالة يرثى لها ، كان وجهها مخطوفا وأشبه بوجه جثة ميتة لا تنبض تقاطيعها بالحياة ، لكنها قالت وكأنها تواسينى :

- خد منى قبلك لتر ونص دم ، بس يا رب يعديها على خير
- خير ، خير
- ما كانش فيه غيرك ألجأ له ، دى حياه أو موت .
- ربنا ح يستر .

كنت متهالكا تتساند عليه وعلى البنت النحيلة الشاحبة بنت منهارة كانت فى السابق متألقة وواثقة من ذاتها مزهوة بنفسها ، لكنها وقعت فى المطب الصعب ، نقلناها أنا وسالى من العيادة لمسكنى القريب جدا إلى حد أنه أثار ريبة سائق التاكسى وهو يوصلنا ويتابعنا ونحن نصعد بها الدرجات السبع الطالعة فى اتجاه الباب ، ارتاحت ابتسام أو ادعت بعد ست ساعات أنها ارتاحت وإنه كان من اللازم أن نوصلها لبيتها فساعدناها وأوصلناها بتاكسى تعاطف سائقه مع البنت المسكينة التى حسبها مريضة

تستحق دعواته لها بالشفاء العاجل ، لكن ابتسام لم تشف من مرضها ولم تكتب لها السلامة كما تمنينا لأن صاحبة نفس الصوت المجهول أبلغتنى بالهاتف بعد يومين فى مقر عملى أيضا أن ابتسام ماتت ، كانت لهجتها الغاضبة توشك أن تتهمنى بأننى السبب ، كنت أسمع عبارات لا أستطيع الرد عليها مفجوعا ومحزونا وساكتا ، أستعيد وجْهَ سالى وأتخيلها وهى شاحبة قابلة للموت أيضا ، أتخيل دمى ودمها ودم ابتسام مخلوطا فى بدن مدفون فيتبدى لى أن جزءا منى وصل لمدفنه وسوف ألحق به ، وصاحبة الصوت المجهول تختم كلامها بالتهديد والوعيد قائلة :

- إنت ساكت ليه ؟ فاكر الحكاية دى ح تعدى على خير ؟ لأ ، دا خالها لوا ف الداخلية ، ح يسود عيشتك وعيشة أهلك .

قالت العبارة الأخيرة وسكت الخط فحاصرتنى عيون متسائلة أومأت لهم وخرجت وتوهمت أننى أسمع ضحكات مكتومة تنطلق فى إثرى لتشيعنى باعتبارى بدنا فانيا لا تجوز عليه غير الرحمة .

●●●

رأيتهما يتبادلان النظرات ويومئ كلا منهما للآخر فاجتزتهما وسرت فى سكتى المعتادة داخلا أول شارع مجلس الشعب. تعمدت المشى بجوار السور الحديدى قريبا من حراسته المكلفة بحماية مبناه ، لكنهما كانا يواصلان السير ورائى بجسارة ثم اقتربا منى وأحاطانى من الجانبين ، وفى تعجل دس كل واحد منهما ذراعا تحت إبطى ، شعرت بأننى مضغوط ومشلول الحركة بين الجسدين العملاقين القادرين على تسييرى بالإكراه لأعبر محصورا بينهما الشارع ناحية الرصيف المقابل حيث كانت سيارة

جاهزة يجلس خلف مقودها متسارعا سائق أسمر قام بفتح بابها الخلفى وتركه مفتوحا ، دفعانى لأدخل عنوة قبل أن ينسك الباب ، ومحصورا بين بدنين ممتلئين يعصب أحدهما عينى غصبا بمنديل أسود سميك بدا لى قذرا وله رائحة منفرة ، وعندما تجاسرت وسألتهما وأنا مرعوب اسودت فى عينيه الدنيا بعشابة :

إنتوا مين ؟ وعايزين منى إيه ؟

زغدنى الجالس عن يمينى بكوعه فانكتمت تماما لأن ضغطته وصلت لصدرى وعطلت أنفاسى ، سمعته يقول :

- اخرس خالص ، ولا كلمه يا ابن ال ....

وخرست مغلوبا على أمرى حتى لا يكرر على مسامعى وصف أمى بتلك الكلمة القبيحة أو مترادفاتها . وكانت السيارة تدور فى دوائر متعاكسة ثم تنجرف انحرافات مفاجئة قبل أن تعاود الدوران ، تذكرت الحكايات التى كانت تقال عن أوامر الاعتقال غير المتوقعة والتى ربما تنفذ لمجرد وشاية أو تقرير كاره يتهم الممسوك بأنه ينتمى لأى جماعة معارضة ، وتذكرت المتولى الذى أكد مرارا بأن ميدان لاظوغلى هو الغاية الأخيرة وكل دوران أو انحرافات يهدف إلى تتويه الوعى المحصور والمحاصر عن محطة الوصول المعروفة لكل من دخل التجربة وخرج منها ولو عشر مرات ، أنزلانى وقادانى بينهما لأكثر من اتجاه ، ثم طلوع ونزول درجات سلالم وهمسات متبادلة بينهما انتهت بتثبيتى فى مكان أوقفونى فيه فلم أتحرك ، امتدت يد وانتزعت العصابة من فوق العينين بقسوة فرأيت بعسر ظلى المحبوس بين ظلين لماردين معكوسا على جدار أصم شبه معتم إلا من ضوء خافت يأتى من

الخلف ، سمعت وقع خطوات آت من الوراء وشعرت بأن البدنين تراجعا للخلف خطوة واحدة ليكونا ورائى تماما ، أشعر بزفيرهما الساخن على قفاى والأذنين. رأيته أمامى جالسا يقلب أوراقا تنصب عليها بؤرة ضوء مرئية على شكل " أباجورة " مكتب صغيرة ، وجهه المستطيل واضح التقاطيع بشفتين نحيلتين وأنف نصف معقوف ومحتقن وعيناه تتواريان خلف نظارة معتمة العدستين وقد انصبت على تقاطيعه بؤرة ضوء من ورائى وكأنها خرجت من مصدرها بحيث لا تتسع عن مساحة الوجه وجزء من الرقبة ، كان يقلب الأوراق صامتا وينظر ناحيتى ثم يعاود تقليب الأوراق ويتأملنى بإمعان أو يقيسنى ، كان لون الملف الذى يضم الأوراق التى تخصنى بالقطع أصفر قاتم ، سمعت أنة ألم مكتومة ومخزية تصدر لا أدرى من أى الاتجاهات يتبعها أمر :

- ولا نفس يا ابن الجزمه .

ثم ساد صمت كامل لأن ابن الجزمه لم يطلع منه أى نفس آخر بينما أنفاس من يقفان ورائى مسموعة ومتواترة تعقبها زفرات قلقة ، لملم الجالس أوراق الملف وأغلقه ثم توجهت العدستين فى اتجاهنا ، كل ما كنت أتمناه وأحلم به أن يكون قد اكتشف من خلال الملف أننى لم أرتكب جرما أو أنه حدث نوع من الخلط أو الخطأ يستلزم إعادتى لميدان التحرير وإعادة النهار الذى انقضى أجله ، لكننى سمعت أنة الألم المبتورة أشد خزيا يتلوها نفس الصوت الآمر بعدم إخراج النفس بنفس إيقاعه السابق فأصابنى رعب وتأكد لى أننى وقعت فى مأزق يصعب الخروج منه ، كنت أجاهد أن أتحكم فى فتحة الشرج لتظل مضمومة كى لا تتسبب فى فضيحة بإسهال كانت أعراضه ومقدماته قد ظهرت فى صباح نفس اليوم لكننى نسيت ، تجاسرت

لا أدرى لماذا لأسأل الرجل :

- لو سمحت حضرتك .. أنا هنا ليه ؟

مط شفتيه باشمئزاز ثم نزل بذقنه إلى أسفل ، وربما فى نفس اللحظة شعرت بخبطة مباغتة على مؤخرة الرأس فاختل توازنى وانكفأت إلى الأمام لأرتطم بالجدار عن يمينى ، وبدا لى وأنا أستعيد توازنى أننى أتساند على الرجلين فى نفس التوقيت وعلى وجهيهما ابتسامتين ودودتين فتشككت أن يكون أيا منهما قد ضربنى ، ربما فسرت الأمر على أنها حالة دوار مفاجئ أصابنى من هول ما كنت قد تعرضت له فى الأيام الأخيرة فما عدت بقادر على التمييز ما بين الضرب من الخارج أو داخل الداخل ، لكن ضربة فى سلسلة الظهر باغتتنى وجعلتنى أتخبط وأرتطم بالجدران والأرض وربما السقف أيضا ، كنت فى تلك الأثناء ألمح خطفا وجه الجالس وبؤرة الضوء مركزة على تقاطيعه التى بدت لى مرتاحة أو مطمئنة إلى حقها فى الفرجة المجانية ، لكننى وجدت نفسى دون وعى أو فهم أقف فى نفس مكانى السابق والوجهان ورائى يحيطاننى ويبتسمان بمودة وتعاطف ، فهل تحولت إلى عسكرى شطرنج تتحكم فى حركته أياد خفية غير مرئية وتعيده واقفا فى نفس مكانه المقبض ليتحسر على نهاره الذى سادت فيه العتمة وفرت منه الشمس ؟

سألنى الجالس أمامى وقد خلع منظاره لأرى عينيه المطفأتين عن اسمى واسم أبى وأمى وخالى وعمى القتيل فى مظاهرات المجاورين فى عشرينيات القرن ضد الاحتلال الإنجليزى فأجاوبه بسرعة بديهة ووعى فورى كنت أحسبه مستحيلا فى ذلك الوقت العصيب ، لكنه تحقق وجعل الرجل يهز رأسه استحسانا يوحى بثقته فى براءتى تماما وإن كان مكرها على

استكمال بيانات قد تبدو لأمثالى غير مهمة لكنها بحسابات الجهاز الذى يوظفه أساسية ، كأنه كان مكلفا بأن يعرف تفاصيل كيان عريان بالخوف والوجع بكل ما هو كامن وراء الجلد وداخل النخاع وخلايا المخ والذاكرة ، يسألنى مثلا إن كنت أفضل صفار البيض أو بياضه ، موقفى من الطبيخ الحامض وعما إذا كنت أقبل أن آكله أو أرميه ؟ والفارق بين القطن المصرى الذى يمكن أن يتحول إلى قمصان ومفروشات والنايلون الأمريكى الذى يدخل فى صناعة الملبوسات المهربة من خارج حدود البلد ، وأى الكلاب يثير فزعى وأيها يشعرنى بالأمان ؟ وهل أعشق البيرة أو أفضل الخمور مهما تدنت مستوياتها ؟ يسألنى إن كان الانتحار حلا شجاعا أو هروبا رعديدا يؤكد الخوف من المواجهة ؟ يدخل فى تفاصيل الكتب التى قرأتها وأعجبتنى بالفعل وكأنه كان يلازمنى أو يقرأها معى فى نفس الوقت ويرغب فى تأكيد التشابه بينى وبينه ، أجاوبه بمصداقية وبآلية ، يسأل عن أنواع السيارات متفاوتة الموديلات والأسعار فى شوارع المدينة والفروق بين الأنظمة الشمولية والحرة والخرافات ومدى تصديقى لها ؟ وكيف لم أذهب للإدلاء بصوتى الانتخابى فى آخر استفتاء بمثل عدم ذهابى فى أول مناسبة بعد استخراج أول بطاقة انتخاب تخصنى ؟ يسألنى أنه بافتراض أننى بكباشى دعانى الزملاء من نفس رتبتى لأثور على النظام الحاكم فهل أوافق على ذلك أو أبلغ الجهات المسئولة عنهم أو أختار موقف المتفرج ؟ ويسأل عن علاقتى بالجنس الناعم ورأيى فى الجنس الثالث ؟ عشرات ومئات الأسئلة المتلاحقة المتنوعة متباعدة الأغراض تتوه الدماغ الصاحى الحر لكنها تشل حركة الدماغ المحصور والمحاصر ، وبرغم كل ذلك كنت أحاول التماسك والصمود شاعرا أن الرجل قادر على تبرئتى تماما أو إدانتى بشكل كامل لأن القوانين

بحسب ما قال مطاطة وحمالة أوجه ، أتهالك ولا أشعر بنفسى إلا وأنا مرفوع من فوق أرض خشنة محمولا وقد عصبوا العينين بنفس العصابة التى استخدموها من قبل وبين بدنين سمينين مضغوطا أتوقع أسوأ الاحتمالات وأحلم بأكثرها أمنا ، تتحرك السيارة وتلف وتدور ثم تلف وتدور وتنحرف ثم تتوقف فيرفع أحدهما رباط العينين لأرانى فى نفس مدخل الشارع متروكا لأعبره على هواى . أسأل نفسى وأنا واع لنفسى إن كان ما جرى لى محض كوابيس أراها فى منامى أو أنها أوهام محبوكة نسجها خيالى الصاحى ؟ أتطلع بالعينين القادرتين على التمييز وقد تحررتا وتفتحتا لأرى ضوءا خافتا لشمس غاربة يودعنى فى أول شارع مجلس الشعب .

●●●

فاجأتنى سالى سكر بالمجئ قبل موعد الانصراف بنصف ساعة . كان الشيخ عبد الله خلفى لكننى شعرت باعتراضه وامتعاضه من دخولها . جلست هادئة بعد أن تبادلت معها عبارات الترحيب العادية ، وضعت البالطو الأبيض فوق الكرسى ، حاولت أن أستكشف سر تلك الزيارة الطارئة دون أن أسأل ، كان من الحمق أن أسألها ، نبهنى الشيخ عبد الله إلى مرور الوقت وحلول موعد الانصراف فذهبت إلى الحجرة المجاورة ووقعت فى الدفتر وعدت متعجلا ، أشرت لها وأنا عند الباب فقامت . نزلنا على السلم ولم نتبادل أى كلام . خرجنا من باب مبنى المجمع إلى براح ميدان التحرير . وكانت هى تسبقنى بخطوة فى اتجاه شارع قصر العينى ، التفتت ناحيتى عند المنحنى الأول وقالت بخفة :

- مفاجأة .. مش كده ؟

- مفاجأة لذيذه على كل حال ..

- غزل ولا مجامله ؟

- الاثنين ..

- أقول لها يعنى ومش ح تخاف ؟

- هى مين دى ؟

- هو فيه حد تانى غير صاحبتى فاطمة ف حياتك ؟

- فاطمة .. ؟

- ما فيش حته نقعد فيها ؟

كانت قصيرة نسبيا وضامرة الصدر لكنها خفيفة الحركة ولها ابتسامة جسورة وأسرة . كانت عيناها مرسومتين ببراعة وتطلان من خلال عدسات نظارتها الطبية الرقيقة . فيها شئ ياباني غامض وأنا لم أدرس موضوع اليابان كما ينبغى . فكرت فى عوامة الكورنيش وعم دهب . قدتها من خلال شوارع جاردن سيتى وأنا أثرثر بأى كلام وأحاول ترجمة كلماتها . كانت العوامة خالية تقريبا . وبما بسبب الصيام أو حذر العشاق . رحب عم دهب بنا وقادنا الى الركن المسحور وجذب الستارة خلفه فما عاد غير النهر الذى يعكس شعاع الشمس فى عينيها فتبدوان عسليتين أكثر مما كنت اعتقد . سألتنى :

- إنت قلت للراجل يقفل الستاره ؟

- أبدا . أقوم أفتحها .

- مش مهم ، إنت صايم ولا فاطر ؟

- فاطر .

- أنا صايمه.

- كويس .. ح تروحى الجنة .

- عايزين نتلكم بجد .. أنا عارفه إنى مش حلوه قوى بس ..

- بس إيه ؟

- ساعة ما شفتك فكرت آخد منك معاد وأقابلك ، أنا قلت لك ساعتها مش كده ؟ يعنى مش ناويه أخطفك من صاحبتى أنا بس كنت عاوزه أسألك،، إنت تعرف إيه عن الحب ؟

- الحياة من غيره عدم ، أنا ممكن أسب عمرى بساعات الحب اللى عشتها أو ح أعيشها .

- اللى عشتها ؟ يعنى جربت الحب قبل كده ؟

- للأسف ..

- أنا .. سمعت إنك .. خطير و ....

- عندى علاقات .. بس حب دلوقت ؟ ما أفتكرش ، ف إللى فات ؟ يمكن .. وإللى جاى ح أجربه طبعا .

- دا إنت تخوف ..

- دانا غالبان خالص وأصعب ع الكافر ، ممكن تقولى إنى مش لاقى نفسى ، مستنى الحب المستحيل ، باتمناه دوبان خالص خالص ، الحب إللى عاوزه قلبين وعقلين وطريق واحد للمستقبل ما يساعش غير الاثنين ، وكل خطوه فيه تقربهم من بعض .. تدخلهم ف بعض ، تخليهم حاجه واحدة ، ونفس واحد ومصير واحد ، وإللى قبلهم ما فيش واللى بعدهم ما فيش ، ساعتها الدنيا ح تبقى معموله لهم وبس .. الحب ؟ ياه .. قليل قليل لما بيتحقق ف الزمن ده . وإللى إحنا بنشوفه قصادنا تمثيل ف تمثيل ، واحد معزور ف واحده يقوللها بحبك ، واحده مزنوقه ف راجل تقوله بدوب فيك ،

إوعى تصدقى ، إوعى تصدقى .. هو فين الحب بس ؟

- باين عليك دورت كتير .

- جدا .

- يا حرام .

قالتها واعتدلت ، ربما كانت مفتونه وربما كانت أوعى من أن تأسرها كلماتى ، قلت أتعامل مع أسوأ الظروف وأحاورها من منطقة مختلفة لأعرف عمق البئر قبل أن أحوطه بسياج الامتلاك ، كانت هى مازالت تختلس النظرات إلى صدرى المفتوح لنسمات النهر ترطب شعر صدرى وتنعشنى وتدعونى للثقة دون افتعال ، كانت يدها اليسرى مفرودة على المائدة وكانت كفها مقلوبة إلى أعلى ، مددت يدى اليمنى فى اتجاه إصبعها الخنصر ، أمسكت العقلة العليا بأطراف أصابعى ، حركت الإصبع الصغير بلطف فى كل الاتجاهات وهى ساكتة وأن بدت مرتكبة تنهج بشكل متواصل دون أن تكون أصابعى فى حركتها أرق من أن تشعرها بأنها تمسك خنصرها ، بل إننى كنت أوسع المسافة بين أصابعى الثلاثة التى تحيط به لأجعلها تشعر بأنها حرة وأنها ليست أسيرة ، باختيارها كانت بين الإبهام والسبابة والوسطى ، وكأن ثلاثتهم أنبياء رسالة أمناء ، هل قالت هى شيئا أو أننى توهمت فقلت مبديا دهشتى الزائدة لاكتشافى :

- صباعك صغير قوى ، كأنه صباع طفل ، طفل عنده سنتين بشوفه فى الأحلام وبس .

- أنا كلى صغيره ويمكن ما املاش عين حد .

- يمكن تملى قلبه .

- ماتجاملنيش .

- تعرفى صباعك الصغير ده بيحسسنى بإيه وأنا ما سكه ما بين صوابعى ؟

- بإيه ؟

- بالأمان .. الأمان اللى طول عمرى بدور عليه .. انتى طلعتى لى منين؟

- من حدايق زينهم .

قالتها وكفها يمسك بكفى ويتشبث به فى رقة ، يتباعد عنه ثم يقترب ، يتلاقى باطن الكفين فى نعومه ثم يتماسكان بعنف ، وجاءت يدها الأخرى لتقوم بدورها المؤجل ، ويدى بين يديها كطائر كبير فى فخ صغير يقدر على الإنفلات منه وقتما يريد لكنه لا يفعل لأنه يرغب فى أن يوهم نفسه بأنه يعيش مشاعر الأسير الحر القادر وقتما يشاء على الفرار .

لم أتحرك من مكانى ، كأننى كنت أصب على مشاعرى ثلجا وأجمدها حتى أعرف من أين تأتيها كل هذه الجرأة وعلى أى شيء تستند ؟ ابتسمت لها بحياد وأخفيت ارتباكى المباغت بينما تتأملنى هى فى تمعن هادئ قبل أن تسألنى بخبث :

- مزعل فاطمه ليه ؟

نظرت إليها بدهشة ، لعلها قرأت فى نظراتى اكتشافى بأنها تريد الدخول إلىّ من خلال صاحبتها ، تذكرت إنها وعدتنى فى يوم التعارف برغبتها فى لقاء يتم بيننا ، قالتها خطفا حتى أن فاطمة لم تشعر أو تسمع ، كانت فاطمة يومها تقف إلى جوارها ولا يبدو عليها أنها اهتمت أو انشغلت بتلك الهمسة العابرة . قلت لنفسى أنها من النوع الذى لا يضيع وقته ، ربما كانت قد سمعت من صاحبتها كلاما عنى وجاءت برفقتها لتكتشف بنفسها

اللغز ، ولعلها فهمت أن فاطمة لا تليق بى أو أليق بها ، خطافة فى زمن خطافين تسعى لخطاف مفتون بفصائل البنات فى المدينة ، مفجوع بجوع سنوات الجفاف فى عمره ، يرشف من كل وعاء بنفس النهم دون تمييز ولا شئ وراءه أو أمامه ، يوشك أن يكون مقطوعا من كل الجذور ويسعى إلى النمو على أى سطح حتى ولو كان سطح الماء الراكد ، دقت هى بأطراف أصابع يدها اليمنى على زندى وهمست :

- ياه .. رحت فين ؟
- هه ؟؟، أبدا
- بتسرح وأنا قاعده معاك ؟

قالتها بلطف وكأنها اكتسبت فى لحظات كل حقوق البنت المعشوقة ، تأسفت لها بإيماءة واتهمت نفسى بقلة الذوق لأننى انشغلت عنها بالفعل للحظات ، أراحها أننى كنت أجاريها فى حوار مسرحية مرتجلة بنفس الإيقاع والمقدرة على الأداء ، كانت تنظر إلى عرى صدرى مفتوح القميص بشكل خاطف لكننى كنت هناك أرقب نظرتها على بعد خطوة واحدة هى مساحة المائدة المستديرة المغطاة بمفرش قرمزى مشغول بخيوط عنكبوتية متداخلة ، نظرت هى فى اتجاه الستارة مستطلعة :

- الراجل ما جاش .
- عم دهب ؟
- هو اسمه دهب ؟
- أصل رمضان بقى وتلاقى البوفيه كسلان .. عاوزاه ؟
- تعالى جنبى ، عاوزه أحط دماغى على صدرك .

غيرت مكانى لأكون إلى جوارها تماما ، هزت رأسها بدلال ثم وضعت

خدها الأيمن على صدرى بينما عيناها السوداوان تتأملان تقاطيعى ، لمس شعرها الناعم المساحة المكشوفة من صدرى من خلال فتحة القميص الواسعة ، ربما بدا لى أنها اكتشفت كنزا كنت أملكه ولا أعرف قيمته ، ربما استفزت رجولتى على نحو مغاير ، وخصلات شعرها الناعم تسترخى فى استكانة وتتناثر فأشم رائحتها . وبينما كانت تستند على صدرى قالت إن شعره خشن أكثر مما كانت تتصور . بدأت بجسارة تتحسسه ببطن كفها الناعم خلسة وكأنها تتحسس وسادة تنوى أن تسترخى عليها بنشوة المطمئن ، وكان شعرها يتطاير بفعل النسيم الوافد إلينا من فراغ سطح النهر فأحسه ناعما مستكينا ووديعا ومستسلما فى نفس الوقت . كنت أرصد بطرف عينى خلسة حركة عم دهب الذى لا بد أنه كان يتوارى خلف الستار عن يمينى تقريبا على عادته فى مثل هذه الحالات ، لكننى منعت نفسى من الالتفات مخافة أن أجعلها تشعر بأى قلق ، ربما قلت لنفسى فليشهد ميلاد علاقة عابرة جديدة مثلما اعتدنا منه ، رجل فى عمر الآباء لا يكف عن التجسس على أمثالنا وعلى العشاق الصغار ، لابد أنه كان يتمتع بما يراه ويتجاسر بمشاعر المكتشف أحيانا أن يتحاور معنا ويبدى رأيه فى أى مشهد رآه ، يحكم على البنت وتقاطيعها ويحكم على أخلاقها ومستواها وكأنه خبير بالخبايا من كثرة المشاهدة ، كنت لا أخاف أن يرانى أو يلاحظ مدى فسادى على العكس من بعض الحالات الأخرى التى كنت أناديه فيأتى ملبيا النداء من وراء الستار ، معتذرا أو مؤكدا أنه كان يعبر مجرد عبور أو ينفى أنه كان وراءها إذا شاف فى العينين المصوبتين ناحيته شبه لوم أو معاتبة ، وكنت من ناحيتى أضحك وأسامح أو أصل إلى حالة من حالات التباهى ، أداعبه بينى وبينه معايرا إياه لأنه صار عجوزا غاية ما يشفى

غليه نظرات مختلسة ، يضحك أحيانا ويبدى غضبة مفتعلة محتجا فى أحيان كثيرة ، لكننا كنا نسامحه ونتندر على هوايته التى لا تتجاوز رصد ما وصل إليه الواحد منا مع البنت التى اختلى بها فى ركن العشاق كما كنا نسميه ، وإذا نفى أنه كان يتلصص يضحك الواحد منا ويذكره للمرة ألألف بأنه عجوز ، يغضب أو يضحك فنواصل أو نكف عن مداعبته بحسب حالته ، كان عم دهب هو الشاهد الوحيد على ما كان يعتبره مفاسد صغيرة تليق بأعمارنا وبالزمان الذى نعيشه ، رفعت سالى رأسها عن صدرى فشعرت باليتم لكنها تحسسته بيمناها وكررت ما سبق أن قالته بأن شعر صدرى خشن وكثيف ، " قرد كثيف الشعر أنا بحساباتها " . كانت عيناها تتفحصانى وتغوصان فى ملامحى ، لعلنى أجلت بينى وبين نفسى ما كانت تريده بتلك النظرة الفاحصة من خلف عدسات منظارها الرقيق ، كنت أعرف مثل هذا النداء الصامت ولا أتلهف على الرد عليه ، لكننى أيضا كنت جاهزا لتقبيلها ، سألتنى إن كان الحب حراما أو جائزا فى شهر رمضان فقلت لها وأنا أفر من نظراتها المقتحمة بقصد أن الحب يجوز فى كل الأوقات ، وأضفت أنه فى شرع الحب تتساوى كل الأوقات والأماكن ، خلعت منظارها الطبى فبدت لى أشبه بعينى إيزيس أو تواطأت مع نفسى لأصل إلى هذا التشابه ، لعله النهر الذى كنت أراه أمامى قد أوحى لى بالخاطر وذكرنى كيف بكت إيزيس شقيقها ومحبوبها ففاض النهر من دموعها وظل يفيض ويجرى عبر الزمان الممدود حتى وصل الأمر بنا إلى التعامل مع تلك العوامة بقصد أن يواصل الأحفاد مشوار العشق الأبدى ، تتبدل الوجوه والمناسبات وتتكرر الرواية بقليل من التشابه أو قليل من الاختلاف ، غصت فى حدقتيها لأقرأ سطور رغبتها بحريتها دون تحريض منى أو حتى تردد ،

ويبدو أنها هى الأخرى كانت تقرأنى ، زودت اقترابها منى وزودت اقترابى ، مدت يمناها ولفتها حول عنقى باسمة ، ولم يكن هناك مجال لأى تراجع ، لاحظ كل منا اختلاج تقاطيع الآخر ، ولمحت الشفتين تتأهبان لقبلة مشتاقة وقد أسبلت هى العينين فبدا لى أن الحارسين ناما إلى أجل غير معلوم فى بحر العسل ، وعلى نحو خاطف تلامست الشفاه فى قبلة مشتاقة لم أحسب لها وقتا ولا أحسبها فعلت ، بدا لى أنها كانت أرضا خصبة وعطشانة تحتاج للرى بمثل ما كنت أحتاج إليه فواصلت تقبيلها بجنون لم أحسب له حسابا ، لا أدرى إن كانت هى التى أفاقت أولا أو أننى. أفقت لنفسى بينما تسألنى ببراءة أنثى ماكرة

- إنت عملت إيه ؟
- مفيش .

بان على وجهها شئ من الارتياح ، وقبلتنى فى خدى فى مودة ثم سألتنى راغبة فى جواب محدد لو أخطأته بحسب اباتى على الأقل لخسرتها بلا مقابل والى الأبد ، قالت

- حرام ولا حلال ؟
- الحب زى الموت والولادة ، عمره ما كان حرام .

بدت لى مرتاحة ، قلت لروحى متنصلا من الذنب " ها هى الأنثى البارعه تعاود تعليق الخطيئة فى رقبة الذكر ، وها هو الذكر يتمادى فى اندفاعه ناحيتها وقد رسمت على تقاطيعها صورة فريسة تقفز فيجاريها ويرمح فى اتجاهها واثقا أنه الكسبان فى نهاية المشوار ، كانت نحنحات عم دهب قد سبقته وهو يحمل إلينا دون أن نطلب مشروبا باردا ويضع زهرية ورد يانع ومتألق رصه بعناية وحرفية ، ابتسم بسماحة فبدت أسنانه البيضاء

المتساوية سكة مفتوحة لعاشقين من عيأله ، لابد أننا تجرعنا المشروب دون أن نحدد هويته لأننا كنا نتبادل القبلات الخاطفة ، شعرت أنها أسرتنى فى مدارها ، أسلمتنى شفتيها المكتنزتين وأسلمتها نفسى ، كانت تمضغ الشفتين مضغا رقيقا متأنيا وتبثنى أشواقها متنهدة دون كلمات ، بادلتها الخبرة وجعلت أهدهدها وأتحسسها بمثل ما كانت تفعل ، وعندما عاودت دفن رأسها فى صدرى شعرت بالحصار الذى كانت تدبره فأتحول من كوكب مفلوت إلى مجرد مساحة تدور غصبا عنها فى مدار ، لعلنى لم أناقش نفسى وأنا فى حضنها ، ولعلنى أخذت من عقلى موافقة مبدئية على الدخول معها فى علاقة من نوع جديد ومختلف بفعل مشاعرى التى تأججت على غير توقع ، أقنعت نفسى بأن أمثال هذه البنت قلة تتوارى فى زحام المدينة ، كأنها غاية كنت أسعى للوصول إليها ولا أستطيع ، واعية وجسورة وقادرة على الأخذ بقدر ما هى قادرة على العطاء ، ولا أدرى كيف تباعدنا فى توقيت متقارب وبغير تعجل لنتحول مرة أخرى إلى مجرد ولد وبنت فى ركن عوامة يحملها النهر ويهزهزها فى حنان ، نظرت إلى ساعتها ونكرتنى باقتراب مدفع الإفطار ، حملت هى معطفها الأبيض وفردته على ساعدها الأيسر ، تقدمتنى وفتحت الستارة لأرى وجه عم دهب على بعد خطوتين يدارى تلصصه علينا بابتسامة مشرقة ومباركة وراضية :

- بالسلامه يا أولادى .

كانت أبوته صادقة لا يجوز التفكير فى الشك فيها أبدا ، أبوة رجل من أهل النوبة تكفى لأن تتوزع على عشرات العشاق بلا أى مقابل ، ولا بد أنه عاش فى زمنه عشرات التجارب الملحمية فاكتسب سماحة وقدرة على الغفران لأمثالنا من العشاق الصغار ولعل سالى لم تكن تكذب أو تجامل

وهى تودعه :

أشوفك على خير يا عم دهب ، باى .

بالسلامة يا بنتى ، بالسلامه يا أستاذ .

ورفعت هى يدها الخالية وكأنها تشكره على خدمة كبيرة تطوع بتأديتها لها على وجه الخصوص ، تركناه يبتسم فى حنو ويهز رأسه هزات خبير رأى وسمع آلاف الحالات وحافظ على كل الأسرار ، وعندما خرجنا من العوامة وصرنا فوق الرصيف نظرت ناحيتى وسألتنى سؤالا كانت بالقطع تعرف جوابه :

- ح توصلنى ؟

- يا خبر .

أشارت هى لأول سيارة أجره ، ركبت فركبت إلى جوارها ثم انطلق الرجل فى اتجاه حدائق زينهم كما قلت له ، بدا لى مرتاحا وهو يحمد المولى لأنه من سكان السيدة زينب وأنه سوف يصل بيته قبل مدفع الإفطار ، لكننى لم أكن جاهزا لأجاريه لأنها كانت تنظر ناحيتى وتسبل عينيها ثم تهمس :

- ما تكسفنيش بقى ، طبعا ح أشوفك تانى ؟

- وخامس وعاشر .. و

حطت سبابتها على فمها تحذرنى من الاسترسال على مسمع من السائق وكأنه كان بحساباتها جاسوسا يتلصص على الأسرار ، لذت بالصمت حتى بدت لنا مساكن زينهم فطلبت منه إنزالها حيث أشارت لى وبينما تنزل ودعتنى بإشارة من كفها :

- ح أفوت عليك ف الشغل بكره .

لعلنى كنت أشعر بالسعادة ، ولعلنى ناقشت نفسى بصوت مسموع لنفسى وأنا أنزل المنحدر الموصل ما بين حدائق زينهم وشارع زين العابدين ماشيا والطريق خالية - هل تليق بك يا سيد عوف هذه البنت ؟ وهل استولت على مشاعرك إلى هذا الحد بلقاء واحد ؟ ، كيف درت فى مدارها واستسلمت إلى هذا الكيان النحيل النحيل ؟ لا بد أنها بارعة جدا أو أننى صرت لاعبا من طراز قديم انكشفت ملاعيبه بالتقادم ، هل من الممكن أن تكون هى جبيرة من الداخل إلى هذا الحد رغم ضآلة البدن ؟

سمعت صوت الشيخ محمد رفعت يؤذن لصلاة المغرب وبدا لي أن شارع زين العابدين يتنهد تنهيدة فرح جماعى ، وبدا لى أننى جوعان فجلست على المقعد الوحيد الخالى فوق الرصيف المواجه لدكان الحاج راشد، أتشمم رائحة الكباب المشوى والكفتة وأمنع نفسى من النظر إلى الزبائن الذين سبقونى وأحاول أن أحبس لعابى ، وبدا لى أن الوقت طال أكثر مما كنت أتوقع والولد عزمى يأتينى متظاهرا بالتعجل حاملا أطباق الكفتة والكباب والسلطات ومن فوقها أرغفة العيش الطازج .

●●●

جاء حافظ لمقر عملى وافدا من الإسكندرية وهمس قائلا أنهم كلفوه بمهمة فى المركز الرئيسى مدتها شهر ونصف ، كانت بجواره حقيبة سفر صغيرة ، وبحرج استشعرته فى نغمات صوته قال إنه قصدنى لقضاء مدة المأمورية فى مسكنى ما لم يتسبب وجوده معى فى أى حرج ، كان يكبرنى بعدة سنوات وسمعت عنه كلاما طيبا قبل أن أتعرف عليه ، وبدا لى فى التعارف متألق الذهن واعيا يستحق التقدير ، وعلى عكس المقابلات العارضة أو المدبرة التى تجمع مشاريع الكتاب والشعراء كتب لى عنوانه

وكتبت له عنواني وتراسلنا لفترة ، وفى غالبية رسائله كان يعرض على أن أزوره فى مسكنه المتواضع بحسب ما كان يصفه لقضاء صيف يستضيفنى فيه ، لكن هزيمتنا العسكرية نوبت فى الذاكرة رغبة الاغتسال فى ماء البحر للخلاص من الهم الخاص المدفون فى الداخل ، ذابت لأننا غرقنا وغطسنا وانكتمت أنفاسنا فى أعماق بحور الهم العام الذى كان أكثر ضراوة من ترف التفكير فى قضاء الصيف على شط البحر المعشوق ، بالإضافة لمفاسد لم أتردد فى تجربتها نصف مسلوب الإرادة مع شلة المتولى الذى رحل ولم تنفك أواصرها ، بل تجددت واتخذت لها من شقة الحلمية الجديدة مقرا أجبرتني الظروف على التخلص من المسكن ومنهم ، ولم يبق لى غير بعض الذكريات المرة وسالى التى ظهرت فى حياتى بعد انقطاع فبدت لى بلسما يمكن أن يداوينى ، أيامها كانت رسائل حافظ متواصلة وردودى عليها منتظمة لكن فكرة السفر لتشريفه حسبما كان يكتب دائما تاهت وتلاشت أو انمحت من ذاكرتى ، لكنه جاء وقصدنى فلم أفكر فى أى اعتذار ، رحبت به عارفا أنه سيكون ضيفا خفيفا ولفترة وجيزة ، ولا بد أننى بحت له بكل ما جري لى فى الفترة الأخيرة وبالتفاصيل ثم حدثته عن المسموح بسرده من قصة الحب المهذبة وأغراضها النبيلة متخوفا أن يراها فى المكان صدفة ويفسر سلوكها تفسيرا خاطئا ، أفهمت سالى أن تواجده سيكون لفترة طارئة نتخفف خلالها من التعامل المشروع ، لكنه كان من الممكن أن نرتب توقيتات اللقاء فى غيابه المؤكد أو سفره كل خميس وجمعه.

كانت فى تلك الفترة تأتينى خلسة وتختار أنسب الأوقات بعد خروجه الليلى فى توقيتات ثابتة تخص مأموريته ، وكنت أتذكر أنها فى أول زيارة للمسكن وهبتنى نفسها وقبلت ، وفى الثانية طلبت أن نوقع عقدا لزواج

عرفى بيننا كى لا نشعر أننا نرتكب أى خطيئة فوافقتها مستعدا ما قالته صاحبتها وهى تنبهنى بخفة عند ظهور سالى الثانى أن أكون أكثر إيجابية معها حتى لا تغضب مرة أخرى ، وهى وحدتنا كانت تخرج شريط منع الحمل وتخلص حبة من غلافها ثم تبتلعها وتعيده إلى حقيبتها ، وفى المرات الأولى كنت أمد يدى ناحيتها بشربة ماء فتهز رأسها علامة عدم الحاجة إليها وتهمس وهى تشير بإصبعها ناحية فتحة الحلق وتقول نفس العبارة وكأنها تمنحنى بملامحها وابتسامتها الواثقة جواز المرور المأمون

السكه سالكه .

وفى تلك المقابلات المخطوفة كان كل شىء بيننا مسموحا لإشباع الرغبتين العارمتين ، فهل كنت أنا وقتها فى غفلة طارئة وممتدة لأننى نسيت أو تناسيت غشاء بكارتها أو غفرت اعترافها الصريح بتجربتها مع من كان معشوقا قبلى تم تدميره لأنه استحق لأسباب تعرفها هى الدمار؟ هل أراحنى الوهم بأن الحب يغفر كل الخطايا السابقة أو احتفاظى فى درج مكتبى بعقدنا العرفى الذى وقعناه معا ؟ ربما كنت أيامها غائبا أو مسحورا أحاول إسعاد نفسى وإسعادها أيضا ، واثقا أننى دخلت تجربة حب حقيقى يجعلنى أعد روحى بتخليصها من مواجعها القديمة ، وبدا لى أنها كانت تعطينى وتشبعنى عقلا وبطنا ومشاعر ورغبة فلا أطلب المزيد ، اندفعت معها بمشاعرى متوهما أننى سأتطهر على مهل بالوفاء لها أو شعرت أننى سأولد من جديد بمعايير مغايرة ومفاهيم أكثر سماحة ، وكأن ارتباطنا الرسمى سوف يأتى باعتباره أمرا مفروغا منه وسوف يتم فور انتهائها من دراستها، أحدثها فى لحظات الصفاء أن يكون دخلها أو راتبها بعد التخرج لأسرتها مكافأة لهم لأنهم منحونى أجمل وأرق إنسانة فى الدنيا

فتضحك وتتهمنى بالمبالغة ، ربما تذكرنى بجمال فاطمة فاقر وأعترف أن الجمال لا يتجلى فى الملامح وحدها وإنما فى الروح الإنسانية أكثر ، ترتاح وتطمئن على روحها وتحدثنى عن أحوال البلد والأجور السائدة وما إذا كان من الممكن أن يكفينا راتبى وجزءا من أجرها بعد التخرج على الحياة بشكل لائق ؟ أطمئنها ، تضيف أنها بالقطع سوف تخصص لأهلها مبلغا يساعدهم على الاستمرار فى الحياة فأعاود طمأنتها معتمدا على حالة من حالات التفاؤل البديل عن الهموم التى كانت تحاصرنا ، تقرأ قصائدى قبل وبعد نشرها وتحتفظ بها . تناقشنى بذكاء فأتعجب ويتأكد لى أننى أتعامل مع عقلها القادر على الوعى بمقاصدى من وراء الكلمات ، وتتبدل أوهامى بأن من تدرس الصيدلة وتنجح مثلها بتفوق يتيح لها الحصول على المكافأة لأنها تملك عقلية تؤمن بالحقائق العلمية المؤكدة ولا تحلق بخيالها أو تأسرها شطحات الشعراء ، لكنها كانت تفعل كل ذلك باقتدار وبأكثر من كتبة القصائد المنشورة من متوسطى المواهب غالبا.

كان حافظ يسافر ظهيرة الخميس ويرجع صباح السبت ليطمئن على البنات ، وبحسب حكاياته كانت البنات بلا أم لأنها تركت له الجمل بما حمل وفرت ولا يدرى لماذا ولا إلى أين . يقول إنه وظف نفسه عند البنات أما وأبا فى نفس الوقت ، يرعاهن ويطعمهن ويغسل ثيابهن ويتولى حل كل إشكالية تعترض طريق أى واحدة من بناته ، كنت أسمع وأتعجب كيف تستطيع أى أم فى الدنيا أن تفر مثل هذا الفرار وبناتها فى سن مراهقة ومخاطر سن الشباب بلا سقف فأتعاطف معه وأستعيد بداياتى ، أتذكر أبى وناسى ثم أتنهد وأصفه بأنه نادر وقادر على تعويض البنات ورعايتهن حتى يتسترن وتعيش كل واحدة فى رعاية من يناسبها فى المستقبل القريب ، يشكرنى

ويربت على ظهر يدى علامة التسليم بضرورة أن يواصل دوره ولو على حساب نفسه ومطامحه وحياته نفسها..

●●●

كانت سالى فرحانة لأن الضيف الطيب كما كنت أصفه سيرحل وقد انتهت مأموريته ليترك لنا عشنا الذى لن يسع غيرنا بعد ذلك أبدا وفى غمرة الفرح قالت إنه يلزم أن تكون ليلة جمعة سعيدة ، وأضافت بأنها ستحتال على أسرتها وتقول إنها مسافرة يوم بليلة على نفقة الكلية لمشاهدة تجربة علمية جديدة برفقة زميلاتها ملائها ، وراقت لها الحكاية التى اخترعتها فضحكت وأضحكتنى ، انشرحت حالة فانشرحت وأنا أسمعها تهمس بمودة :

- نسهر ليله جنب بعض لحد الصبح زى أى عريس وعروسه

وافقتها وسألتها عن مطالبها اللازمة لأبرها فحددت وجبة جاهزة تليق بسهرة لا تشعر خلالها بتعجل يصل لحد المطاردة أو توقع وصول أى بنى آدم يقطع على العاشقين خلوتهما ، ليلة وداع حافظ كانت حافلة بالشكر الذى أسداه لى على الواجب مع أنه لا شكر على واجب كما قلت له صادقا معه ومع نفسى ، لعلنى دنت أتعجل طلوع النهار الذى طلع أكثر إشراقا وأنعم نسيما ، وودعت حافظاً قبل أن يركب الأتوبيس المتوجه لباب الحديد ثم توجهت إلى ميدان السيدة وتسوقت كل ما كان يلزمنا لقضاء ليلة لائقة ممدودة معها لأول مرة ، ليلة بطولها بلا رقابة ولا قلق ولا تعجل فى شيء أو انشغال بأى شيء . وعندما جاءت سالى فى الثالثة بعد الظهر بدت لى متألقة ومزدهرة وشعرها مفرود وقد زادت زينتها على نحو ما تفعل العرائس، ولم يكن ينقصها غير الثوب الأبيض والتاج فوق الرأس يلتف حول

الطزجة البيضاء.

لكنها كانت ليلة زواج وهى انقلبت بفم على غير كل توقعاتنا وأمنياتنا. كان الليل قد انتصف وسالى إلى جوارى متخطفة تماما من كل ما يسترها ، لكن جرس الباب قطع خلوتنا وواصل الرنين فهمست قائلة أن السكوت فى حالتنا هو أنسب الطرق لزحزحة التفتيش الغبى ثقيل الظل الآتى فى وقتنا الخرج ، لكننى تواطأت بالتجاهل فترة بدت أطول من قنوتى على احتمال رنينه المتواصل العنيد ، وعلى أطراف أصابعى خطوت بضع خطوات ناحية الباب الخارجى لأسمع صوتا نسائيا يحادثنى بخفوت من وراءه وبالاسم فى رجاء :

- افتح يا أستاذ سنيد ، أنا أم سالى ، وعارفه إنها عندك ، مش عاوزه أرفع صوتى أكتر من كده ، افتح ، أنا ف الشارع .

وفتحت الباب لأراها وهى تزيحنى عن طريقها إلى حجرة النوم حيث كانت سالى فوق الفراش ما تزال ، والمرأة تقتحمها والبنت تحاول أن تستر عريها بمثل ما تكتم صرخاتها تعبيرا عن مواجع كانت بالقطع تشعر بها وقد صارت هدفا لضربات مغلولة بالكفين دونما رحمة أو شفقة ، ورغم محاولاتى لإبعادها عن البنت بكل ما أملك من قدرة لا أتمكن من السيطرة عليها ، كانت تنقض على أى مكان تصل إليه أسنانها لتعض وتعض ولا تقلتها إلا وقد تركت آثارا دموية ظاهرة مكانها ، وسالى تستجير بمن يستجير ضد من تستجير منها. طال الضرب والعض والخربشة دونما رحمة ثم انهارت المرأة فوق السرير إلى جوار البنت المنهكة المفصولة عن الوعى تماما وأنا واقف مكانى عاجز عن أى كلام أو فعل أو قدرة على الحركة ، طال الوقت وسالى بعريها بجانب أمها دون حراك ، وقلت لنفسى إنها جريمة

قتل مكتملة بمسكنى ومصيرى بجانب الفضائح مفجع وبشع أهزهزهما ولا أشعر باستجابة ، أرشرش ماء " الكولونيا " قرب الأنفين فلا أشعر بأى حركة ، واقتعدت الأرض مستسلما لمصيرى التعس حتى بدا لى أن الأم تحركت بوهن ، تلفتت حوالها باستغراب ولم تتركز عيناها على كيانى المهدود بالقلق وكأنها لم ترنى أو رأتنى ولم تعرنى أى اهتمام ، كانت تتحسس بدن سالى مرعوبة وكأنها أفاقت على غير توقع منها لترى البنت بدنا ثابتا لا يتحرك ، صرخت تناديها فقمت من مكانى لعلنى أساعد بأى شيء ، كنت أنادى على سالى بصوتى الجريح والبنت بابتة ، وكانت أمها قد تربعت فوق السرير إلى جوارها تخبط براحتيها المفرودتين فخذيها وتلطم الخدين ، تشد شعرها خراوة وتصرخ بصوت مبحوح وخافت :

- البنت ماتت، إنت السبب ، إنت السبب ، ح تروح ف داهية ، ح تروح ف نصيبه ، مش ح أسيبك أبدا .

قامت متوجهة ناحيتى لتمسك عنقى بشراسة فأحاول أن أتخلص من قبضتيها بكل عسر وإشفاق عليها وقلق على سالى التى بدأت تتحرك على نحو مباغت ومفزوع وكأنها تتعارك مع كابوس كابس على أنفاسها تخلص روحها من قبضتيه صارخة :

- أبدا .. أبدا .. أبدا .

اقتربت منها أمها وأحاطتها بكل الحنو بالذراعين ولم تنس أن تستر العرى بالملاءة والبدن ينتفض بين ذراعيها بشكل لا يطمئن لكن صوت الأنفاس بعلن أن الحياة ما زالت تسرى فى البدن الساكن بين الذراعين وكأنها طفلة مولودة فى حضن أم ترضعها من ثديها لأول مرة فى حياتها :

- كده يا بنت بطنى ؟ تعملى ف روحك كده ؟ وراقده بلبوص فى سرير

واحد غريب عنك ؟ ليه ؟ ليه يا ضنايا ؟ عمل لك إيه ؟ سحر لك ولا ضحك عليكى ؟ دى آخرة تربيتى فيكى ؟

- ماما ، أمه ، ماما ، أمه ، جوزى .. يا أمه .. جوزى

- إيه ؟ بتقولى إيه ؟ هى بتقول إيه ؟ هى بتقول إيه ؟

كان السؤال موجها لى بشكل مباشر وكان على أن أجيبها :

- إحنا فعلا متجوزين ، بس عرفى ، بيننا وبين بعض يعنى .

- والورقه فين ؟ ورقة الجواز إللى معاك فين ؟ هاتها .

تحركت من مكانى وقد خف الخطر تماما وصار الأمر إغماءة طارئة سرعان ما تفيق منها البنت وهى فى حضن أمها الحنون ، فتحت درج المكتب وأخرجت عقد الزواج العرفى ثم ناولته لها فأخذته ونظرت إليه على عجل قبل أن تطويه وتدسه فى صدرها وكأنها جاءت خصيصا للحصول على تلك الورقة .

●●●

كان النهار الصعب قد أشرق وسالى تنتفض بين يدى أمها التى كانت عيناها الذاهلتان تبحثان عن خلاص وحل لمأزق غير محسوب لها أو للبنت الغائبة عن وعيها تقريبا ، لكن النهار كان بالفعل قد أشرق أسخف إشراقه شفتها فى حياتى ، وكانت أم سالى تتحسسها بحنو حقيقى وتعتذر لأنها أوشكت على قتل أعز ما تملك فى لحظة طيش وبرجاء متواصل متكرر بصوت ندابة

- سامحينى يا بنتى ، سامحينى يا حبه عينى ، سامحينى .

سامحينى ، سامحينى .

ولا بد أن الزمن طال وصار ممطوطا وثقيلا قبل أن أسمع صوت

سالى التى كفت تقريبا عن الأنين الواضح وكفت أيضا عن الانتفاضات الباغتة وإن كانت ترتعش ثم ترد بصوت متكرر على فترات متباعدة وبخفوت مسموع

- مسا ..محا ..كى .. مسا .. محا..كى ، مسا .. محا ..كى . .

- خلاص يا حبة عين أمك ارتاحى ، ما تتكلميش ، اسمعينى وسامحينى ، يا ريتنى ما شفت إبتسام قصادى ، كان إيه إللى مشانى ف سكتها الساعه دى ؟ ياريتنى ما كنت شفتها ولا سألتها ، سامحينى يا بنتى غصب عني .

- مسا .. محا .. كى ، مسا .. محا .. ها .

- بس يا حبة عينى ، خلاص ، ما تتكلميش ، اسمعينى بس .

وراحت المرأة تحكى بمرارة وعلى نحو رتيب وكأنها تندب على قبر ساكن فى أحضانها كيف أنها رأت إبتسام وسألتها عن سبب تخلفها عن رحلة الجامعة التى أكدت لها سالى أنها سوف تكون برفقتها فبدت على البنت دهشة وترددت فى الرد وحاولت أن تتهرب معتذرة لكنها أمسكت بها ووقعت فى عرضها وراحت تتباكى بحرقة وهى تتوقع أسوأ الاحتمالات ومن بينها أن يكون قد أصاب ابنتها مكروها تداريه عنها ، لكن زميلتها طمأنتها وباحت لها أنه من الممكن أن تكون معى فى فسحة أو سينما ووصفت لها مكان سكنى :

- ولما نص الليل عدى ولا حس ولا خبر قلت ح تبات وياه زى بتوع السيما ، ما طقتش وجيت شفت إللى شفته يا ضنايا ، سالى ، سامحينى بس عرفى دا إيه ؟ الجواز جواز ، عرفى دا إيه ؟

وكانت سالى قد أفاقت وراحت تتبادل معى ومعها نظرات وتوفر طاقتها ،

كنت فى تلك اللحظات أشعر أن الأم تملكها تماما وأننى فى هامش الهامش رغم كل الإسطوانات المكرورة والتى تتجدد لترسم لأى عاشقين سكة أمل ، لكنها بكل الحسابات أقل بكثير جدا عن علاقة أى أم طبيعية مع بنت بطنها. كانت استكانة البنت أيضا تؤكد لى أنه لا بديل عن حضن الأم رغم الضراوة وآثار الضرب والخبط والخربشات ونهش اللحم الحى بالأسنان ، وحينما أشارت أمها لى أن أخرج من الحجرة وأسحب الباب ورائى فعلت وتوجهت إلى الحجرة الأخرى وأغلقت بابها بصوت مسموع ، لعلنى كنت أعلن لهما أن البراح يخصهما أكثر مما يخصنى . كنت أسمع صوت حركتهما المختلسة وأتخيل محاولات الأم لإصلاح بعض ما كان ظاهرا على التقاطيع والبدن بقدر ما يمكنها ، لم يطل الوقت قبلما أسمع النداء باسمى وقد اختلط صوت الأم بصوت البنت فلم أميز أيهما وجهت لى النداء فقمت وخرجت . كانتا تجلسان متجاورتين وتطلان ناحيتى، وتنفيذا لإشارة من الأم جلست قبالتهما أنتظر ، كانت هناك حقيقة جديدة ويلزم مواجهتها، وبدا لى أن الأم تقدر على تصحيح الخطأ أسرع من قدرتى على التصحيح، لعلها نظرت ناحيتى فى البداية بكراهية ووجع مكتوم وتخففت بلمسة من كف سالى فهزت رأسها وبدلت ملامحها لتصبح محايدة تماما :

- ح نعمل إيه ؟ ح نعمل إيه يا أفندى ؟
- إللى إنتى عايزاه .
- تكتب عليها رسمى .
- أكتب .
- وتجيب لها شبكه وتدفع مهر .
- ماشى .
- بس بعد امتحانها ، قدامك شهرين ترتب نفسك .

- ماشى .

- ومن هنا ليوم كتب الكتاب والشبكة ما تشوفهاش

- ماشى ، بس .

- ما بسش ، أحسن ورحمة أمى أخليك تندم ع اليوم إللى شفتها فيه ، إحنا نعرف ناس أكابر ، وأكابر قوى عارفين عنك كل حاجه ، يتاووك ورا الشمس ما حدش يعرف لك سكه ، سامعنى ؟ سامعنى يا أفندى ؟

- سامع وموافق ، وعاذرك كمان

عندما قامت الام وساعدت البنت لتقوم وتتوجهان ناحية الباب وهى تسندها بحنو فكرت وأنا أفتحه أننى مطالب على الأقل بتوصيلهما لكن الأم فردت كفها علامة الرفض ثم خرجت وسحبت البنت وراءها ولم تنس الباب الذى انسك من الخارج كأنه باب زنزانة لمحبوس بشكل انفرادى

●●●

غابت سالى ولم يختف القمر ، كان على أن أدبر المطلوب منى بعد شهرين بحسب ما وعدت ، أراجع حساباتى وأبحث فى دفاترى القديمه ، اقتحمت المخيلة وجوه زملاء العمل وهم يتباحون على مصائرهم التعسة لأن رواتبهم لا تكفى مطالبهم أو حتى تستر بيوتهم وقروضهم الهزيلة المتبادلة تؤكد الإمكانيات الضئيلة لقدامى الموظفين ، وكانت قريتنا فى الأفق البعيد منطقة للأخذ منى فى أى المناسبات لأننى بحساباتهم أعيش فى بحبوحة ولا أتحمل مسئولية أسرة أو عيال مثلهم ، لكنه كانت هناك بؤرة ضوء خلفت لمستحقات دفعتها بشكل مؤكد ممهورة بتوقيع أمى على عقد مشاركة بينى وبينها يفيد أننى مالك لرأس مال مدفوع ثمنا لجاموستين وثلاثة عجول فى دارها منذ عامين وتنفيذا لوصيتها أن يحتاط البنى آدم فيعمل حسابا

لمستقبله بماله الخاص، ويومها قالت لى إننى مثل أبى منهوب الميراث، وإن القرش الأبيض صياد ينفع فى اليوم الأسود حسبما أكدت أيامها وصدقت، ولعلنى تواطأت على روحى وحاولت أن أتناسى ما كان قد فعله معى زوجها بمشاركات خسرت فيها رأس مالى، لعلنى خجلت من الكلام عن تلك الخسائر قائلا لروحى: لا بد أنه شاركنى دون أن يخبرها معتمدا على وعد منى بأن يكون الأمر سرا بيننا، ويوم فاتحتنى طلبت منى تحرير عقد مشاركة بيننا ووقعته وختمته على بياض لتطمئننى أنها تفكر فى مستقبلى، وراضيا عن نفسى وعنها طاوعتها وصار لى طرفها رأس مال أنساه أو أتناساه بقصد أو بغير قصد حتى آن الأوان فى تلك الظروف الصعبة لأتنكره كطوق نجاة، ولأنه كان يحق لى أن أطلب ما أحتاج إليه من رأس المال بحسب الاتفاق معها شعرت أن مشكلتى سوف تنحل بكل يسر لو استعدت المبلغ الذى سوف أحتاج إليه، وقررت السفر لسقط رأسى ومأوى أولاد عوف وأولاد شلبى، ناس الأم وناس الأب الذين سعيت إليهم باختيارى فى مطالع الشباب لأتأكد أننى أنتمى ولو بشكل جزئى لبؤرة أو حيز فى هذا العالم البراح الذى يتوه فيه الإنسان ثم يعود لأصله مشدودا بجانبية شديدة أكثر من أقوى مغناطيس عرفه الإنسان . لكنه كان مشوارا خائبا ومفجعا فى ذات الوقت لأنها عندما رأتنى راحت تتباكى وتشكو من زوجها الذى اختفى بعدما خرّب الدار وترك دكانه المسكوك بالشمع الأحمر ولا تعرف لكل ما جرى سببا، ولعلها أكملت الصورة المعتمة فى زريبة مواشيهم الخالية تماما من كل ما كنت أراه فيها مربوطا بحبال لحلقات متين طويل كان يوحى بأن الدار قادرة على التصرف أو سداد الدين أو حتى الإسهام فى إخراجى من المأزق، لكنها سألتنى عما إذا كان معى مبلغ متوفر تسدده بعد أن تتعدل أحوالهم فاعتذرت خجلانا من نفسى وكأننى نذل وضيع يبخل بمساعدة أمه التى تستحق بحسب ما شاف أحوالها أن يقف إلى جوارها فى أزمتها الطارئة التى يمكن أن تكون أبشع وأصعب من أزمته العابرة .

تعرفت على طلبة العتمان فى آداب عين شمس ، كلانا كان طالبا منتسبا فى نفس القسم وفى السنة النهائية ، قال لى إنه من أهل السويس ويسكن مع زميل له من نفس مدينته فى السيدة زينب وإنه لا يداوم على حضور المحاضرات طوال السنوات التى فاتت. ركبنا الترام سويا فى مشوار الرجوع وتبعنى طالعا ليتعرف على مسكنى فى شارع زين العابدين سألنى عن جلباب أو بنطلون بيجاما يلبسه لأن بنطلونه ضيق فناولته جلبابا غير ثيابه ونظر إلى قميصه فاكتشف أنه يحتاج للغسيل ، سألنى عن صابون الحمام والغسيل وعيناه تجولان فى المكان فاكتشف بنفسه مكان الصابون ، تركنى وتوجه إلى الحمام فسمعت صوت الماء وهى تنساب من الدش وعرفت أنه بدأ الاستحمام ، وبعد مدة جاءنى وقد لف رأسه ، الفوطة وبين يديه طبق البلاستك وقد وضع فيه بنطلونه وقميصه المغسولين ، سألنى عن مشابك الغسيل وأبدى سعادته لأنه اكتشف حبال الغسيل دون أن يزعجنى بالأسئلة ، ابتسمت وأنا أشير لدرج فى المكتب فتوجه إليه وأخرج مشابك الغسيل وخرج . بدا لى مرتاحا وقد نشر ثيابه وكأنه تخلص من عبء أو هم ثقيل، باح لى بأنه يشعر بالجوع بعد الاستحمام ، كان عندى صحن عدس معروف وجبن أبيض مخزون وفول مدمس وبقايا خبز يكفينا، ساعدنى فى رص المأكولات فوق الترابيزة الصغيرة مبديا رضاه عن كل شيء بينما نأكل ، أشعلت النار تحت براد الشاى ، دخن هو سيجارة وحيدة كانت معه وشربنا الشاى ثم تمدد على السرير مرتاحا ، سألنى إن كنت أمانع لو شاركنى فى مسكنى ، وقبل أن أرد أضاف

- أصل أوضة محمد ضيقه ورطبه وما فيهاش دش

ضحكت مرحبا ولم أعترض، فى الأيام الأولى لم يظهر منه أى شيء

يشعرنى بالقلق أكثر من أنه غير مرتبط بأى عمل على العكس منى ، لكن الأيام التالية كانت حافلة بكثير من المواقف غير المتوقعة ، كان يستغل خجلى ويحاصرنى بمطالبه، يستبيح كل ما كنت أملكه من ثياب ، قمصان وجلابيب وبنطلونات وصولا إلى الملابس الداخلية ، وكان يطلب منى ثمن السجائر لأننى لم أكن أدخن ، لعله أخذ منى أول جنيه بغرض شراء علبة سجائر لكنه احتفظ بالباقي. كان يشاركنى الطعام وشرب الشاى وكأنها حقوق غير قابلة للنقاش أو حتى التعليق عليها ، من ناحيتى لم أكن أفكر فى الاعتراض لأنه كان يشاركنى الفراش أو لقمة العيش وما يتيسر من كتب ومذكرات يحتاج إليها ، لكن مسألة الملابس بدت لى غير مستحبة لأن مقاييس الأبدان تختلف ولأن المشاركة فى نفس الثياب تبدو شائكة ومخجلة بالإضافة إلى احتمالات نقلها للأمراض الجلدية . وبعد مرور أسبوع بدأت أسأله عن ملابسه فيعدنى بأنه سوف يذهب إلى مسكنه المشترك مع محمد ويحضر حقيبة ملابسه الخاصة وكتبه الدراسية لكنه لم يفعل. وذات مساء تشكى لى وادعى أنه ذهب أكثر من مرة لمسكنهما المشترك فلم يجد محمد ، لعن صاحبه القديم وسبه قائلا أن نذالته وصلت به إلى حد أنه غير قفل الحجرة . بدا لى أنه حولنى على غير توقع منى إلى ولى لأمره ، أعوله وأقرضه وأنا متواضع الدخل لكنه كان يخفف عنى أحيانا مطالبه لأنه كان يبرع فى شراء بعض مطالبنا المشتركة بالأجل من أى بقال أو بائع خضروات أو مطعم مجاور ، كان يغطى من خلال تلك الممارسات حاجاتنا الضرورية فى أواخر الشهور، كنت أدفع فى أول الشهر إيجار الشقة وفاتورة الكهرباء وبعض ديونه لمن يطالبنى بها من هؤلاء التجار باعتباره شريكى فى السكن ، لكن طلبه كان يطلب منى قروضا أو سلفا متتابعة

عارفا بالقطع أنه لن يسددها ، ورغم أنه كان يسافر إلى السويس ليحصل على بعض الأموال من أسرته هناك إلا أنه كان يرجع دون أن يبدو عليه أنه حصل على شيء يذكر ، ربما يكف عن الاقتراض أو شراء مطالبه بالأجل يوما أو يومين ثم يسر لى بأنه اقترض خمسة جنيهات من الرجل المرابى السمين الجالس خلف فاترينة سجائره فى دكانه الصغير الكائن قبالة مسكننا مباشرة

كان "سلفه الفلسان "كما صرت أناديه مداعبا ومشاكسا يرهن ساعته أحيانا عند المرابى واثقا أنه سوف يستردها حين ميسرة ويدفع الفائدة المتفق عليها بينهما ، وكانت الأيام تمضى على هذا النحو ، أراه أحيانا وهو يشترى بالأجل دون أن يبدو عليه أى نوع من الحرج ، كان يبدو لى ضيفا خفيفا ومقبولا كعميل مضمون . لم تكن مشاكل " الفلسان " عسيرة على الحل بالنسبة له أبدا على العكس منى وعندما ظهر المتولى فى حياتنا انقلبت موازين الأشياء بالنسبة لى وله تماما ، جاء المتولى بصحبة شريكى فى السكن وابن مدينته ليتعرف على الشاعر الذى سمع عنه من "طلبه " ، طلب منى أن أقرأ واحدة من قصائدى فقرأت وهو مصغ تماما لكل حرف، متفاعلا مع جرس الكلمات وكأنه مايسترو مندمج ، طلب منى أن أقرأ قصيدة أخرى فقرأت، ربت على كتفى مهنئا بعد نظرة عتاب مستهجن فى اتجاه طلبه ثم قال :

- دا إنت شاعر بجد ، نشرت إيه من شعرك ؟
- ما فيش .
- ليه ؟
- ما ليش علاقات ، وزى ما تقول بكتب لنفسى .

- إدينى القصيدة الأولانيه .

ناولتها له فطواها ووضعها فى جيب سترته ثم طلب منا أن نرافقه لنسهر فى مسكنه القريب فى شارع خيرت ، طاوعناه وقطعنا المسافة فى ربع ساعة تقريبا ،كان مسكنه شقة براح فيها ثلاث غرف للنوم بخلاف صالون فسيح مفروش ببذخ وكان فى أحد الأركان " بار " أنيق تظهر فى خلفيته زجاجات " المنكر " من الأصناف الراقية ، أجلسنا مرحبا وعاتب طلبة لأنه لم يفكر فى زيارته أو السؤال عنه فى فترة غيابه، تلعثم طلبة وأومأ ناحيتى وكأنه يحذره أو يذكره بوجودى . قهقه المتولى بصوت عال وكأنه يعلن عن وجوده للقاصى والداني، سألنى متمعنا ومضيقا حدقتيه وكأنه يعلن أنه سوف يستكشفنى :

- قول إنت ، إحنا نعرف بعض من ساعتين بس ، افرض واحد مننا إتمسك ف قضيه، نسيب بعض ولا نسأل على بعض ؟

- نسأل على بعض طبعا .

- قول للحمار ده .

قالها وهو ينظر إلى طلبة لائما وموبخا بدون كلام ثم استدار وتوجه إلى البار وأشار إليه ليتبعه فلم يتردد وقام ملبيا إشارة المتولى . كانا يرتبان الأكواب الفارغة وقوالب الثلج فى وعاء فخارى مزخرف ، وكانت هناك مجموعة من أطباق فيها أنواع من الجبن والخضروات والمأكولات الجاهزة ، وكانت زجاجة الخمر من أشهر الأنواع. شعرت بالارتباك فحدثنى ببساطة :

- ح ناكل لقمه ونشرب كاسين عشان يبقى عيش وملح .

- بس أنا ....

- أوعى تقول ما بشربش ، أزعل منك خالص ، دا إنت شاعر.

- دا حتى ما بيدخنش .

قالها ابن العثمان ساخرا منى على ما بدا لى ، لكن المتولى هز رأسه متبسطا وشرع فى صب الخمر فى الكئوس وقال :

- كلنا ما كناش بندخن ولا نشرب ولا حتى كنا عايشين ، بس شوف يا سيد، أنا مثلا كنت زيك كده وبشتغل ف منطقة معزوله عن الدنيا كلها ، كشك تحويلة سكه حديد ف طريق مرسى مطروح ، أصلى وأصوم وأقرا قرآن ، محروم وراضى وساكت ، بس ما سابونيش ف حالى ، مسكونى وسألونى: إنت إخوان مسلمين قلت لأ، قالولى شيوعي؟ قلت لأ ، قالولى أمال إنت إيه ؟ ما عرفتش أرد ، قالوا لبعض يبقى تيار معارض وحبسونى ، وفضلت تلات سنين أسمع وأتعلم حاجات ما كنتش أعرف عنها حاجه خالص ، عارف يعنى إيه معتقل ؟

- لأ .

- مكان يلملموا فيه الإخوان والشيوعيين وكل من له نشاط معارض لرأى الحكومة ، اشرب ، سمعت عن رأس المال بتاع ماركس وفائض القيمة والحتمية التاريخية ؟ سمعت عن لينين وأنجلز وماو وتروتسكى والملاشفة والمناشفة ؟

- سمعت بس ....

- ما قريتش ، مش كده ؟ أنا كمان ما كنتش قريت ، وهناك قريت وفهمت واتعلمت وطلعت واحد تانى .. شيوعى يعنى .

لا بد أننى كنت متوترا فى تلك اللحظات لأننى لم أتمكن من مسايرته وفهم مقاصده ، سكت هو وصب فى كأسى مزيدا من الخمر ووضع مكعبين من الثلج أيضا ثم ناولنى الكأس وكأنه يأمرنى بأن أبتلع كل محتوياته ، بدا

لى أننى لو شربت محتويات الكأس فسوف أفهم مقاصده فشربت ، لكن قدرتى على التركيز كانت تتناقص وتتناقص فنراهما وأسمع كلماتهما مكتفيا بالفرجة من بعيد ، أهز دماغى عندما يوجه أحدهما سؤالا لى فيضحك وأضحك ويضحك ثالثنا ، تتعالى الضحكات وتتوه القواعد فنرى طلبه واقفا يرقص وقد حزمه المتولى بشال حريمى كان مركونا ورائى دون أن انتبه لوجوده، يقوم المتولى ويهتز ويمسك بزجاجة خمر جديدة ، يلفلفها بين يديه ويفتحها ثم يصب من محتوياتها فى الكئوس، نشرب جميعا بعد أن يقرع كل واحد منا طرف كأسه فى كأس الآخر ، لا أذكر كيف حملتنى قدماى إلى سرير مفروش فى واحدة من غرف النوم الثلاث ، ربما ساعدنى واحد منهما وربما ساعدت نفسى بنفسي، لكننى كنت تقريبا نائما عن الوعى دونما اعتراض على توهاني، كنت وحيدا فى الغرفة لكننى كنت أضحك وأضحك دون أن أعرف على أى الأشياء أضحك ، ولا بد أننى بكيت أيضا بدموع وأنا أستعيد تاريخا من المواجع وأتأسى على عشرات الأمنيات التى لم تتحقق أبدا ، لكن الشمس أيقظتنى بسخونتها ووجه المتولى يبتسم نصف واع ونصف نائه ، سألنى عن الولد طلبه وإن كنت رأيته وهو يغادر الشقة فنفيت ذلك وأنا أدعك عينى :

- ابن الكلب ، خد البدلتين الجداد ، تلاقيه ح يبيعهم ولا يرهنهم على خمسه جنيه ، المشكلة إن القصيدة بتاعتك ف جيب الجاكته اللى أنا كنت لا بسها، معاك صوره منها ؟

- لأ .

تخيلت "سلفه الفلسان" أو " عبسلاف " كما كان يسميه المتولى وهو واقف أمام الرجل المرابى الجالس وراء فاترينة السجائر فى دكانه الصغير

وضحكت، كان المتولى يتأملنى وكأنه يستوضحنى عن أسباب ضحكتى ، لكننى لم أفكر فى قول ما كنت أتخيله متشككا بأنه وربما يكون " شطحة " دماغ نصف واع بما دار أو ما يزال يدور حوله.

فى منتصف الليل دق طلبه باب مسكنى الكائن فى زين العابدين ففتحت له ، كان يبدو مختلفا فى سترته التى أراه نحيلا بداخلها على نحو ملحوظ ، ابتسم لى فأفسحت له المكان باسما، وضع لفافة ورقية كان يحملها إلى جواره ثم جلس على طرف السرير ، زفر فى ضيق وهو يتأملنى قبل أن يسألنى

- أوعى تكون صدقت المتولي، دا نصاب وتاجر ومقاول بيتمسح ف الماركسية وهو مالوش دعوه بيها خالص ، أنا ما طقتش ومشيت، أصله بيسكر ويتهيأ له حاجات ، ح يعمل علينا ثورى على آخر الزمن ؟ أنا أعامله من بعيد لبعيد بس ، ماتصدقوش .

- إنت اللى معرفنى عليه ، أكيد تعرفه أكتر منى

- أنا أصغر منه بسبع سنين ع الأقل، ما كنتش أعرف حتى إنه إتحبس، أنا حتى مش مصدق إن له نشاط سياسى خالص، بقولك إيه ، إنت اتعشيت ؟ أنا جايب كباب م الحاج راشد .

قالها يزهو المالك ثم فتح اللفافة ووضعها على الترابيزة بينما عيناه تجولان ف المكان . جلس وطلب منى أن آكل معه فشكرته لكنه ألح وهددنى بالامتناع عن الأكل متراجعا إلى الوراء ببدنه فأجبرنى على مشاركته ، كان طعم الكباب لذيذا إلى حد أنه أشعرنى بالجوع ،حاولت أن أتذكر متى تناولت آخر وجبه فلم أفلح وربما قلت لنفسى أن الكباب وحده قادر على استثارة الشعور بالرغبة فى الأكل حتى لو كان الواحد شبعانا فسوف

يشعر بجوع .

بعد أسبوع جاءنا المتولى على غير توقع مني، رحب به طلبه وعبر عن أشواقه وترحيبه بتشريفه المسكن، كان المتولى يتأمل محتويات المكان مبديا استياءه من مستواه أو عدم نظافته وعدم استعداده للجلوس في نفس الوقت، اقترح علينا أن نصحبه إلى شارع خيرت فلم يمانع طلبه ، وبقيت وحدى مصبوبة على وجهى النظرات فؤمأت مستسلما وراضيا بمرافقتهما. وفى الطريق توقف المتولى ليشترى من أكبر دكان فى الميدان كثيرا من المستلزمات التى قال إنها ضرورية للشرب، فهمت أنها ليلة سكر واستعدت المكان فى الذاكرة حتى وصلنا، فتحت لنا سيدة جميلة ومثيرة كانت ترتدى روب رجالى على اللحم كما تأكد لى ، أمرها المتولى بتجهيز محتويات الحقيبة التى كان يحملها معه فى أطباق وتجهيز كئوس تليق بشاعر وهو يشير ناحيتى ، لا بد أننى شعرت بالخجل لكنه واصل كلامه متجاهلا السيدة تماما ومتوجها هذه المرة لطلبه العتمان ليقول له وهو يجلس إلى جواره ويربت على كتفه :

- أهلا وسهلا، ضيعت القصيدة يا حيوان ؟ بعت البدله بكام ؟

- خلاص بقى ، ما كنتش أعرف ، وسيد مسامحنى .

- إنت ضيف الشرف يا سيد بيه والولد ده خدامك الليله .

قالها المتولى وهو ينظر ناحيتى بمودة وينقل نظراته فى اتجاه الآخر باستهانة بدت لى كامنة تتوارى خلف ابتسامته، كانت بالنسبة لى ليلة حمراء على كل المستويات ، شربت حتى صرت نصف واع بما يدور حولى ، لعله أشار إليها لتأخذنى إلى واحدة من حجرات النوم ولعله لم يفعل، لكنها ساعدتنى فى خلع ثيابى ولم أساعدها لأنها لم تكن تحتاج لمساعدة ، وعلى

العكس مما كنت أتصوره بأننى سأنام ولا أحس بنفسى ظللت سهرانا حتى رأيت ضوء النهار يغزو المكان فاقوم وأتلفت حولى فلا أجدها بجوارى ، أخرج من الغرفة فلا أسمع صوتا أو حتى نفسا يوحى بوجود أى كائن حى فى المكان. رحت إلى المطبخ وبحثت عن الطعام فوجدته مرصوصا فى طبقين إلى جانب رغيف كبير وحيد كان يكفينى ويزيد ، أكلت وشبعت وفكرت فى الخروج متوجها إلى مقر عملى فى المبنى المجمع ، جهزت نفسى لمغادرة المكان لكننى قبل الخروج بلحظات رأيت الباب ينفتح والمتولى ومن وراءه طلبه يدخلان وعلى وجه كل واحد منهما ضحكة تليق بمن يهنئ عريسا فى أول زيارة له صباح ليلة الدخلة ، سألنى المتولى عن الشيخة «سعاد» وإن كانت حلوة تليق بينما ضحكاته تجلجل فى المكان متهما إياى بأننى خجول ومعزول عن الدنيا وما يجرى فيها ، ربما استنكر جرأتى على كتابة الشعر بلا تجارب حقيقة فى الحياة وكأن الشعر لا يجوز لأمثالى ، ويومها وعدنى بأن يدخلنى التجربة ليصقل موهبتى حسبما قال. اقترح على طلبه أن يتولى نقل بعض الضروريات الخاصة بنا من مسكننا المتواضع فى زين العابدين لنشاركه شقته البراح لأنه وحيد وغريب ويحتاج لمن يؤنسه ، ولم يكن هناك غير الكتب التى كنت أملكها وثيابنا الخاصة التى سمح لنا المتولى بأن ننقلها لنبدأ من أول وجديد .

كان المتولى يكبرنا فى السن ويملك اضعاف ما أملك من التجارب على كل المستويات ، اقتحم حياتى بوعيه الزائد وقراءاته المتنوعة ، وكانت لديه مكتبة سخية مثله وقادرة على العطاء بشكل متواصل ، لكنه أيضا كان يقول إن الدنيا بأسرها مدينة له بسنوات حبس لم يكن يستحقها ، وبمنطقه كان يريد أن يعوض كل ما فاته وحرم منه ، وبإلحاح منه تعلمت التدخين

والشرب والسهر ، وبتشجيعه تجاسرت ونشرت أول قصيدة شعر فى حياتى. كانت له معارف كثيرة وعلاقات متنوعة ، يصحبنا إلى الملاهى الليلة فى وسط المدينة وشارع الهرم فنأكل ونشرب ويدبر هو بعد السهرة مؤامرة خطف واحدة تكون قد أعجبته من بنات الليل ، ونكتشف أنها لم تمانع أبدا فى اختطافها وأنها هربت من دفع معلوم لمسئول فى الملهى الليلى ، وكان ينفق ببذخ ويتعامل بجسارة مقاول كهرباء كبير بحسب ما كان يقول لنا ولكل من يتعرف عليه ، كان يقتادنا لنسهر ونجرب ونتفرج على الدنيا ونتعرف على سراديبها التحتية بحسب ما كان يقول قبل أن نعود إلى الشقة فى شارع خيرت ونكمل سهرتنا حتى يطلع نهارنا ، نضحك ونسخر من كل شيء ونتجاسر على فعل ما لم نفكر فى فعله وقول ما لم نجرؤ عليه قبله ، وكانت لديه تفسيرات عميقة وبسيطة فى نفس الوقت لكل ما كان يبدو لنا غامضا أو مجهولا.

ولعل المتولى كان رائدا فى محاولات البحث عن الحل الثالث على المستوى الشخصى بحسب ما كان يقول متباهيا بالمعرفة والخبرة، كان أحيانا يتحدث عن نفسه وعنا باعتبارنا طرحا لمجتمع من العالم الثالث فشلنا فى الانتماء مثل السيد " كولن ولسن" الذى كان قد نشر كتابا تحت عنوان " اللا منتمى " قرأناه وتحاورنا فى تفاصيله فنكتشف أو نتوهم أنا اكتشفنا معا أنه كتبه من منطقة ترف برجوازية أبدية مرتاحة بما كدسه آباؤها وأجدادها من ثروات المستعمرات التى هيمنوا على مقدراتها سنوات وسنوات، وكان يرى أنه لا بديل لنا عن الحل الاشتراكى رغم كونه محسوبا غصبا عنه فى مربع الرأسمالية المستغلة بحسب ما كانت هذه التقسيمات شائعة ومتداولة، كان الحل الثالث قد فرض عليه فرضا باعتباره مبعدا عن

المشاركة بشكل إيجابى ، وعندما يسأله أى واحد منا مداعبا عن مقصده بعبارة الحل الثالث على المستوى الفردى يقول :

- الواحد مننا ما دام مالوش دور فى الدنيا دى يستهلك نفسه يستهلك كل حاجه حواليه الزمن والربح الحرام والشعارات المطاطه ، المخفى منها والمعلن عنه لحد العقل السليم فى الجسم السليم .

كان يرى نفسه سياسيا شريفا مطعونا بتقارير زائفة حبسته بتهمة الانتماء لتيار دينى متشدد وأفرجت عنه يساريا راغبا فى قطع علاقاته بكل من عرفوه ، كان فى بعض حالات السكر البين ينزل صورة عبد الناصر المعلقة فى مدخل شقته بإطارها الذهبى من فوق الجدار ويضعها أمامه ويسأله بمرارة :

- بقى يا راجل يا طيب تسيب رجالتك تمسكنى وتحبسنى على أساس إنى تيار دينى وبعدين بقدرة قادر يفرجوا عنى وأنا محطوط ف خانة الشيوعيين ؟ إزاى ؟

- كان نفسى أشارك معاك بجد ما عرفتش، اتسطلت وخنت وبعت وقاولت وكدبت على روحى ،حاولت أخرج من جلدى بس ما عرفتش ، فيه حد يا راجل يا طيب يقدر يغير خلاياه أو دمه اللى بيجرى ف عروقه ؟ يبقى إيه الحل ؟

- شوفوا يا جماعه ، ما فيش غير الحل الثالث ، الموت بقصد .

كان يبدو مهزوما ومحاصرا لا يتورع عن استفزاز من يلتقى بهم أو يقتربون منه قائلا لأى واحد منهم على الملأ إنه انتهازى يبحث عن صفقة خاطفة أو علاقة يتكسب منها على المدى البعيد والقريب أو حتى سهرة مجانية ، يقول ويقهقه بصوت عال وكأنه انتصر أو مزق عامدا خيطا يربطه

بالدنيا وناسها ، كان طلبه ينظر إلي ويشهدني على تصرفاته ولا يعترض أو يخفف عنه بينما أحاول ولا أفلح فى غالبية الأحوال ، ربما كان يشعر بذلك فيتخفف من كراهيته للدنيا أو يرجئ قراره الخاص برغبته فى التخلص من حياته ، لعله كان عاشقا للحياة بكل عنفوان ومستخفا بها بضراوة على نحو محير فى نفس الوقت ، ولا بد أننى تعلمت منه الجرأة على البوح بما هو محبوس فى داخلى من آراء عن الواقع الذى أكابده ولا أفهمه ، وفى لحظات التواصل كان يبوح لى منفردا :

- أنا أتجوزت خمس مرات ماخلفتش ، كشفت عند دكاتره كبار خالص ومتخصصين قالولى إنت سليم ومافيكش عيب ، غيرت الأولانيه والثانيه والتالته والرابعه بس ما أقدرتش بعد الخامسه أحلـــم بالعيل إللى ح يشيل اسمى .

- قريت ف الموضوع ماعرفتش له أول من آخر ، استسلمت .

كان المتولى بالنسبة لى وجها محصورا فى كيان تاه أو سقط بالمعنى الوجودى فى عالمنا وأدرك على نحو واع أنه لن يتمكن من القيام بأى دور فاعل ومؤثر فى زمنه ، كان مستبعدا على غير إرادته ومتباعدا كرد فعل بإرادته ، وعندما حاول الانتحار لأول مرة بقطع شريان يده اليمنى أخرجناه من حمام كباريه فى شارع الهرم بعد أن غاب عنا بشكل ملحوظ ، حملناه وأدخلناه أقرب مستشفى فأنقذوه وطمأنونا على مستقبله ، لكنه فى المرة الثانية شرب مادة سامة وتمدد على سريره فتوهمنا أنه نام بعد سهرة ممدودة ، لكن المهندس خضرى جاء وسألنا عنه فقلنا له إنه نائم ، كان يبدو متعجلا وقلقا لأن مقاولة من مقاولات المتولى سوف تضيع ما لم نوقظه ليوقع بنفسه على الملاحقة المضمونة ، أدخلناه وسمعنا صرخته تستنجد بنا ،

ليلتها سارعنا باستدعاء طبيب فى العمارة المجاورة فاستجاب مغلوبا على أمره وهو يفرك عينيه من أثر نوم ثقيل أجبر على الحرمان منه ، لكنه بقى سهرانا لأكثر من يوم آخر بجوار المتولى ولم يغادر إلا بعد أن رأى المتولى يفيق انفسه ويسألنا ساخرا

- لحقتوا تيجوا ؟ وكلكم مع بعض مرة واحدة ف نار جهنم ؟

ابتسم الطبيب الساكن فى العمارة المجاورة وقام بروب النوم ليخرج ويرحونا ألا نوقظه مرة أخرى بمشروع انتحار جديد واصفا كل المجموعة بالجنون دون استثناء. وبدا لنا أنه كان يرانا ويشهد على انفلاتنا أو يسمع أخبارنا على الأقل من الجيران ، لكنه خرج رافضا بإصرار أن يأخذ أى أتعاب لأنه أنقذ حياة صاحبنا وتركنا ننظر إلى المتولى معاتبين له أو مشفقين عليه ونسمعه يقول

- تعبتوا روحكم ع الفاضى .

بعد يومين وليلتين قضاهما راقدا وعاجزا عن الحركة خرج وغاب لكنهم أخطرونا بواسطة مخبر سرى أن زميلا لنا تعرض لحادث مؤسف بجوار برج القاهرة ، كان المتولى قد القى بنفسه من فوق وتحول إلى جثة تهشمت وتناثرت محتويات دماغها الذى كان قادرا فى أحيان كثيرة على ابتكار الحلول لبعض المشكلات التى تبدو لنا مستعصية على الحل .

●●●

نزلت حاملا حقيبتى بينما السائق يستعجلنى طالبا الأجرة ، ناولته ورقة بعشر جنيهات ، قلّبها بين يديه وهو يرمينى بنظرة استطلاع ، مدها ناحيتى مترددا وطالبنى بعملة أقل ، أضاف وهو يتلفّت حول نفسه أن أجرة

النّفر يوم السوق جنيه كامل خلافا للأجرة المعتادة ، أومأت له موافقا على تسعيرته فى يوم السوق ثم اعتذرت عن وجود عملة أقل ، لعله قاسنى بنظرة استطلاع وهو يلوح بالورقة للركاب خلفه وإلى جواره :

- خمستين يا جماعه ، ربنا يفكها فى وش إللى يفكها علينا .

وبدا لى أن أكثر من واحد من الجالسين تطوع بالصوت والحركة معلنا استعداده ، ربما لأنها كانت جديدة ، وربما أملا فى أن تنفك الدنيا فى " وشه " ، لكن السائق حصل على ورقتين من الراكب إلىٰ جواره ، ناولنى إحداها ووضع إبهامه فى فمه متحيرا قبل أن يلوح بالورقة الثانية التى بدت لى أقل إغراء فى عيونهم وهو يسأل بفتور :

- طيب ما حدش معاه فكة شلن ؟ فكة شلن يا جماعه .

- إيه مافيش ؟ كله مجمّد ؟

وبدا لى أن الوقت قد طال فوضعت الحقيبة على الأرض فى انتظار أن تنحل المشكلة ، لكن السائق اقترح وهو يبتسم :

- تستنانى ع الكوبرى ياسيدنا الافندى لحد ما أوصل الجماعة دول لحد الكفور الجوانيه وارجع لك ؟ يمكن ربنا يفكها هناك ، وان ماشوفناش بعض ح يبقى لك عند ربنا ، و تبقى تسامح العبد الغلبان ف الباقى ، إنت باين عليك إبن حلال ياسيدنا الأفندى .

قال عبارته الأخيرة ونظر أمامه استعدادا لتحريك السيارة ، ومن ورائى شعرت براحة عم حسنين المدندش تزيحنى برقة من مكانى ليقف بينى وبين السائق ويهمس عابثا :

- خبر إيه ياعزازى ؟ مش ح تبطل أمور الخطف دى ؟

- أهلا يا مدندش ... ما تلف وتركب ، ح اوصلك مطرح ما إنت عايز من غير أجره ... عايز تروح فين ؟

- عايزك ترجع الباقى لصاحبه يا نصاب .

- وانت محموق كده ليه ؟ هى كانت فلوس أبوك ؟

- لأ فلوس إبن أسيادى وأسيادك وأسياد اللى يتشددوا لك كمان .. قلت إيه ؟

- ياه .. كدهه مره واحده ... خوفتنى ، بس سيدنا الافندى دهغريب ع الخط يا مدندش .

- غريب دا إيه ؟ دا من جماعة عوف ياللى تنشك .

- ما حدش مننا شافه قبل كده ، يقدّر إنه خد العربيه مخصوص، كل سنة وانت طيب يا سيدنا الأفندى .

قال العبارة الأخيرة وهو يلوح ناحيتى مودعا قبل أن يحرك السيارة بالفعل على مهل ، لكن المدندش قفز بخفة وكأنه طائر ليقف أمامها تماما فأجبر السائق على الوقوف ، نزل من السيارة واتجه ناحيته ، همس فى أذنه بعبارات لم أسمعها لكن الرجل ظل يشوح بيديه ويهز دماغه رافضا عروضه فى حسم ، وبدا لى أن السائق لم يفلح فى إقناعه فأخرج فى استسلام لفافة اوراق ماليه أكثرها جنيهات وأنصاف جنيهات وأرباع جنيهات ، وبدأ يعد الباقى وهو يتضاحك ويناكف عم حسنين الحريص على إعادة أوراق العملة التى يراها متهالكة للسائق فيستجيب ويبدلها له لينال رضاه وهو يعقب على كل موقف مشاغبا بمودة وعشم .

- جتك لهو يا مدندش ، محسوك كده ليه ؟

- لهو لما يلهفك يا حرامى يا خطاف .

- حرامى دا إيه ؟ دى شطاره يا مدهول ، اما نشوف ح يشحتك كام يا شحات .

قال عبارته الأخيرة بينما يركب السيارة ويحركها فتتباعد مخلفة وراءها عاصفة من الغبار والعادم إلى الحد الذى جعل المدندش لا يتمكن من الرد عليه ، ناولتى الجنيهات الملفوفة كما تسلمها من السائق فحاولت أن أبقيها له إشارة من يدى فبدا غضبانا ومحروجا وهو يهمس لى معاتبا ولائما فى ذات الوقت .

- دا كده يبقى أنا شحات بصحيح زى السواق ماقال يا سيد أفندى .. ترضاها لى ؟

- أنا آسف جدا .. ما أقصدش خالص .. أصل ..

- ولا أصل ولا فصل .. حمد الله على سلامتك

قال العبارة الأخيرة بمودة واشتياق عابرا إحساسه بالجرح الذى لابد أننى سببته له دون قصد. تناولت الجنيهات من يده الممدودة ودسستها فى جيبى بغير اهتمام بينما يسارع هو بنفس اليد التى تخلصت من عبء العملة بحمل حقيبتى ، يسألنى بمودة عا عادته ليستفسر عن وجهتى مثل كل المرات السابقة :

- على فين العزم إنشاء الله ؟

- بيت صالح .

●●●

تعرف ياسيد أفندى إن السواق الخطاف ده فكرنى بأفندية زمان ، رفاعه أفندى الطهطاوى وسيد أفندى درويش واحمد فندى عرابى وعبد الله أفندى النديم .

- إزاى يعنى يا عم حسنين ؟

- أصله لما قال عليك أفندى افتكرت أفندية زمان إللى قلت لك عليهم ، وافتكرت عباس أفندى العقاد ومحمد أفندى عبده وسعد أفندى غلول مش كانوا كلهم أفنديه برضه ؟

- كانوا يا عم حسنين ، كانوا .

- إنت بتريحنى يا سى السيد ؟ واخدنى على قد عقلى يعنى ؟

- ليه بس ؟ كلهم كانوا فعلا أفنديه ف الأول ، بس ناس منهم بقوا بهوات وباشوات بعد كده .

- ما أنا عارف .. أصل أنا قريت فى الكتبات بتاعه التلامذة . حكايات خليتنى أحبهم وهما افنديه .. تعرف إن محمد على يليق عليه قولة محمد أفندى على أكتر من محمد على باشا .

- إزاى بقى يا عم حسنين ؟

- محمد على أفندى يبقى مننا إنما لما يبقى باشا يبقى منهم ، م التراكوه اللى ادوه رتبة الباشويه ، هما مش كانوا ف الأول بيقولوا عليه أفندينا ؟

- فعلا ... كانوا بيقولوا عليه افندينا

- أهو لحد ما كانت الناس بتقول عليه أفندينا كان يخصنا وحاسس بينا، لكن لما بقى باشا دخل ف سكة إللى يروح ما يرجعش ، تفتكر جمال عبد الناصر ده تليق عليه كلمة أفندى ولا باشا ؟ أنا بيتهألى أنه افندى زيك كده ، ما ينفعش يبقى باشا .

- غريبه الكلام اللى إنت بتقوله ده يا عم حسنين .

- ولا غريبه ولا حاجه ، أهى رطرطة كلام نسلى روحنا بيه ف السكه يا سيد افندى .

- لأ . دى مش رطرطة كلام .. ده كلام موزون ووراه معانى محتاج تفكير وقعاد .

- لما تبقى فاضى يا سيد أفندى نبقى نقعد ونتحاكى . بس إنت موافق إنك ح تبقى بالنسبه لى سيد أفندى على طول ومش بيه ولا باشا ؟

- موافق يا عم حسنين .

- ما أهو إنت راخر بتقوللى يا عم حسنين ، الوحيد اللى بيفكرنى باسمى الأولانى ،كلهم بيقولولى يا مدندش ، نسيوا حسنين دا خالص ، وانت إللى بتفكرنى بيه يا سيد أفندى ، يعنى واحده بواحده .

كان صالح فى مواجهتى ، واقفا كأنما ليعترض طريقى ، كنت ألمح على تقاطيعه شبح إبتسامة من أفلح فى مفاجأة زميله فى لعبة الصياد والحمام ، همّ بأن يقول كلاما ثم تراجع ، نظر الى عم حسنين والحقيبة التى يحملها ، بدا لى أنه فكر قبل ان يطرح سؤاله وهو يأخذنى فى صدره :

- على فين العزم كده ؟

- سيد أفندى طلب منى أوصل الشنطه دى لحد داركم يا سى صالح، هما الجماعه مش ف الدار برضه ؟

بذلك تطوع المدندش موضحا قبل أن يتلقى رد صالح:

- أهم ف الدار يا مدندش .. ح يروحوا فين ؟

- أفوتكم أنا بقى .. قال يا داخل بين البصلة وقشرتها .

- مين فينا ياللى تنخبط ف نافوخك البصلة ومين قشرتها ؟

- أنا عارف بقى ؟ أهو كلام يا سى صالح .

قال المدندش عبارته الأخيرة وهو يلتفت متباطئا ثم معتدلا ومتسارعا فى اتجاه بيت صالح ، لعله فكر أن وجوده بيننا لم يكن مطلوبا ، ولعله أراد

أن يتيح لنا فرصة التعامل منفردين دون رقيب. أومأ صالح راضيا عن تصرف المدندش ومد يده اليمنى ليمسك قبضتى ويقودنى إلى معكوس الاتجاه الذى كنت أسير فيه ، كأنما كان يفر من شئ مجهول ومتواجد فى داره ،همس بعد تنهيده :

- إحنا ح نتغدى ف الغيط يا أستاذ

لم أعلق ، لعلنى استشعرت حرجا لأننى قررت زيارته فى توقيت لا يناسبه ، لعلنى تصورت خلافا كان قد حدث فى داره ، ولعلنى فسرت الأمر على أنه نوع من عدم الترحيب بوجودى يتخفى وراء الصمت الذى طال بحساباتى ، لعل المدندش شم الرائحة بحاسته وفر من الموقف بذكاء على العكس منى ، لكن صالح طمأننى وأزال شكوكى لأننا بعد أن تركنا البنايات وصرنا وسط الغيطان طرح سؤاله يستوضحنى :

- الوالد إزى حاله يا أستاذ ؟ شفته قبل ما تنزل الكفر ولا ؟

- الحقيقه لأ .

- أصل انا بلغنى يعنى إنه كان زعلان منك ، هو كان زعلان منك بصحيح ؟

- أبوك بيزعل من حاجات بسيطه ويبقى طبعه صعب يا صالح وأنا ساعات ما بافهموش .

- بقى إنت اللى بتقول كده يا أستاذ ؟ دا انت متعلم وطول عمرك عايش وياه ، أمال اللى زى حالاتى يقول إيه ؟ دا أنا خدت مراتى ورحت له من شهر ، قابلنا زى الأغراب ، بقيت ف نص هدومى ، مابيّتناش ورجعنا بليل زى الموالديه ، طبعا يومها اشتكى لنا منك وقال كلامٌ مايصحش ينقال ف وجود الحريم ، لكن أهو قال ، الوليه إنقلب ميزانها ف الدار ، زى ما تكون كلبه ووقعت ف سكتها عضمه ، أنا صحيح ماسك لجامها ف إيدى ،

بس قلت أفطّمك لاجل ما تبقى عارف ، حاكم التحريم لسانها مفلوت ، أنا مش عايز حد يتداخل بينى وبينك ، حتى لو كانت ام العيال اللى بتْرقد ف حضنى ، أصل إحنا ع البعد والقرب إخوات ...

- يا صالح .. ياسى صالح ..

قاطع النداء المتواصل صوت صالح فكف عن الاسترسال والتفت إلى الوراء مثلى لنرى عم حسنين وقد أمسك بذيل جلبابه مرفوعا ليتيح لنفسه سرعة أكثر ، وعندما وصل الينا جاهد أن يلتقط أنفاسه قبل أن يعلن:

- الجاموسه يا سى صالح ... الجاموسه ...

- مالها يا مدندش .. فطست ؟

- لأ .. ما فطستش

- ولدت قبل معادها ياوله ؟

- لأ .. ما ولدتش

- أمال جاى ترمح وسط الغيطان وعاملك قلبه ليه ؟

- أنا مالى ؟ ماهى الست أم محمد هى اللى باعتانى ، ومأكده عليا ترجع تشوف لك تصريفه ف الجاموسه اللى لا بتولد ولارما بتولدش

- يا وله اظبط كلامك .. فزوره دى يا مدندش ؟

- مراتك ياسى صالح بتقول لك إن الجاموسه واخده على خاطرها خالص ، وعماله تنعر ونعيرها يجيب ميتين ، ما تقوله يا سيد أفندى يرجع الدار بشوف فيها إيه ... يمكن بينه وبين أم العيال « سيم » .

- الحقيقه أنا ..

- خلاص يا مدندش .. ياللا بينا يا أستاذ

وشرعنا فى الرجوع ، كان المدندش ورائى بنصف خطوة ، محسوبا عليه مشاركتنا مشوار العودة دون مشاركة ف الحوار الذى كان متواصلا حول

زيارة صالح لأبى ليلة مولد السيد البدوى وبعض ما شاهده فى الساحة ووصفه للوجبة الدسمة التى قدمها لهما أبى فى داره ، لعله كان يريد أن يوصل للمدندش رسالة تؤكد حسن علاقته بأبينا ، كنت أتسمع وأسايره فى تفسيراته وأوافقه حين يحتاج إلى شهادتى والمدندش يتسمع مثلى ويريح صالح بعبارات التأييد ودعوات المباركه والتمنيات الخالصة براحة النفوس.

وعندما دخلنا درب أولاد عوف لم نسمع صوت جاموسة ولا صوت بعره ولا حتى صوت حمار. بادلنى المدندش نظرة تفاهم قبل أن يستأذن من صالح ، الغريب ان صالح لم يفكر فى استبقائه حتى ولو من باب الاحتياط لاحتمالات أن يحتاجه إذا شرعت الجاموسة فى الولادة كما أبلغنا ، وعندما اقتربنا من باب الدار أوقفنى صالح وجعل يتأملنى وكأنه يقيسنى قبل أن ينبهنى هامسا بصوت مسموع

تلافيها استبوخت نتغدى فى الغيط ، والمدندش ما كدبش خبر ، كان باين عليه بيكدب ، كدبه بيضا زى ما بيقولوا الأساتذه ، ع العموم أنا نورتك من ناحيتها ، أوعاك تجرجرك ف الكلام وتغرق ف بحرها الغويط ، ماهى من يوم زيارتنا للوالد ما بتبطلش تفتيق ف اللى فات ، بس اللى فات مات ، مش اللى فات مات .

يا أستاذ ؟ ولا إنت لك كلام تانى ؟

- أبدا .. ماهو إللى فات مات ، مادام فات يبقى مات بدا عليه الارتياب فى كلماتى ، لكنه لم يكن لديه بديلا عن دعوتى للدخول الى داره ، تنحنح معلنا وجوده أولا ، ثم شرع يبالغ فى استقبالى بالترحيب المعلن بوصولى وكأنه يرانى لأول مرة الى الحد الذى أنسانى مشوارنا المشترك فى وسط الغيطان ورجوعنا برفقة عم حسنين وتصديقى أن الجاموسة كانت بالفعل تلد ولا تلد .

أحمد الشيخ

❑ ليسانس آداب قسم تاريخ ١٩٦٧ آداب عين شمس، دبلوم تمهيدى ماجستير فى تاريخ مصر الحديث ١٩٦٨ .

❑ حصل على الجوائز التالية: جائزة الدولة التشجيعية ووسام الدولة للفنون من الطبقة الأولى عن مجموعة "النبش فى الدماغ" ١٩٨٥، جائزة نادى القصة ١٩٦٣ "وجائزة المسابقة القومية فى القصة القصيرة " للمجلس الأعلى للثقافة " بداية السبعينيات، وجائزة تيمور الأدبية فى التسعينيات.

❑ صدر له:

- رواية: الناس فى كفر عسكر، حكاية شوق، حكايات المدندش، مواسم الشروق.

- فى مجال الكتابة للطفل: عسكرى الشطرنج الأبيض، نخلة حازم، فنجان الشاى الصينى البيت الصغير

هذه الرواية

تكتمل خماسية "كفر عسكر" للروائى الكبير: أحمد الشيخ، باعتبارها مشروعا طموحا لرصد الحركة الاجتماعية والسياسية فى الريف المصرى، ولأن المجتمع الريفى أغلبية، ولأن المعالجات الفنية فى الرواية قدمت أعمالا جديرة بالتقدير من جيل الرواد وكان لزاما لجيل الستينيات الذى ينتمى له مواصلة مشوار الإضافة بقدر الإمكان، وقد كلف الكاتب نفسه ليقدم مشروعه الخاص لرواية القرية المصرية، وجاهد أن يضيف على المستوى الكمى والكيفى ليقدم عالم الريف كما عايشه وتفاعل معه من خلال رواية وجهات النظر، فقدم / الناس فى كفر عسكر / وحكاية شوق / وحكايات المدندش / وسيرة العمدة الشلبى، وعلى لسان أبطالها يتداخل الزمن ويتجادل مع الأحداث فى كل نص بهدف تقديم بانوارما للقرية المصرية على امتداد نصف القرن تقريبا.

فى رواية "أرضنا وأرض صالح" حكايات رواها سيد عوف تبدأ باستعادة لحظة ميلاده بقاعة معتمة فى الكفر، ويتباعد غصباً فى سنوات الصبا عن الأرض والأهل وحضن الأم، لكن حياته فى المدن المزحومة لا ينسيه جذوره، يظل ساكنا بوعيه ولا وعيه فى عوالم آبائه وأجداده بجذورهم الراسخة، ويستفزه إنكار زميل دراسة من قرية مجاورة كونه من أولاد عوف فى سنوات صباه، فيدفعه بشكل غير مباشر للتأكد من جذوره، يعايشهم برغم التباعد بمدينة قريبة فى صباه.

وأهم ما سعى له الراوى هو المصداقية فى طرح الهم الإنسانى والحلم المشروع فى الحياة، وتبقى «سالى سكر» فى خياله أمنية قابلة للتحقق، و«سعاد» الأخت قادرة على تضميد الجراح، وتبقى كفر عسكر للراوى منطقة ضوء قادرة على توليد الأمنيات، ووطن تزرع أرضه كل يوم فى قلوب ناسه حلما، مثل صدر الأم المشحون بمشاعر الدفء المتواصل والعطاء الذى لا ينضب.

رقم الإيداع
٢٠٠٨ / ٢٠١٥٦
I . S . B . N
977-07-1320-1

روايات الهلال

عشق البنات

للروائية

هويدا صالح

تصدر: ١٥ نوفمبر ٢٠٠٨

رئيس مجلس الادارة
عبد القادر شهيب

رئيس التحرير
مجدى الدقاق

روايات مصرية للجيب

إنها بالفعل شىء ملائكى رائع

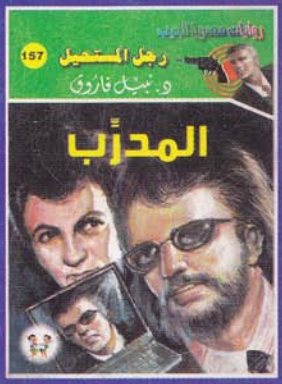

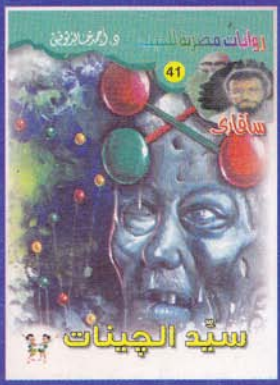

روايات مصرية للجيب

معشوقة شباب
العالم العربى
من مشرقه
إلى مغربه

شلال متدفّق من الروايات لايهدأ، ولا يخمد .. يستولى على ألباب القراء، ويبحر بهم إلى آفاق رائعة من الثقافة، والمتعة، والإثارة.

المؤسسة العربية الحديثة للطبع والنشر والتوزيع 10، 16 ش كامل صدقى الفجالة،
4 ش الإسحاقى بمنشية البكري روكسى مصر الجديدة - القاهرة - ت: 26823792 - 25928202 - 22586197
فاكس - 202/25966650 ج.م.ع، 4 ش بدوى محرم بك - الإسكندرية ت: 03/4970840 - 03/4970850